

مَوْسُو عَتَا التَّارِيخِ الْإِسْلَامِي

عَصْرُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ

عَبْدُ الْحَكِيمِ الْكَعْبِي



دار أسماء

الناشر

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن - عمان

الطبعة: ٥٦٥٨٢٥٣ - ٤٦٤٧٤٤٧

الطبعة: ٥٦٥٨٢٥٤ ص. ب: ١٤١٧٨١

تقوية الطبع محفوظة

٢٠٠٩ م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

المؤلف،

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

المقدمة

عصر الخلافة الراشدة هو العصر المضيء بعد عصر النبوة، تلك النبوة التي أكرم الله بها العرب أولاً والعالمين جميعاً بما جاءت به من تعاليم وشرائع معتمدة على كتاب الله عز وجل، فقهّر الظلم وساد مكانه الحرية، وتلاشى الكفر وأحل في موقعه الإيمان، وزال الشر واستبدل بالخير.

هذا الدين الذي جاء به النبي محمد ﷺ وأراد أن ينشره في الجزيرة العربية وخارجها، فأكمل رسالته وجاء من بعده بعض صحابته فأكملوا المشوار الذي بدأه نبيهم المصطفى، وحرصوا كل الحرص أن يشق الإسلام طريقه خارج صحراء العرب، فعم بلاد الشام وفلسطين ومصر، وتوسع في العراق وبلاد فارس، ودخلت فيه أمم شتى وشعوب متعددة، وهكذا ساد الدين الإسلامي.

وكنا قد أصدرنا مع هذا الكتاب كتاباً آخر حمل عنوان "موسوعة التاريخ الإسلامي في عصر النبوة وما قبله" وأظنه سيصدر مع هذا الجزء الذي تتولى دار أسامة مشكورة بنشره ضمن سلسلة موسوعية عُرفت باسم موسوعة التاريخ الإسلامي التي شملت الأجزاء التالية:

- ١- عصر النبوة.
- ٢- عصر الخلفاء الراشدين.
- ٣- عصر الدولة الأموية.
- ٤- عصر الدولة العباسية.

٥- العصر العثماني.

٦- عصر المماليك.

وقد حرصت أن يكون هذا الجزء مسترسلاً لما بدأت به في الجزء الأول لا انقطاع بينهما إلا من خلال التسمية بالجزء الأول والجزء الثاني. والحقيقة أن هذا العمل اعتبره عملاً خالصاً لوجه الله لخدمة أبناء الإسلام أنا يكونون وإلى أي جنس أو لغة ينتمون.

وقد كان هذا الجزء خاصاً بالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

١- أبو بكر الصديق.

٢- عمر بن الخطاب.

٣- عثمان بن عفان.

٤- علي بن أبي طالب.

وقد رأيت تسهيلاً على القراء ورأفة بأبناء الإسلام ألا أدخل في التفسيرات أو التأويلات التي لا أراها ذا فائدة ترجى أو هدفا يقصد، ومن هنا حاولت أن أتوقف عند الأحداث الجسام وذكر ما هو ينفع ويجدي ولا أتورط كما تورط بعض الباحثين في الاستشهاد والدعم لرأي وتصويب موقف يرى فيه قضيته الذي أنشأ بحثه وكتابه عليه.

ومن هنا كان هذا البحث علمياً بقدر الإمكان، وقد بدأت بالحديث عن خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه متوقفاً عند الظهور الأول لمنصب

الخليفة، ثم تحدثت عن كيفية وصول الخلافة إلى صاحب رسول الله وصديقه وأول من أسلم من الناس -أبي بكر الصديق-.

وقد وقفت عند حركات المرتدين تلك الحركات التي أعقبت وفاة النبي ﷺ وتسلم أبي بكر الصديق للخلافة كحركة مسيلمة الكذاب وسجاح وطلحة الأسدي وغيرها من الحركات التي صاحبت تولي أبي بكر للخلافة وكيف وقف الخليفة أبو بكر الصديق الموقف الحازم الصارم، فقتلهم بقادته وفرق شملهم بصناديد فرسانه، وأثنى جراحهم في كل موقع كانوا يلجأون إليه.

ثم تحدثت عن الفتوحات التي تمت في عهد الخليفة أبي بكر في العراق والشام والمعارك التي أشعلها قادته وجنوده كمعركة الحيرة وتحرير الأنبار ومعركة أجنادين واليرموك.

ثم انتقلت في الحديث إلى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومبايعته بالخلافة والفتوحات التي تمت أثناء خلافته، كفتح بلاد الشام وفلسطين وتسلمه مفاتيح بيت المقدس، ودوره في معركة القادسية الشهيرة التي كانت خير دليل على عبقرية هذا الرجل وصلابته في المواقف الصعبة.

ثم تحدثت عن فتوحات قادته في مصر وبرقة وأفريقيا، وكيف استطاع أن يقهر بحنكته كبار الدول كالرومان والفرس وغيرهم، وأشرنا فيما بعد إلى التنظيمات الإدارية التي كان له الفضل في إرساء قواعدها وابتداع أسسها، والدواوين التي أقامها مثل ديوان الجند وبيت المال وغيرهما، وكذلك دوره في بناء المدن الجديدة لجنده وسعة بصره فيها كتأسيس البصرة والكوفة والفسطاط.

وانتقلنا بعد ذلك إلى الخليفة عثمان بن عفان ؓ فتحدثنا عن كيفية وصول الخلافة إليه، ودوره في إكمال مشوار الخليفة عمر بن الخطاب ؓ وجمعه للمصحف وغيرها من الأعمال التي أقيمت في عهده ثم توقفنا عند جريمة مقتله، والأسباب التي أدت إلى مقتله والنتائج السياسية التي أعقبت استشهاده.

وتحدثنا فيما بعد عن الخليفة علي بن أبي طالب ؓ - حبيب محمد ﷺ - وأول المدافعين عن محمد في معارك مكة المعنوية، ومعارك الصحراء العسكرية، مواقف ما زال يذكرها التاريخ، ويدرسها المعلمون للتلاميذ.

ووقفنا عند الطريقة التي وصل بها إلى كرسي الخلافة والخلافت التي دارت حول هذه الخلافة، وموقف المسلمين في المدينة وخارجها من دم عثمان.

ولاشك أن علياً تسلم خلافته في وقت صعب، حيث بدأت الانشقاقات تدب في جسم الدولة الإسلامية، فحاول أن يهدئ من هذه الأحداث، والوقوف بهذه الدولة من جديد ولكن الأحداث كانت أكبر من طموحاته وأجبر على خوض معارك جانبية كالجمال وصفين والنهروان وغيرها، دفع بعدها حياته ثمناً لها.

نسأل الله أن يرحم خلفاءنا الصالحين ويغفر لهم، ويسكننا وإياهم فسيح جناته وأن يوفقنا فيما أردناه وسعينا إليه، والله من وراء القصد.

المؤلف

د. عبد الحكيم الكعبي

الفصل الأول

خلافة أبي بكر الصديق

المبحث الأول: ظهور منصب الخلافة وتولية أبي بكر
الصديق

المبحث الثاني: حركات الردة

المبحث الثالث: انطلاق حركة الفتوح الإسلامية

المبحث الأول

ظهور منصب الخلافة وتولية أبي بكر الصديق رضي الله عنه

نظام الخلافة:

مقدمة:

عرف العرب نظام الحكم الملكي في اليمن وفي مملكة كندة وفي ممالك شمال الحجاز التي قامت على تخوم العراق والشام، ولكن النظام القبلي في إقليم وسط الحجاز كان أحد الأنظمة الاجتماعية الذي لازم حياة البداوة، وكان زعيم هذا النظام "شيخ القبيلة" الذي يختار ضمن شروط منها: عراقة القبيلة مجلس استشاري من عقلاء القبيلة، وليست "دار الندوة" في مكة المكرمة إلا واحدة من تلك المجالس.

وبعد ظهور الإسلام أسس رسول الله ﷺ بعد الهجرة مباشرة حكومة دينية في المدينة (يثرب) اعتمدت على عقيدة الرعية، وقامت على أساس إحلال الوحدة الدينية بدل العصبية القبلية، وأخذت صورة الجهاز الحكومي بالظهور، فالسلطة التنفيذية بدت في قيادته ﷺ للغزوات وبعثه للسرايا، وتوزيع الغنائم، وتولية الأمراء، كما كان ﷺ يستقبل في مسجد المدينة المنورة الوفود والمبعوثين،

ويُقبل عليه الناس يسألونه عن قضاياهم، وكان إلى جانبه أشبه بمجلس من الصحابة المقربين الذين كان يستشيرهم في مختلف الأمور الدنيوية، وفي المسجد أيضاً ظهرت نواة السلطة القضائية، فكان ﷺ يقضي بين المتخاصمين وكان حكمه ملزماً، أما السلطة التشريعية فقد تمثلت في نصوص آيات كتاب الله، وأحاديث الرسول وقراراته.

لقد كان رسول الله ﷺ في المدينة المنورة يمثل السلطتين المدنية والروحية معاً، وبعد فتح مكة واتساع رقعة الدولة بدأت تتضح معالم الإدارة الجديدة لجزيرة العرب، التي خضعت -لأول مرة- إلى رئاسة مركزية واحدة، لذا فكان يساعده في إدارة الدولة عدد من الكتاب والمستشارين من الصحابة، كما أرسل الأمراء والعمال إلى المناطق التي دخلت تحت سيادة الدولة الإسلامية، ولم يؤثر عن رسول الله ﷺ نص صريح في مسألة الحكم من بعده، وكأنما أراد الله بذلك أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من يصلح خليفة لهم.

ظهور منصب الخليفة^(١):

وجد المسلمون أنفسهم في سقيفة بني ساعدة بمدينة الرسول يبايعون أبا بكر بالخلافة، بعد وفاة الرسول ﷺ على النحو الذي كان مألوفاً لدى العرب في الجاهلية عند اختيار شيوخهم، وتم انتخاب خليفة النبي ﷺ على أساس السبق إلى

الإسلام، وعلى أساس الانتماء إلى قبيلة قريش، فما هي المعاني اللغوية والأسس الفقهية لهذا المنصب؟

الخلافة في معناها اللغوي النيابة عن صاحب الأمر إذا وكله عند غيابه، أو الحلول بدلاً عنه بالشورى والاتفاق، حتى ليقال فلان خلف فلاناً، أي حل محله، وإذا كان خلف فلان، فإنه يكون بعده في المكان، وتصبح الخلافة في مواضع الغياب والموت أو العجز المفاجئ، وباعتبار الارتباط الديني بالدنيوي فإن معنى الخلافة اتخذ طابعاً شريعياً قوامه الوقوف على سياسة الدنيا بما يتوافق ومصالح الآخرة، والخلافة مصدر خَلَفَ، يقال: خَلَفَهُ في قومه يخلفه خلافة فهو خليفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾^(٢)، ثم أطلقت في العرف العام على الزعامة العظمى وهي الولاية العامة على كافة الأمة.

وقد اختلف في لفظ الخليفة، فقليل: هو فَعِيلٌ بمعنى مفعول، كجريح بمعنى مجروح، ويكون المعنى أنه يخلفه من بعده، وعليه حُمِلَ قوله تعالى في حق آدم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣)، على قول من قال: إن آدم أول من عمّر الأرض وخلفه فيها بنوه بعده، وقيل هو فعيل بمعنى فاعل، كعليم بمعنى عالم، وقدير بمعنى قادر، ويكون المعنى فيه أنه يخلف من قبله وعليه حَمَلَ الآية السابقة من قال: إنه كان قبل آدم في الأرض مخلوقات منها الملائكة مثلاً، وأنه خلفهم فيها، وعليه خاطب أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله.

ويعمد الماوردي إلى تعريف الخلافة "بأنها النيابة عن صاحب الشرع (النبي ﷺ) في حفظ الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم"^(٤). بمعنى أن الخليفة لا يعدو أن يكون رئيساً دينياً وسياسياً نيابة عن رسول الله، يجمع بين سلطتين: دينية، باعتباره إماماً للمسلمين يؤمهم للصلاة ويسهر على تطبيق العدالة والإنصاف ويحمي الدين ويذب عنه من خطر الخارجين عليه، ودينية لأنه ينظر في مصالح المسلمين الدنيوية، أما ابن خلدون فيشير إلى أن الخلافة "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتباره بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"^(٥). وفي هذا يميز ابن خلدون بين أنواع ثلاثة للحكم هي: الملك الطبيعي، والملك السياسي، والملك الشرعي الذي يوازن ما بين الديني والدنيوي ليطلق عليه تسمية الخلافة.

والخلافة نظام حكم عربي إسلامي مبتكر حتمته الظروف في أعقاب وفاة الرسول ﷺ سنة ٦٣٢م / ١١هـ، واستحدث منصب "الخليفة" في سقيفة بني ساعدة عندما تم اختيار أبي بكر الصديق ﷺ، وعندما وصلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب ﷺ نادى المسلمون عليه بلقب فيه الكثير من الكلمة "خليفة خليفة رسول الله ﷺ" فما كان منه إلا أن أشار عليهم "أنتم المؤمنون وأنا أميركم" ليظهر لقب "أمير المؤمنين"، ونتيجة لارتباط هذا المنصب بالجانب القدسي الذي يمثله الرسول ﷺ

فإن وجوب الطاعة على جمهور المسلمين يعد أمراً لا يمكن المساس به أو الخروج عليه، بل إن مرداف الإمامة يرتبط بالخلافة انطلاقاً من التوكيد الديني الدال على إمامة الصلاة، وقد ظهرت بعض التسميات المفاداة بخليفة الله، إلا أن الخلفية أبا بكر الصديق رفض اللقب وأكد على أنه خليفة الرسول منطلقاً من

فكرة أن الاستخلاف يكون للغائب وليس للحاضر، ويقوم معنى كلمة "الإمام" على إمكانية القيادة والإرشاد والهداية، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُ كُلَّ أُمَّةٍ بِرَاسِمِهَا﴾^(١).

وهكذا نرى أن الخلافة والإمامة وإمارة المؤمنين هي ثلاث كلمات معناها واحد تقريباً، وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا، وعلى هذا الأساس أجمع معظم المسلمين على وجوب الخلافة ولم يقل بجوازها سوى فئة قليلة، ولا يعني ذلك عدم أهميتها عندهم، بل أرادوا من هذا تقدير أو تحديد مكانتها في المرتبة أو الأهمية^(٢).

أما الشروط التي يجب توافرها في الخليفة فهي كما أوردها الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية سبعة، وهي: العدالة: العلم المؤدي إلى الاجتهاد، سلامة الحواس، سلامة الأعضاء، سلامة الرأي المؤدي إلى سلامة الرعية وتبدير المصالح وهو ما يعرف بالكفاية، الشجاعة والنجدة لحماية البلاد ومجاهدة العدو، وأخيراً النسب القرشي، وهذا الشرط الأخير اختلف فيه إذ ينسب للرسول حديث في هذا الصدد يقول فيه "الأئمة من قریش".

اختيار خليفة لرسول الله ﷺ:

لم يكن اختيار أبي بكر خليفة لرسول الله ﷺ سهلاً، فقد استعرت الأهواء حول من يخلف الرسول في رئاسة الجماعة الإسلامية ونشب نزاع بين المهاجرين والأنصار كاد يفتت وحدة المسلمين ويصدع إحدى المقومات الرئيسة التي قامت عليها الدولة العربية الإسلامية، وهي ارتباط المسلمين برابطة الإيمان والمواخاة، فقد انقسم المسلمون عند وفاة الرسول إلى ثلاثة تكتلات أو فرق لكل منها مرشحها: الفرقة الأولى من الأنصار الذين أيدوا اختيار سعد بن عبادَةَ الخزرجي، والفرقة الثانية من المهاجرين وقد أجمعوا في نهاية الأمر على اختيار أبي بكر، أما الفرقة الثالثة فكانت تتألف من الهاشمية وفئة من الأمويين بالإضافة إلى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وكان تميل إلى اختيار علي بن أبي طالب خليفة لرسول الله ﷺ^(٨).

بعد جدل ونقاش بين المهاجرين والأنصار كاد أن يؤدي إلى أزمة خطيرة تمت مبايعة أبي بكر الصديق من قبل أغلب الحاضرين من المهاجرين والأنصار، وفي اليوم التالي لهذه البيعة الخاصة ببيع أبو بكر بالخلافة البيعة العامة في المسجد، فخطب في الناس قائلاً: "أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا

يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطيع الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم^(١).

كان أبو بكر من أوائل الذين آمنوا بالدعوة الإسلامية، وكان يمتلك ثروة كبيرة ضحى بها في سبيل صحبة الرسول ونشر الإسلام، هذا إلى جانب أنه كان على الرغم من سنه يتصف بالبساطة والنزاهة والتواضع، فضلاً عن قدرته القيادية، فقد عرف كيف يستخدم سلطاته كخليفة للنبي، وبدأت سياسته تتضح منذ بداية خلافته، وتتلخص في السير على سنة الرسول ومنهجه في قيادة الدولة العربية الإسلامية، فقد كان النبي ﷺ قبل وفاته قد بدأ يعد العدة في إرسال حملة إلى شرق الأردن في بلاد الشام ربما للأخذ بثأر شهداء المسلمين في معركة مؤتة - التي تحدثنا عنها في كتابنا عصر النبوة - فأتى أبو بكر الاستعدادات اللازمة وأرسل الحملة على الرغم من الظروف الصعبة التي كانت تمر بها المدينة في ذلك الوقت، فقد كانت الانقسامات قد بدأت تعيد سيرتها الأولى في جزيرة العرب إذ قامت حركة الردة على الإسلام بين القبائل العربية كما ظهر عدد من المنتسبين الكاذبين الذين قالوا أنهم يعيدون سيرة الرسول، وعلى الرغم من كل ما قيل عن أن هذه الحركات كانت خروجاً على الإسلام إلا أنه يمكن أن يقال أن القبائل تلك لم تخرج عن تعاليم الإسلام أو أنها ارتدت إلى الوثنية، ولكنها كانت تريد أن تتحرر من دفع ضريبة الزكاة، وهي الرابطة

الوحيدة التي كانت تربط الأفراد والقبائل البعيدة بالدولة، وقد وقف أبو بكر في هذا الأمر موقفاً حازماً حتى أنه قال: "لو منعوني خطام بعير لقاتلتهم عليه" في الوقت الذي كان فيه بعض الصحابة وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه يميلون إلى شيء من التساهل معهم.

المبحث الثاني

حركات الردة

مُنِيَ الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ بفتنة عظيمة، كادت تفتك بالمنجزات الكبيرة التي حققها رسول الله للأمة، لولا دور أبي بكر الصديق في زعامة المسلمين وتمكنه من إخماد فتنة الردة ودحر المرتدين بكل حزم وصلابة، فلم يكذب يفرغ المسلمون في المدينة من مبايعة أبي بكر بالخلافة حتى مُنيت الأمة الإسلامية باضطرابات جسيمة، وذلك أن بعض القبائل العربية بعد تولية أبي بكر كَبُرَ عليها أن تكون خاضعة لسيادة قريش لاعتقادهم أنها سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين، وتطلعوا إلى استرداد ما كانوا يتمتعون به من استقلال ذاتي. من جانب آخر فإن الإسلام كعقيدة لم يكن قد تعمق في قلوب جميع العرب، فمنهم من دخله مع الداخلين دون دراسة ودون إيمان، ومنهم من رأى الحروب ولم يدرك أنها دفاعية، فدخل الإسلام تجنباً لخوض الحروب ضد المسلمين، ومنهم من دخل الإسلام طمعاً في مغنم أو جاه، فارتد كثير من هؤلاء عن الإسلام، ولكن القبائل لم ترتد إلى ديانتها القديمة، كما أن العرب لم يفكروا في العودة إلى الوثنية، وليس من شك في أن هذه القبائل لم تكن على بينة من أمر الدين الجديد، فلم تثبت في نفوسهم تعاليم الإسلام، كما تثبت في نفوس المتصلين برسول الله وأصحابه من أهل المدينة ومكة والطائف، وضعاف الإيمان

هؤلاء كانوا يظهرون عدم ولائهم للإسلام كلما سنحت لهم الفرصة كما فعل المنافقون في مواقف كثيرة سابقة، وكالأعراب الذين وصف القرآن الكريم إيمانهم في الآية: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(١٠)، ولقد كانت وفاة الرسول ﷺ الفرصة المناسبة لهؤلاء ليظهروا ما أخفوا وليعلنوا ارتدادهم.

ربما كانت كثير من القبائل تعتقد أن الإسلام لم يأت ليقيم دولة، وإنما جاء كدين، فلما قام أبو بكر بأعباء الخلافة بعد وفاة النبي أيقنوا أنهم أصبحوا خاضعين لسلطة مركزية يؤدون إليها الزكاة، وهذا النظام لم يألفه العرب قبل الإسلام، لذلك انقسم المرتدون عن الإسلام إلى قسمين: قسم خرج عن الإسلام، وهم بنو طيء وغطفان وأسد [جماعة المتنبئ طلحة بن خويلد الأسدي] وحنيفة [جماعة مسيلمة الكذاب] وأهل اليمن الذين تزعمهم الأسود العنسي، أما القسم الثاني من المرتدين فقد ظلوا على إسلامهم ولكنهم لم يدفعوا الزكاة، وقالوا: "نقيم الصلاة ولا نؤدي الزكاة"^(١١).

وخلاصة القول أن المجال انفسح أمام المنافقين وأعداء قریش من العرب لإظهار ما يخفون من نوايا ونزعات انفصالية، وظهرت - بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة - مظاهر الصدام العنيف بين النظامين القبلي والإسلامي^(١٢) من خلال تلك الحركة الواسعة التي عرفت بـ "الردة" والتي كانت في واقع الأمر لا تعدو أن تكون انتفاضاً على نظام الدولة الإسلامية الذي وضع الرسول الكريم أسسه في المدينة، فإن كثيراً من قبائل العرب لم تعترف بأبي بكر خليفة للنبي ﷺ اعتقاداً

منهم بأن الإسلام قضى عليه ب وفاة الرسول، وأن نظام الخلافة يدعم نفوذ قريش، ويجعل سلطان المدينة وراثياً، وقد ظهرت بوادر حركات الارتداد -لاعتبارات قبلية- في أواخر أيام رسول الله ﷺ، ثم استعرت بعد وفاته.

من أشهر حركات الارتداد بعد وفاة الرسول ﷺ:

- حركة الأسود العنسي:

هو عيهلة بن كعب بن عوف العنسي المذحجي، الملقب بذي الخمار، كان بطاشاً جباراً عاتياً، أسلم لما قدمت وفود العرب إلى النبي ﷺ، ثم إنه ارتد في أيام النبي فكان أول مرتد في الإسلام، بعد ذلك ادعى الأسود العنسي النبوة في اليمن وتابعه قومه، فاشتد بهم ساعده وغزا بلاد نجران فدانت له كما دانت له مذحج، واستهوى بضالته نفراً من عوام العرب فتملك أكثر جنوبي بلاد العرب، وبلغت أخباره إلى الرسول ﷺ فكتب إلى من بقي على الإسلام من أهل اليمن يأمرهم بمحاربته.

وكان رسول الله ﷺ بعد موت باذان الفارسي الذي كان حاكماً على اليمن قبل الإسلام واستعمله الرسول عليه بعد إسلامه قد قسم اليمن في سنة ١٥هـ إلى مقاطعات جعل على كل مقاطعة أميراً، فاستعمل عمرو بن حزم على نجران وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد، وعامر بن شهر على همدان، وعلى صنعان ابن باذان، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبي

هالة، وعلى مارب أبا موسى الأشعري، وعلى الجند يعلي بن أبي أمية وكان معاذ معلماً يتنقل في عمالة كل عامل باليمن وحضرموت، ولما أظهر الأسود دعوته وأجابته بنو مذحج، وثب على نجران وأخرج عايلها خالد بن سعيد وعمرو بن حزم فلحقا بالمدينة ثم سار الأسود في سبعمائه من جماعته إلى صنعاء فقتل صاحبها شهر بن باذان وتزوج بامرأته وألقى الرعب في قلوب ولاة المسلمين على اليمن حتى كتبوا بذلك إلى الرسول فكتب إليهم يأمرهم بالقيام على دينهم ومناهضة الأسود فأتمروا به حتى قتلوه غيلة في الليلة التي مات الرسول ﷺ في صبيحتها، وبعد مقتل الأسود انقسم الناس في اليمن إلى قسمين قسم ظل على رده وقسم رجع إلى الإسلام، وتقاتل الفريقان لكن الغلبة كانت للمسلمين فرجع عمال رسول الله ﷺ إلى بلادهم، وأقام معاذ بن جبل في صنعاء يصلي بالناس، وبعثوا وفداً إلى رسول الله ﷺ ينبئه بما جرى فلم يصل الوفد إلى المدينة حتى علم بوفاة الرسول ﷺ، ولما بلغت أهل اليمن وفاة الرسول قوي عزم من أبطن الكفر وأعلنوا خروجهم عن الإسلام بزعامة أحد قادة الأسود وهو (قيس بن عبد يغوث)^(١٣).

- حركة طليحة الأسدي:

ممن ادعى النبوة أيضاً طليحة بن خويلد، وهو كاهن طموح ذكي، من بني أسد، تنبأ في حياة الرسول ﷺ وتبعه بعض العرب واليهود، وشايعه قومه من بني أسد بن خزيمة ودعوا إليه أحلافهم من طيء والغوث، واتخذ فلطقة

(سميراء) من بلاد بني أسد مقراً لحركته، وبلغ أمره النبي ﷺ فبعث إليه ضرار بن الأزور الأسدي لمقاتلته والقضاء على فتنته، فسار إليه ولم يكد يصل إلى سميراء حتى بلغه خبر وفاة النبي الكريم فرجع واستطار أمر طليحة وانضم إليه جموع من قبائل غطفان وهوازن وغيرهما، وعظم شأنه وقدمت إلى أبي بكر وفود بني أسد وغطفان وهوازن وطيء للعاشر من متوفى رسول الله ﷺ فعرضوا الصلاة على أن يعفوا من الزكاة، وما كان من أبي بكر إلا أنه أبى إلا ما كان رسول الله يأخذ، وأبو افردهم وأجلهم يوماً وليلة فتطايروا إلى عشائرهم^(١٤).

٢. حركة مسيلمة الحنفي:

من أكثر المتنبئين خطراً مسيلمة بن حبيب (الكذاب) من بني حنيفة باليمامة، وكان مسيلمة فيمن وفد من زعماء بني حنيفة على النبي ﷺ وأسلم في السنة العاشرة للهجرة، ولما عاد إلى اليمامة تتباً وزعم أنه شريك للرسول في النبوة، وكتب إلى النبي كتاباً يقول له فيه بأنه قد أوحى إليه، وأن جبريل نزل عليه يخبره بأن الله قد قاسمه النبوة مع محمد وشاطره الملك والسيادة في جزيرة العرب، فكتب إليه الرسول ﷺ كتاباً نصه: "من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين...". وقد استطاع مسيلمة أن يخدع الرجال بن عُنْفُوَة وهو أحد وجوه بني حنيفة من المسلمين وكان ممن أسلم وتفقه وكان يقرئهم القرآن ويعلمهم أهداف الإسلام ويشد أمر المسلمين، ولكن ما كان من

الرجال إلا أن أعلن أن محمداً أشرك في الرسالة مع مسيلمة، فكان بهذه الشهادة أعظم فتنة على الإسلام من مسيلمة، ولم يلبث الرسول أن توفي فعظم أمر مسيلمة وانضمت إليه جموع كثيرة من بني حنيفة والقبائل المجاورة لها^(١٥).

وهناك، بطبيعة الحال، مرتدون آخرون اكتفوا بترك الإسلام ولم ينتهوا، ومن هؤلاء بني ربيعة بالبحرين وكذلك من الذين ارتدوا عن الإسلام مالك بن نويرة التميمي ووکیع بن مالك اللذان منعا إرسال زكاة قومهما إلى أبي بكر، كما ارتد عن الإسلام أهل عمان وهوازن وسليم وعامر.

أسباب الردة ودوافعها:

تذكر المصادر أن العرب ارتدوا بعد وفاة الرسول، ويفهم عامة الناس من ذلك أن العرب رجعوا عن الإسلام إلى الوثنية فإذا نحن تتبعنا تلك المصادر رأينا أن تلك الردة كانت في الدرجة الأولى ثورة على مركزية السلطة ومركزية النظام الاقتصادي الذي لم يألوه سابقاً، وكانت هناك جملة من العوامل المباشرة وأخرى غير المباشرة وراء ذلك التمرد والخروج على سلطة الدولة.

من الأسباب المباشرة لحركة الارتداد، وفاة النبي ﷺ فقد كان من الطبيعي أن يربط المسلمون بين شخص النبي محمد ﷺ وبين ما حققه للعرب من مكاسب دينية وسياسية واجتماعية، يضاف إلى ذلك قوة شخصية الرسول ﷺ والتي قامت عليه أهم عوامل إعجاب المسلمين به، فلما توفي أحدثت وفاته

اضطراباً عنيفاً لا حدود له في نفوس المسلمين وأحسوا بفراغ هائل وشككوا بقدرة خليفته على ملء ذلك الفراغ.

من جانب آخر كان الجزء الأكبر من قبائل جزيرة العرب يخضع خضوعاً اسمياً فقط لسلطة المدينة، مظهره إرساله الوفود إلى المدينة، وإيتاء الزكاة التي كانت تؤخذ من غلات البلاد، لأن الجزيرة لم تكن تعرف العملة إلا في أيدي تجار قریش المتعاملين مع بيزنطة وفارس، وأيضاً إعطاء الخمس من المغنم التي يحصلون عليها في غاراتهم، ومعاداة المشركين، وقبولهم العمال أو القراء لجباية الصدقات وتعليم الدين، يضاف إلى ذلك أن الجزء الأكبر من العرب في الجزيرة فيما عدا عرب المدينة ومكة وبعض القبائل المجاورة لا يعرف من الإسلام غير اسم محمد والقرآن، ولم يكن في كل الحجاز من متحمس لدين الإسلام غير أهل المدينة من الأنصار، وأهل مكة من المهاجرين، ففي الواقع لم يحفل العرب بالإسلام كما لم يحفلوا من قبل بأي من الأديان السماوية الأخرى، ولم يحاولوا فهم قوانينه، أو القيام بمظاهره من صلاة وصيام ووضوء، حيث نعرف قسوة الحياة في البادية وقلة الماء، وإهمال العرب للإسلام ظهر في حياة النبي نفسه، فهم يطالبونه بإسقاط الصلاة أو الزكاة^(١٦) وكلاهما من تعاليم الإسلام وأركانه، ولقد احتج المرتدون بأن خضوعهم الأول كان لرسول الله طوعاً أو كرهاً، أما وقد توفي رسول الله فليس لأحد غيره أن يقتضيه تلك الطاعة وإن ما كان يربطهم بالدولة الإسلامية قد انتهى بوفاته، وقد لخص أحدهم هذا الموقف في بيتين من الشعر:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثنا بكرة إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر^(١٧)

وكان للعصبيات القبلية دور كبير في ظهور حركات الردة، إذ لم يكن من السهل على قبائل العرب التي دخلت الإسلام وأعلنت خضوعها لدولة الرسول ﷺ في المدينة منذ العام التاسع للهجرة (عام الوفود) أن تتسوى في أمد قصير لا يزيد على ثلاث سنوات عصبياتها القبيلة التي بذل الرسول الكريم جهوداً كبيرة على إزابتها أو تخفيف حدتها في إطار الجماعة الإسلامية ولم تكن هذه القبائل لترضى بتفوق قريش وزعامتها عليها، واستمرار هذه الرئاسة بعد وفاة الرسول كنوع من الوراثة التي لم يألّفها العرب قط.

ومن الشواهد التي أوردتها المصادر وتؤكد بأن الردة كانت حركة سياسية تقوم على العصبيات القبلية ما رواه الطبري، إذا ذكر أن عيينة بن حصن قام في غطفان وتحالف مع بني أسد واتباع طليحة من ثبوت كذبه، مبرراً موقفه بقوله " والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش، وقد مات محمد وبقي طليحة"^(١٨).

كما ذكر الطبري أيضاً بأن طلحة التمرى جاء إلى الإمامة وأراد الاجتماع بمسيلمة واختبار نبوته، فلما جاءه قال له "أنت مسيلمة؟" قال "نعم قال: من يأتيك؟ قال "رحمن" قال أفي نور أم في ظلمة؟ فقال: "في ظلمة" فقال "أشهد أنك كذاب. وإن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر"^{١٩}

قمع حركة الردة:

أخذ أبو بكر على عاتقه أن يحارب أهل الردة، ولم يكن على الاستعداد للتساهل معهم في أي أمر من أمور الدين أو الدولة، فقد كان في رأيه أنه لا يجوز أن يهادنوا أو يصلحوا، وإلا أنقض بناء الإسلام ركناً ركناً. وقد بدأ جهاده معهم بالطريقة السلمية بأن أرسل رسله بكتب مفتوحة إلى المرتدين، يدعوهم فيها من جديد إلى الرجوع إلى الإسلام وقواعده والبيعة له، وإلا فالحرب ولكي يظهر أبو بكر ﷺ تصميمه على ذلك خرج إلى " ذي القصة " (موضع قرب المدينة) لسيوجه منها الجيوش إلى أهل الردة وفي هذه الأثناء وصل أسامة بن زيد من حملته ظافراً فاستخلفه أبو بكر على المدينة حتى يستريح هو وجنده زحف أبو بكر بنفسه في جمع من المسلمين فنزل في "الابرق" (٢٠) فقاتل من به من المرتدين، وتغلب عليهم وعلى بلاد ذبيان وانسحبت ذبيان وبني عيس إلى طليحة الأسدي في "عين بزاجة" وهي عين ماء لبني أسد تقع بالقرب من مكة (٢١) أما أبو بكر فقد عاد إلى المدينة، وكان أسامة قد استراح هو وجنده وتأهب لخوض المعركة ضد المرتدين، فوزع أبو بكر البعوث وعقد الألوية لأحد عشر قائداً بعد أن منحهم عهود قتال المرتدين وهم.

١. خالد بن الوليد: وسيره لمحاربة طليحة الأسدي في عين بزاجة، ثم

مالك بن نويرة بالبطاح.

٢. عكرمة بن أبي جهل: أمره بالسير نحو مسيلمة في اليمامة ثم التوجه إلى "دبا" بعد الفراغ من اليمامة.
٣. المهاجر بن أبي أمية: أمره بمحاربة بقايا جنود الأسود العنسي في اليمن وإذا انتهى من مهمته يمضي إلى كنده بحضرموت ليجتمع مع زياد بن لبيد ليكونا يداً واحدة على المرتدين.
٤. خالد بن سعيد بن العاص: سيره إلى مشارف الشام.
٥. عمرو بن العاص: أرسله إلى قضاة والحارث في شمال الحجاز.
٦. حذيفة بن محصن الغلفاني: وعهد إليه بمقاتلة أهل دبا، ثم الانضمام إلى عرفة بن هرتمة.
٧. عرفة بن هرتمة: وعهد إليه بمقاتلة أهل مهرة.
٨. شرحبيل بن حسنة: أمره بالسير في أثر عكرمة بن أبي جهل لمقاتلة مسيلمة، ثم أمره أن يمضي بعد اليمامة إلى قضاة مدداً لعمرو بن العاص.
٩. طريفة بن حجاز: عهد إليه بمحاربة بني سليم ومن معهم من هوازن.
١٠. سويد بن مقرن: وقد وجهه إلى تهامة اليمن.
١١. العلاء بن الحضرمي: وكانت وجهته البحرين لمحاربة من ارتد بها من ربيعة (٢٢).

خرج خالد بن الوليد من ذي القصة نحو عين بزاخة، ليقضي على بقايا غطفان وعيس وذبيان ومن انضم إليهم من أسد وفزارة، ففرق جمعهم، وهرب طليحة عند قبيلة كلب في الشام^(٢٣) وعرف هذا اليوم بـ "يوم بزاخة" وقد أسر طليحة فيما بعد، وأرسل إلى المدينة وقبلت توبته، وعاد إلى إسلامه، وذكر البلاذري أن طليحة أبلى في فتوح العراق ونهاوند بلاء حسناً^(٢٤).

بعد ذلك سار خالد إلى بني عامر المجاورة، وهي تشمل البلاد الممتدة من شرق المدينة حتى الخليج العربي، وكانت تسكنها قبائل بنو تميم وعشائرها من بني حنظلة، وكان معظم هؤلاء من البدو وكان النبي ﷺ - قد بعث إليهم يدعوهم إلى الإسلام، وجعل زعيمهم مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة ولكن بعد موت النبي نجد أن مالك بن نويرة مع تمسكه بالإسلام، كان قد حجز الصدقة فقط، حتى يصح عنده لمن الأمر، ومن استخلفه النبي ومن ناحية أخرى كانت هناك امرأة ذات شخصية غير واضحة أسمها "سجاح" نشأت في قبيلة تغلب النصرانية الموجودة في شمال العراق في منطقة الجزيرة الفراتية، وقد أقبلت عند قومها من بني تميم، الذين التفوا حولها ومع أنها لم تدع النبوة إلا أنها تكهنت على حسب ما كان معروفاً قبل الإسلام ولا يعرف قصد سجاح منذ مجيئها إلى بلاد بني عامر وجمع القبائل حولها فلعلها كانت تريد أن تدافع عن قومها بالتعاون مع مالك بن نويرة ضد سلطان دولة المدينة وقد انقطعت أخبار سجاح فجأة، فلم يسمع عنها شيئاً، فلعلها عادت إلى بني تغلب في الجزيرة أو إنها أسلمت ثم انتقلت إلى البصرة وعاشت حتى زمن معاوية^(٢٥). ومهما يكن فإن

خالدًا سار نحو بلاد بني عامر ليقا تل المرتدين فهزم العشائر التي قاومتة وبعث الرعب فيهم، بعد أن طلب منهم أن يسلموا إليه المسؤولين عن قتل المسلمين منهم فأتوه بهم، فاستثنى منهم قرّة بن هبيرة القشيري ونظراً معه أوثقهم وسيرهم إلى أبي بكر، ومثّل بالذين عدوا على المسلمين فاحرقهم بالنيران وأثقلهم بالحجارة ثم رمى بهم من الجبال ثم بلغ خالد أن فلول غطفان وطيء وسليم وهوازن قد اجتمعوا فزحف إليهم واشتبك معهم وهزمهم^(٢٦).

ثم سار خالد نحو البطاح وبها مالك بن نويرة فلما قدم البطاح لم يجد بها أحداً، إذ كان مالك قد فرق بني يربوع اتباعه، فبث خالد السرايا، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من بني ثعلبة بن يربوع، فأمر بحبسهم في ليلة باردة، ثم أمر رجاله أن يذفئوا الأسرى، والإدفاء في لغة كنانة القتل، فظن جنده، أنه أراد قتل الأسرى فقتلوه، فلما علم خالد بما حدث أسف لمقتل مالك وتزوج امرأته الجميلة^(٢٧). وكان قتل مالك من العوامل التي أثارت عمر بن الخطاب ؓ على خالد بن الوليد، فاتهمه أنه قتل رجلاً مسلماً وتزوج امرأته وعلى الرغم من أن أبا بكر صفح عن خالد فإن عمر بن الخطاب لم ينس له ما فعله في هذا الموقف^(٢٨).

ثم سار خالد إلى أرض اليمامة، وهي بلاد واسعة تمتد حتى الخليج العربي، سكنها قبائل عديدة من ربيعة، أقواها بنو حنيفة، المعروفة بكثرة عددها، وشدة بأسها وكثرة وقائعها. وقد ظهر فيها - كما أشرنا سابقاً - رجل أدعى النبوة في حياة النبي ﷺ يسميه المسلمون "مسيلمة" ربما تصغيراً أو استهزاء.

وكان مسيلمة ذا شخصية قوية يسيطر على أتباعه، مع أنه كان قصيراً شديداً الصفرة أفتس الأنف يلبس ملابس البدو المهلهلة وقد جمع جيشاً كبيراً عدده أربعون ألفاً وتمكن به، قبل وصول خالد بن الوليد من هزيمة جيش صغير للمسلمين مرسل من المدينة بقيادة "عكرمة بن أبي جهل" أحد قواد الردة البازرين وقد حفز هذا النصر مسيلمة إلى التقدم نحو الشمال ليقابل الجيش الذي يقوده خالد ابن الوليد فتقابل جيش مسيلمة مع جيش خالد بمكان من الصحراء في طريق من اليمامة يسمى "عقرباء" واشتبكا في معركة فاصلة لم تشهد لها الجزيرة مثيلاً من قبل، واشتد القتال بين الفريقين، وتبادلا النصر والهزيمة، وتعرض المسلمون للهزيمة أكثر من مرة، وكثر القتلى من الطرفين، وانتهت المعركة بهزيمة بني حنيفة، وطاردهم المسلمون حتى ألجأوهم إلى الحديقة، فسميت يومئذ حديقة الموت لكثرة من قتل بها، وفيها قتل مسيلمة، أما بقية أنصاره الذين هربوا والتجأوا إلى الحصون فإنهم أنقذوا حياتهم بالتسليم وبذلك كسرت شوكة بني حنيفة إلى الأبد بعد أن دفع المسلمون ثمناً غالياً وبلغ عدد القتلى من بني حنيفة بعقرباء سبعة آلاف وبحديقة الموت سبعة آلاف أخرى وفي طلب الفلول سبعة آلاف ثلاثة تقريباً في حين لم يقتل من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة ٦٠٠ أو أكثر وذكر بعضهم أن عدد من استشهد من المسلمين ١٧٠٠ وقيل ٧٠٠ وقيل ١٢٠٠ (٢٩).

بعد ذلك اتجه خالد إلى البحرين على الخليج العربي ليخلص عامل المدينة العلاء بن عماد الحضرمي، الذي حاصرته القبائل المرتدة في مدينة

"هجر" قسبة البحرين وإحدى أسواق العرب المشهورة وكان في البحرين عناصر من الفرس واليهود والنصارى يسكنون الأقسام الساحلية أما غالبية السكان فمعظمهم من بدو العرب من قبائل عبد القيس من ربيعة وبكر وتميم داخل البلاد وقد دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام وأرسل إليهم عماله ومعهم العلاء لجمع الصدقات ولنشر الدين ويبدو من الكتب المتبادلة بين النبي وزعماء العرب من سكان البحرين انهم قبلوا الإسلام كما أخذ الصدقة من مجوس هجر، بل وأرسلوا وفدًا منهم إلى المدينة (٣٠) ولكن ارتدت العرب بعد موت النبي ﷺ، وإن بقي بعضهم مسلماً وقد تزعم طائفة من المرتدين المنذرين النعمان (من سلالة ملوك الحيرة) أما غالبيتهم فإنهم ارتدوا برئاسة رجل رجل أسمه "الحطم" فسار المسلمون إليهم بقيادة العلاء عامل النبي فهزمه الحطم وألجأه إلى حصن مدينة هجر، إلى أن جاء خالد من اليمامة فقتل "الحطم" ودخل هجر وأنقذ العلاء ثم غادر هجر بعد ذلك إلى العراق بناء على أوامر الخليفة أبي بكر ﷺ لتبدأ بخطوته تلك أولى مراحل حركة الفتح العربي الإسلامي.

ويعد خالد بن الوليد، أهم قواد المسلمين أبطال حروب الردة، وخالد شخصية معروفة ببطشها والتي ظهرت أول ما ظهرت في غزوة أحد التي انكسر فيها المسلمون ثم دخل الإسلام وعرف بشجاعته ومكيدته في فتح مكة، موقعة مؤته، التي انقطع فيها في يده تسعة أسياف، حتى لقبه النبي ﷺ "سيف الله" ويوصف خالد بأنه كان رجلاً مهيباً ضخماً، بعيد المناكب واسع الهيكل، يعد من القواد الذين لم يعرف لهم التاريخ مثيلاً من قبل وقد قال أبو بكر لخالد قبل أن

يغادر ذي القصة لمحاربة المرتدين "أحرص على الموت توهب لك الحياة" فكان دوره في تلك الحرب أهم الأدوار جميعاً، إذ قضى على حركة مسيلمة أكثر المرتدين خطراً على دولة المدينة، وغرس الهلع والذعر في قلوب المرتدين في أكثر مناطق الجزيرة العربية إلى حد أن الكثيرين منهم استسلموا للمسلمين دون قتال، ومنهم بنو عامر بن صعصعة^(٣١).

بقي العلاء بن الحضرمي في البحرين بعد مغادرة خالد وهاجم المنذر الذي هرب بعد هزيمة الحطم إلى الحصن المسمى "جواناء" فهزم العلاء المنذر وعرف ذلك اليوم بـ "يوم جواناء".

أما عمان، وهي تقع شرقي البحرين، فإن أبا بكر وجه إليها عكرمة بن أبي جهل بعد هزيمته على يد مسيلمة وكانت عمان بلاد كثيرة تسكنها على الخصوص قبيلة الأزد، والتي هاجرت إليها من اليمن وكان النبي قد بعث بكتبه إلى شيوخها من أسرة "الجلندي" ملوك عمان قبل الإسلام - كما أرسلوا وفداً منهم إلى المدينة، وأرسل إليهم أحد رجاله ليأخذ صدقة أعيانهم ولكن قبيلة الأزد ارتدت عن الإسلام بعد موت النبي والتفت حول زعيمها المسمى "ذي التاج" فقتل عكرمة هذا الزعيم، وعدد كبيراً من المرتدين ودخل "دبا" قصبة عمان.

انتقل عكرمة بعد ذلك إلى مناطق الشحر وحضرموت واليمن الواقعة على بحر العرب، ليقضي على من ارتدوا هناك حتى ظفر بهم في منطقة الشحر ثم توجه بعد ذلك إلى حضرموت وكان على رأس المرتدين فيها من قبائل كنده شخص اسمه الأشعث بن قيس، كان قد جاء مع وفد بلاده إلى النبي. وقد ساعد

عكرمة أحد عمال حضرموت من قبل النبي، وهو زياد بن لبيد البياضي، في القضاء على المرتدين الذين التجأوا إلى حصن لهم، فحاصروهم عكرمة وزياد بن لبيد حتى تمكن المسلمون من اقتحام الحصن، وأسر الأشعث بن قيس، الذي أرسل إلى أبي بكر وقبلت توبته وتزوج فيما بعد بأخت الخليفة "أم فروة" (٣٢).

أما اليمن التي كانت خاضعة أسمياً فقط لنفوذ الفرس منذ أن طرد منها الأحباش قبل الإسلام، فقد تركها الفرس وشأنها بسبب انشغالهم بحروبهم مع بيزنطة وبمشاكلهم الداخلية، وكان يسكنها من القبائل العربية طيء وخولان وكنده ومراد وحمير ومنحج وهمدان، وهي القبائل التي حلت مكان الشعوب المعينية والسبئية والحميرية، كما كانت تسكنها طائفة من الأبناء، ومعظمهم من سلالة الجيش الفارسي الذي دخل اليمن بناء على طلب سيف بن ذي يزن لمساعدة أهل اليمن في طرد الأحباش.

وبظهور الإسلام أرسلت القبائل العربية وفودها العديدة إلى النبي، وقبلت الإسلام، ورضيت بدفع الزكاة، كمعظم قبائل شبه جزيرة العرب كذلك أسلمت في ذلك الوقت طائفة من "الأبناء" وعلى رأسهم "بازان" الذي استعمله النبي على صنعاء بعد إسلامه واستمر على ذلك إلى أن مات - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - وخلفه ابنه "رشر" في هذا المنصب. وعندما ظهر الأسود العنسي وادعى النبوة في حياة النبي استطاع أن يسيطر على أجزاء كثيرة من اليمن، ودخل صنعاء وقتل شهر بن باذان وأكره زوجته "أزاد" على الزواج منه وقد استطاع النبي ﷺ في حياته أن يقضي على ردة الأسود العنسي بتأليب القبائل

التي لم تكن ارتدت من حمير وهمدان أو باستمالة أهل بخران النصارى، الذين كانوا حلفاء النبي، وأيضاً طبقة الأبناء المسلمين وقد نجح هؤلاء في تدبير خطة لاغتيال الأسود العنسي في صنعاء ساعدتهم على تنفيذها امرأة شهر "أزاد" التي كانت تحقد على الأسود قاتل زوجها، ونجحت الخطة، وقتل العنسي قبل وفاة النبي بأيام، وبذلك عادت اليمن إلى طاعة الدولة الإسلامية كما ذكرنا، وبعد وفاة النبي ارتدت بعض القبائل من حمير والتفت حول أحد اتباع الأسود العنسي، وقد تمكن عكرمة من القضاء على هذا التمرد بعد مجيئه من حضرموت (٣٢).

وهكذا انتهت بنجاح منقطع النظير كل هذه الحملات التي وجهت ضد المرتدين في أنحاء الجزيرة، واستطاع أمراء وقادة الجيوش الذين سيرهم أبو بكر لقمع حركة الردة أن يقضوا على المرتدين في أمد قصير، ويسترجعوا للمدينة نفوذها على سائر قبائل العرب في الجزيرة، وتحقق بذلك هدف أبي بكر، ودخل العرب في الإسلام طوعاً وكرهاً، واعترف الصحابة بفضل أبي بكر ودوره في قتال أهل الردة. وقد كانت شجاعة أبي بكر ورباطه جأشه وحكمته العامل الرئيس لإنقاذ الموقف وحماية الدولة العربية الإسلامية الفتية من خطر التمزق والانحيار.

وعلى الرغم من أن حدث الردة كان حقيقة خطراً ماحقاً أحاط بالدولة الفتية، وكاد يعصف بوحدة العرب ومنجزاتهم، إلا أن عملية التصدي لها، والنجاح الباهر في القضاء عليها، أفرزت نتائج إيجابية جداً في صالح الدولة الإسلامية منها.

١. أصبحت شبه الجزيرة العربية، لأول مرة، موحدة سياسياً ضمن دولة مركزية، يرئسها الخليفة وهو أعلى سلطة فيها.
٢. تم تثبيت دعائم الخلافة كنظام انشقاق عليه، تمرد ضد هيبة الدولة، ويجب قمعه دون رحمة.
٣. كشفت حروب الردة عن كفاءات حربية، وقدرات قيادته مثالية فائقة سيكون لها شأن كبير في مستقبل الدولة الإسلامية، وفي حركة الفتوح.
٤. ساهمت حروب الردة في مختلف أنحاء الجزيرة، في اختلاط العرب من مختلف القبائل بعضهم ببعض وأدى إلى استقرار عدد كبير من المسلمين في المناطق التي قاتلوا فيها.
٥. كان القضاء على حركة الردة بتلك الطريقة الحاسمة، قضاء على أية فكرة للارتداد أو التنبؤ مستقبلاً، حيث اختفت الوثنية إلى الأبد وأصبح الإسلام هو الدين الرسمي لعموم شبه جزيرة العرب.

المبحث الثالث

انطلاق حركة الفتوح الإسلامية

دوافعها وأسبابها:

أختلف الباحثون في تعليل حركة الفتوحات الإسلامية التي انطلقت في أعقاب قمع حركة الردة- في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد ذهب هؤلاء الباحثون مذاهب شتى في تفسير وتعليل دوافعها وأسبابها، فبعضهم يرجع حركة الفتوح إلى أسباب اقتصادية بحتة، بينما يرى جمهور آخر منهم أنها تمت بدافع الحماس الديني- أو الجهاد- وقال فريق ثالث أن دوافعها قومية عرقية هدفها إحلال السيطرة العربية على تلك المناطق محل السيطرة الفارسية والرومية وسوف نعرض لمبررات كل فريق من هؤلاء قبل أن نخرج برأي يمكن أن يتفق مع الظروف والشواهد التاريخية آنذاك.

أستند أصحاب نظرية العامل الاقتصادية ^(٣٤) إلى بعض الشواهد التاريخية القديمة وكذلك إلى بعض النصوص في المصادر العربية، فقد عد هؤلاء انسحاق العرب "المسلح" بعد الإسلام امتداداً للهجرات العربية القديمة التي أدت إلى استقرار الأكديين في العراق في الألف الثالث قبل الميلاد والأمويين، في بابل في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد والفينيقيين في سواحل بلاد الشام

بحدود سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد، وغير ذلك من الموجات التي كانت بمثابة هجرات اقتصادية إلى المناطق الغنية الخصبة الواقعة إلى الشمال الشرقي والغربي من الحجاز، نتيجة لتدهور الأحوال الاقتصادية في الجزيرة العربية.

أما الشق الثاني من الحجج التي ساقها أصحاب هذا الرأي فقد استند كما أشرنا إلى بعض النصوص التي وردت في مصادرنا العربية القديمة فيذكرون نص أورده البلاذري وذكر فيه بأن أبا بكر عندما بدأ بتعبئة الجيوش الإسلامية وتسييرها إلى بلاد الشام. " كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب (٣٥) .

كما استندوا على نص آخر ورد عند البلاذري أيضاً، وهو عبارة عن جملة ضمن حوار بين القائد الفارسي رستم والمغيرة بن شعبة رسول سعد بن أبي وقاص إليه، قال رستم للمغيرة قد علمت انه لم يحملكم على ما انتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون (٣٦) وكذلك على نص أورده الطبري، هو خطبة منسوبة لخاله ابن الوليد ألقاها في جنده يرغبهم في مهاجمة بلاد العجم، فقال خالد مخاطباً جنده "ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه من اثقل عما أنتم عليه (٣٧).

أما أصحاب التفسير الديني لحركة الفتوحات فقد استندوا أيضاً إلى جملة من المعطيات والنصوص بعضها آيات من القرآن الكريم، وبعضها الآخر خطب القادة وتوجيهاتهم، وقالوا أن جيوش المسلمين خرجت من جزيرة العرب يحدوها تيار ديني إسلامي عربي جارف فقد كانت أولى وصايا الخليفة الأولى إلى المسلمين يوم بايعوه هي الجهاد في سبيل الله حيث قال لهم يومئذ " لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ويستند أصحاب هذا الرأي أيضاً على آيات قرآنية ^(٣٨) كثيرة تؤكد أن الله بعث النبي ﷺ إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً ومن تلك الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ ^(٣٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٤٠) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ ^(٤١).

وقد اخذ فريق ثالث بترجيح فكرة الدوافع القومية كمحرك أساسي للفتوحات الإسلامية، مستندين بذلك إلى سياسة الرسول ﷺ الرامية إلى نشر الإسلام في مجالات بعيدة، ومساعيه لتوحيد شبه جزيرة العرب في ظل الدولة العربية الإسلامية، ثم رسائله إلى الملوك والأمراء من جيران العرب يدعوهم إلى الإسلام والاعتراف به، فضلاً عن الخطوات العملية في هذا الاتجاه والتي تمثلت في غزوات: مؤته وتبوك وحمله أسامة بن زيد بن حارثة، وعندما لم يتهياً للنبي أن يشهد خروج هذه الحملة إلى غايتها، بسبب وفاته ﷺ قبل انطلاقها، أبى أبو بكر الصديق إلا أن يحقق رغبة رسول الله في إنقاذ هذه الحملة إلى مقصدها ثم

جاءت محاولات أبي بكر المتلاحقة لانتهاج السياسة ذاتها سواء باتجاه الشام أو العراق.

وبعد عرضنا لمجمل هذه الآراء والتصورات عن دوافع حركة الفتوحات يمكننا القول أن القوة العربية التي أوجدها ووجدتها تصميم أبي بكر والتي سرعان ما انتشرت على الأرض، واستطاعت في سرعة البرق الخاطف الإطباق على البيزنطيين والفرس، وهما أكبر دولتين في العالم آنذاك، وتحرير الأراضي العربية من سيطرتهم في أول حركة مسلحة عرفت في التاريخ باسم " حركة الفتوح العربية الإسلامية" لم يكن دافعها الاستيلاء على الأراضي الخصبة في الشام والعراق ومصر كما حاول البعض أن يفسدها وإن كان تحرير هذه الأراضي من الاستعمارين الفارسي والرومي هدفاً من أهدافها، ولم يكن دافعها الجوع، وإن كان تحرير الإنسان العربي من الحاجة المادية غرضاً من أغراضها ولم يكن دافعها التعصب العرقي الذي يريد أن يحل السيطرة العربية على تلك المناطق محل السيطرة الفارسية والرومية، وإن كان إبعاد النفوذ الفارسي والروماني سبباً من أسبابها، لأن الفرس والروم كانا من التفسخ والاهتراء بحيث انهم باتوا يعيقون التقدم التاريخي في عصر الإسلام الأول ويقفون في وجه تلاقي الشعوب الآسيوية حضارياً وثقافياً واقتصادياً بما يفعلون دوماً من حروب متلفة للاقتصاد العالمي، ومعيقة للتواصل الحضاري، ولأنهم كانوا قد وصلوا إلى حالة من الإساءة الدولية بحيث غدت نفقات جيوشهم عبئاً على اقتصاد العالم آنذاك.

وإذ بحثنا في مضمون النصوص التي يعتمد عليها أصحاب الرأي القائل بأن دوافع حركة الفتح العربي كانت اقتصادية بالدرجة الأساس وجدنا أنها في أغلب الأحوال كانت عبارات حماسية وردت في سياق خطب القادة، وهذه الخطب فيها الكثير من المعاني والمضامين الأخرى، بهدف تهيئة الجند وحثهم على القتال والصمود وما ينتظرهم من ثواب في الدنيا والآخرة (ومن جانب آخر ليس لدينا ما يدل على أن حركة الفتح العربي سببها الجفاف أو الجوع، أو ما يشير إلى قحط أو مجاعة أملت بالعرب آنذاك، والمدقق في نص توجهات أبي بكر لجيوشه يدرك تلك الحقيقة "لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيراً ودعوا النساء في صوامع يتعبدون"^(٢٢) وعلى هذا الأساس لا يمكننا أن نقبل التفسير الاقتصادي لظاهرة الفتح العربي الإسلامي كسبب وحيد أو حاسم.

وكذلك لا نرى أي سبب يدفعنا إلى الاعتقاد بأن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتوح بالحماس الديني، وإن الحروب التي قاموا بها تعد حروباً دينية ولا نظن أن العرب المشاركين في تلك الفتوحات ومعظمهم من البدو - كانت تسودهم الروح الدينية، أو الرغبة في القتال من أجل نشر الإسلام، وقد رأينا كيف ارتدت العرب، وإنها لم ترجع إلى الإسلام إلا بحد السيف، إذا كانت هناك قنوات إيمانية قوية لدى الخلفاء وكبار الصحابة وأتقياء المسلمين في المدينة ومكة، فإنها من غير الممكن أن تكون موجودة لدى البدوي - وهو الذي لا يهتم بالدين - ومن

ثم تدفعه للقتال من أجل نشر الإسلام فضلاً عن وجود نص صريح في القرآن الكريم يؤكد حرية العقيدة إذ "لا إكراه في الدين" ^(٤٣)، والإسلام دفع بالحرية الإنسانية خطوات مهمة، لم تكن مألوفة آنذاك.

ولا شك أن المسلمين الذين تعرضوا لشتى صفوف الأذى من الكفار في عقيدتهم، لا يمكن أن يجبروا غيرهم على اعتناق دينهم، هذا بالإضافة إلى أن الكتب التي كتبها النبي، أو المعاهدات التي أبرمها قادة الفتح مع غير المسلمين فيها تأمين كامل وواضح للحرية الدينية ^(٤٤). أما الجهاد الذي ورد في القرآن الكريم أو على لسان أبي بكر، فهو لم يكن يعني في أي وقت من الأوقات غير الدفاع عن الإسلام ومحاربة المشركين أعداء الرسول الذين عارضوه واضطهدوا اتباعه وأرغموه على الهجرة إلى الحبشة مرتين، ودفعوا الرسول ﷺ إلى البحث عن دار هجرة، ويتمثل هذا المعنى في قوله تعالى ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُنَاقِلُونَ بَأْتُهُمْ ظُلْمُوا وَلَئِنْ أَلَّ عَلَى نَفْسِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩) ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوَامِعُ وَبُيُوعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠). ^(٤٥)

ولم يكن تشريع الجهاد يعني نشر الإسلام في جميع أنحاء العالم عن طريق الحرب، فقد ظهر الإسلام في زمن اشتدت فيه الاضطهادات الدينية في كنف الدولتين الفارسية والبيزنطية وفي البلدان المحلية من قبلهما، فأتاح الإسلام بمبادئه الكريمة الحرية والتسامح في البلاد التي كانت خاضعة للدولتين ولذلك حرص العرب الفاتحون على ترك أهل البلاد المفتوحة على دينهم، ولم يرغموا

أحدًا على اعتناق الإسلام ما داموا يدفعون الجزية ^(٤٦) . ثم أن الإسلام دعا إلى حرية العقيدة فلم يكره أحدًا من أهل الكتاب على اعتناقه وهي السياسية التي رسمها الإسلام، ونص عليها القرآن الكريم ^(٤٧) . لذلك كان المسلمون، إذا أقبلوا على أعدائهم من الروم أو الفرس يعرضون عليهم أحد خصال ثلاث: إما الإسلام أو الجزية أو الحرب. لذلك يمكن القول أن الجهاد والرغبة في نشر الإسلام عن طريق الحرب، لم يكن الدافع الرئيسي على الفتح - خاصة في المراحل الأولى منه وإنما يمكن اعتباره من العوامل المساعدة والمهمة، إذ لا يخفي ما للدين من قوة دافعة ومحركة للشعوب في تحقيق المعجزات والإنجازات الكبيرة.

وأخيراً نعتقد أن الدافع إلى هذه الفتوح يرجع بشكل خاص إلى ارتفاع معنويات العرب بالدين الجديد، وإن ظهور الإسلام بين العرب كان من شأنه أن أوجد بينهم رابطة قوية هي رابطة الدين التي تسمو على الرابطة القبلية، وكان القرآن الكريم من جانبه يثير فيهم الإحساس بالكرامة والعزة، ويقول تعالى "كنتم خير أمه أخرجت للناس" ^(٤٨) وعلى الرغم من أن ملامح الثقة بالنفس لدى العرب بدأت تظهر حتى قبيل الإسلام من خلال حدثين مهمين على الأقل هما خروج جيش الحبشة بقيادة أبرهة مهزوماً من مكة، وتحدي عرب العراق مملكة فارس وانتصارهم المهم عليهم في معركة ذي قار إلا أن الأهم هو صاحب الفضل الأول في بعث الروح القومية عند العرب، وهو الذي نبههم إلى وحدتهم في الجنس واللغة، ولكن العرب الذين قويت معنوياتهم بالإسلام وتوحدوا سياسياً ونفسياً بعد حروب الردة، مازال بعضهم تحت سيطرة ونفوذ الدولة البيزنطية في

بلاد الشام، والبعض الآخر تحت سيطرة الفرس في العراق، أو على سواحل الخليج العربي، وكانت الفرصة سانحة أمام الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ لكي يوحد شمل هؤلاء العرب ويدعو من لم يسلم منهم إلى الإسلام، ويضمهم إلى كيان الدولة، كما فعل بالنسبة لعرب الجزيرة العربية، فكانت حركة الفتوح، سيما وأن النبي ﷺ قد وضع بذور هذه السياسية من خلال الحملات والغزوات التي أمر بها أو قادها بنفسه على التخوم بين الحجاز والشام.

لقد كانت حركة الفتوح الإسلامية في انطلاقها الأول مغامرة حربية خرجت إلى حيز الوجود دون تخطيط مسبق أو تصور متكامل لمشروع فتح، وإنما جاءت نتيجة لظروف وتطورت خاصة تحكمت في الأحداث، ثم ساعدت عليها عوامل أخرى تأتي في مقدمتها الظروف الدولية آنذاك.

فالظاهر أن جيران العرب الأقوياء من بيزنطيين في الشمال من جزيرة العرب، والفرس في الشرق كانا قادرين في أيام قوتها على أن يحجزا العرب في بلادهم ويحجم دورهم ولكن الدولتين الكبيرتين أخذ يعتريهما الضعف والوهن ابتداء من القرن السادس الميلادي بسبب الحروب الطاحنة والخصومة الشديدة بينهما والتي أدت إلى استنزاف طاقاتها وإشاعة الفوضى والاضطراب في مؤسساتها الإدارية والعسكرية والمالية، فضلاً عن الحروب الأهلية والانقسامات المذهبية، والركود الاقتصادي بسبب كساد التجارة، وخاصة تجارة الشرق التي كانت العمود الفقري لاقتصاد العصور الوسطى والتي كان الخليج العربي منفذها الرئيسي إلى أوروبا وعالم البحر المتوسط وقد تزامنت هذه الظروف العصبية

بالنسبة للدولتين المذكورتين مع حالة النهوض العربي التي أشرنا إليها ثم كشفت الغارات العربية الأولى على مواضع هاتين الدولتين عن ضعف كبير فيهما، فتتابعت انتصارات العرب وتمكنوا في أقل من عشر سنوات من إنشاء إمبراطورية عربية إسلامية، نجحت بكل اقتدار في القضاء وإلى الأبد على إحدى الدولتين الكبيرتين، وتحجيم الثانية بعد طردها من جميع الأراضي العربية التي كانت تحت سيادتها.

تحرير العراق:

أوضاع العراق قبل التحرير:

كان العراق قطراً معروفاً بغنى أرضه ووفرة مائه، وكان موطناً لحضارات راقية تعاقبت على ربوعه منذ فجر التاريخ حتى زوال آخر حضارة عراقية ناضجة سنة ٥٣٩ ق.م على أيدي الأخمينيين الفرس، فقد تعاقبت على احتلال العراق ثلاث دول فارسية، لما زاد على ألف سنة الدولة الأخمينية ٥٣٩ - ٣٣٢ ق.م، والبرثية ١٤٧ ق.م ٢٢٧م، والساسانية ٢٢٧ - ٦٣٧م ولقد أقام حكام هذه الدول عاصمة ملكهم على أرض العراق في المدائن (طيفسون)، والعراق بفضل ثرائه وموقعه الجغرافي وموارده البشرية وتاريخه الحضاري، صار مركزاً للإمبراطورية الفارسية خاصة خلال الحكم الساساني وعلى الرغم من محاولات الفرس أن يطبعوا البلاد بطابعهم من خلال التقسيمات الإدارية التي وضعوها، وتقسيم الأراضي وتسميتها بأسماء ملوكهم، إلا أن القطر المحتل،

(العراق) ظل متميزاً عن الوطن الأصلي للمحتلين (بلاد فراس) وظل شعبه متميزاً بفضل جذوره الحضارية العميقة كما أن الفرس لم يقدموا إضافات حضارية مهمة على أرض العراق على الرغم من طول مدة احتلالهم لهذه البلاد فقد ذكر الخطيب البغدادي^(٥٠) في تاريخه، أن الفرس ورثوا نسق بابل للري، كما هو ولم يقوموا سوى بتحسينه، فحفروا قنوات ثانوية، لان نظام الري والقنوات الرئيسية كانت سابقة لهم.

وعلى الرغم من أن العراق كان طيلة تلك القرون، قطراً محتلاً خاضعاً، مستغلاً ولم يكن قطراً قومياً بالنسبة للحكام الفرس، إلا أنه كان مرتبطاً بالإمبراطورية الفارسية إلى درجة يمكن القول معها انه لو ضاع العراق لضاع كل شيء بالنسبة لهم وقد دلت الأحداث فيما بعد على ذلك فعلاً، خلافاً لما وقع في الشام وفي الإمبراطورية البيزنطية^(٥١).

أما بالنسبة لسكان العراق قبيل انطلاق حركة الفتوح العربية الإسلامية، فقد ذكرت أن أغلبهم كانوا من العرب القدامى، الذين يطلق عليهم الكتاب العرب أسم (النبط) أو (النبطيين) وعادة ما يستعمل لفظ النبط في المصادر للإشارة إلى الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية في العراق، وهم سكان البطائح أو سكان القرى بشكل عام في الأقسام الوسطى والجنوبية من العراق^(٥٢) ويرى الكثير من الكتاب العرب أن هؤلاء كانوا من العرب القدامى، ولعلنا نجد في العبارة التي قالها (عبد المسيح بن عمرو) من أهل الحيرة - لخالد بن الوليد، حين سألته: أعرب أنتم أم نبط؟

قال "نحن عرب استتبطننا، ونبط استعربنا" إشارة واضحة إلى التفاعل والاختلاط بين العرب القدامى والمهاجرين الجدد من جزيرة العرب وهو خير جواب لمن يريد معرفة أصل هؤلاء القوم الذي يشكلون جزءاً من المجتمع العراقي، رئيساً ومهما، قبل الإسلام.

أما عرب شبه الجزيرة فقد كان لهم وجود قديم في المنطقة، وكانت محاولاتهم للتسلل من موطنهم الأصلي إلى المناطق الخصبة المجاورة مستمرة في كل العصور خاصة إلى بلاد وادي الرافدين وربما أشارت المصادر إلى وجود عربي قديم جداً في العراق يمتد إلى نحو ثمانية قرون قبل ميلاد السيد المسيح فقد روى الطبري^(٥٤): أن ثمة قبائل من أولاد (معد بن عدنان) حين ضاق بهم العيش في تهامة والحجاز، نزحوا إلى بابل، فابتنى لهم (نبوخذ نصر) حيراً (معسكراً) وحبسهم فيه، ثم تخلى عن هذه الفكرة، فابتنوا الأنبار، شمالي الحيرة، واستقروا ثم انتشروا في السواد حتى بلغوا الأبله وفيهم (الحيان وجعفي وكلب وتميم).

ونجح بعض القبائل العربية القوية في إقامة كيانات سياسية مهمة في العراق، أهمها (إمارة الحيرة) المسماة أيضاً (إمارة اللخمين) نسبة إلى مؤسسها عمرو بن عدي بن مضر بن ربيعة بن لخم" وقد اتخذت قبائل هذه الإمارة مقراً لها في معسكر دائم غربي الفرات عرف باسم (الحيرة)، وهي كلمة مشتقة من اللفظ الآرامي (حرتا) ومعناه المعسكر^(٥٥) وكانت الحيرة موجودة قبل الساسانيين، وأصبحت مملكة ذات شأن في القرن الرابع الميلادي واستمرت كذلك في القرنين

الخامس والسادس، وتمكنت من عقد تحالفات وصلات مع القبائل العربية في العراق وشرق شبه الجزيرة العربية، وسرعان ما علا نجمها وازدهرت في قلب الهلال الخصيب بسبب امتداد سلطانها إلى منطقة الخليج العربي، فكانت أراضيها أيام ازدهارها تمتد من غرب الفرات، ابتداء من مجراه الأوسط، إلى منتصف الخليج العربي، وكان حاكم البحرين يعين من قبل أمرائها، وكذلك شيوخ القبائل الضاربة على طريق الخليج العربي (٥٦).

وكانت قبائل إياد وتغلب والتمر تقيم على أرض الجزيرة الفراتية (في الأقسام الشمالية في العراق) بصورة رئيسة، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصير الحيرة، كما وجدت أقسام من هذه القبائل في قلب السواد أيضاً (٥٧).

وابتداء من القرن الثالث للميلاد، بدأنا نسمع عن وجود قبائل عربية عديدة في سواد العراق، وفي إقليم الجزيرة الفراتية، كان فيهم من تميم وبكر وعبد القيس وغيرها، قبائل قوية، وقد سكن بعضها إقليم البصرة ومنطقة الآيلة (٥٨) ويبدو أن هذا الوجود العربي القوي لم يكن موضع ارتياح من قبل الدولة الفارسية، لذلك لم تكن علاقات هذه القبائل جيدة بالدولة الساسانية، وكانت تقوم بين فترة وأخرى بشن الغارات على الحاميات الفارسية في المنطقة وقد لجأ الفرس إلى المصانعة والمهادنة مع هذه القبائل لتفادي الهجمات المتتالية عليهم، وتعاملوا مع كبرى القبائل إلى جوارهم، وهي قبيلة بكر وعينوا رئيسها حاكماً على منطقة الأبلة (٥٩) كما لجأوا في مناسبات كثيرة إلى سياسة القسوة والبطش في ضرب هذه القبائل العربية، وأشهر ما تذكره الأخبار عن هذه السياسة ما فعله

سابور ذي الأكتاف مع العرب، فيقال أنه نكل ببعض القبائل العربية وخلع أكتافهم انتقاماً لوالده، الذي يبدو أن العرب قتلوه، ولذلك سمته العرب بذِي الأكتاف^(١٠)، كما أن خسرو الثاني قتل ملك الحيرة النعمان، وذلك الحدث الذي أدى إلى موقعة ذي قار التي انتصر فيها العرب على العجم. كما مارس الفرس أسلوباً آخر مع تلك القبائل بهدف إضعافها وتفتيت قوتها وهو أسلوب التهجير لهذه القبائل أو لأجزاء منها، مناطق سكناها الأصلية إلى مناطق وبيئات واسعة لتهجير القبائل من منازلها إلى منازل أخرى عقاباً لها وضمناً لعدم قيامها بغارات على الحدود، ومع كل ذلك ظل وجود هذه القبائل كبيراً وقوياً ومؤثراً حتى ظهور الإسلام وتحرير العراق.

مقدمات تحرير العراق:

يرجع فضل المبادرة في تحرير العراق، بدون شك إلى قبيلة "بكر بن وائل" التي سبق الإشارة إلى وجودها المميز في الساحة العراقية- فقد كان أفرادها أول من بدأوا الإغارة على المواقع الساسانية في السواد، وكانت هذه القبيلة تترحل في البوادي الغربية من العراق، وامتدت فروع منها من أقاصي طريق الخليج العربي حتى أرض الجزيرة الفراتية، وسكنت حوض دجلة الأعلى فنسبت إليها تلك الجهات، وعرفت بـ(ديار بكر)، وهذه الجهات هي مركز الهلال الخصيب الذي يصل بين الخليج العربي والبحر المتوسط، وهذا يعني

حسن اختيار هذه القبيلة وفروعها لاماكن استقرارها على امتداد طرق التجارة وأسواقها (٦١).

ظهرت داخل هذه القبيلة استعدادات رفض وتحد تجاه الدولة الساسانية ثم سرعان ما مثلت رأس الرمح للعروبة تجاه العجم، كما اتضح ذلك خلال معركة "ذي قار" ثم أثناء مقدمات تحرير العراق، التي انطلقت فعلاً مع قبيلة بكر بقيادة شيخهم "المثنى بن حارثة الشيباني".

لقد مثلت معركة ذي قار منعرجاً خطيراً في تاريخ العلاقات العربية - الساسانية، فقد كانت أول مواجهة بين الفرس والعرب على أرض مكشوفة، وتستند أسباب نشوبها إلى تاريخ العلاقات بين الإمبراطورية ومملكة الحيرة، التي بلغت مرحلتها الأخيرة من التدهور في زمن آخر المناذرة "النعمان بن المنذر" [٥٨٥ - ٦١١م] الذي تحدى ملك الفرس، في وقت بدأت القبائل العربية في العراق تلتف حول زعامته (٦٢).

بعد معركة ذي قار أخذت القبائل العربية "بكر" و"شيبان" و"عجل" وغيرها من القبائل الضاربة في بادية العراق تغير على الدولة الساسانية، بشكل منتظم، على الحاميات الفارسية بشكل خاص.

وبينما كانت رحي حروب الردة تدور في شبه جزيرة العرب، بلغ إلى علم قبائل (بكر) أن مملكة فارس كانت في أزمة خلافة، فخططت للقيام بغارات كبيرة على السواد، لذلك خرج رجلان من (بكر بن وائل) هما (المثنى بن حارثة الشيباني) و (سويد بن قطبة العجلي)، فنزلا في حشودهما تخوم الدولة الساسانية،

وراحا يغيران على مسالح الفرس فيغتمان ما استطاعا الوصول إليه وكان (المثنى) يغير من ناحية الحيرة، بينما كان (سويد) يشن غاراته من ناحية (الأبله)، وأراد (المثنى) سيد بني شيبان، ربط هذه العملية بالإسلام فكتب إلى الخليفة أبي بكر رضي الله عنه (يعلمه ضراوته بفارس، ويعرفه وهنهم، ويسأله أن يمهده بجيش) فلما انتهى هذا الكتاب إلى الخليفة، كتب إلى (خالد بن الوليد) الذي قد فرغ من أهل الردة، يأمره بالسير إلى الحيرة ومحاربة الفرس، على أن يضم معه المثنى ورفاقه، ويذكر البلاذري ^(٦٣) أن المثنى بن حارثة الشيباني كان يغير على السواد في رجال من قومه وكانت أخبار غاراته على هذا الإقليم ومناهضته للاحتلال الفارسي، وانتصاراته عليهم تصل إلى المدينة، وكان أبو بكر رضي الله عنه يتتبع بانتظام أخبار هذا القائد العربي، الذي دفعه شعوره القومي بعروبه إلى هذه المواقف فسأل أصحابه عنه فقال له (عاصم بن سنان المنقري): [هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني] ولا نستبعد أن يكون الخليفة قد اتصل به و أيدته في مواقفه القومية، وعرض عليه الإسلام، بدليل قدومه إلى المدينة، ومقابلته للخليفة، الذي بادر بعد ذلك إلى إرسال أول بعث حربي إسلامي إلى خارج جزيرة العرب، نصره (المثنى) ومتممًا ما بدأ به.

الاشتباكات الأولى قبل الحيرة:

سار خالد بن الوليد والمخزومي من اليمامة باتجاه العراق، بناء على أوامر الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، وذلك في المحرم من سنة ١٢ للهجرة في ألفين من المسلمين وضم إليه ثمانية آلاف من ربيعة ومضر، فأصبح معه عشرة آلاف، وكان أبو بكر قد كتب إلى المثنى يأمره ببذل الطاعة لخالد والانضمام إليه، كما كتب إلى قائد آخر على الفرس يدعى مذعور بن عدي العجلي يأمره بأن ينضم إلى خالد ويكون تحت أمرته أثناء عمليات التحرير للمدن العراقية.

يبدو أن وصول خالد إلى العراق رفع من الروح المعنوية عند القبائل العربية النائرة على الفرس، كما أذكى روح النضال عند عرب العراق ضد الفرس فقد طلب زعيم ثالث من بكر بن وائل وجماعة من قومه كانوا ينزلون في الموضع الذي قامت عليه البصرة فيما بعد، اسمه سويد بن قطبة، الانضمام إلى قوات خالد ومساعدته في التغلب على القوات الفارسية في منطقة الأبله، وذكروا أنه قال لخالد: "إن أهل الأبله قد جمعوا لي، ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك" فأجابه خالد بقوله: "قال رأي أن أخرج من البصرة نهراً ثم أعود ليلاً، فأدخل عسكري بأصحابي، فإن صبحوك حاربناهم" ففعل خالد ذلك، وتوجه نحو الحيرة فلما أقبل عليه الليل قفل عائداً إلى البصرة وانضمت قواته إلى قوات سويد، وظن الفرس في الأبله أن خالد قد انصرف عن البصرة، ووجدوا في ذلك فرصة مواتيهم ليهاجموا سويد ويقضوا عليه، ثم إنهم هاجموا معسكر سويد فحمل عليهم

خالد وسويد بقواتهما المشتركة، فانهزم الفرس، وقتل المسلمون عدداً كبيراً منهم، كما لقي العدد الأعظم منهم حتفه غرقاً في مياه دجلة البصرة [شط العرب] واستغل خالد هذا النصر وهزيمة الفرس فاستولى على الخريبة، وهي مسلحة للفرس، واستخلف عليها شريح بن عامر^(٦٤) ويقال أيضاً أتى النهر الذي يعرف بنهر المرأة فصالح أهله، وإنه قاتل جمعاً بالمزار^(٦٥)، ثم سار يريد الحيرة وخلف سويد بن قطبة على ناصيته وقال: له "قد عركنا هذه الأعاجم بناصيتك عركة أدلتهم لك"^(٦٦).

تحرير الحيرة:

مضى خالد نحو الحيرة فافتتح كسكر ودرني وهرمز جرد بالامان، وسار إلى أليس فتصدى له جابان صاحب أليس، فبعث إليه خالد المثنى بن حارثة، فقاتله وهزمه وقتل جل عسكره إلى جانب نهر عرف بنهر الدم، ثم صالح خالد أهل أليس على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على الفرس وأدلاء وأعواناً^(٦٧).

واصل خالد زحفه نحو الحيرة حتى خرجت إليه فرسان أردابة صاحب صاحب خيل كسرى التي كانت مرابطة في المسالح الواقعة على الحدود بين الفرس والعرب، فقاتله المسلمون في موضع يعرف بـ "مجتمع الأنهار" وهزموه، ونزل المسلمون على الحيرة فتحصن أهلها في القصر الأبيض وقصر ابن بقليلة وقصر العدسيين، فخرج إليهم عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن بقليلة من الأزد، وهاني بن قبيصة بن مسعود الشيباني وإياس بن قبيصة

الطائي، وإياس هذا كان عاملاً لكسرى أبرويز على الحيرة بعد النعمان بن المنذر فصالحوا خالداً على مائة ألف درهم، وقيل على ثمانين ألفاً في كل عام، على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على الفرس ونزل خالد بقصر الخورنق^(٦٨).

وتذكر المصادر أن حواراً طريفاً جرى بين خالد بن الوليد وعبد المسيح ابن عمرو، عندما استقبل عبد المسيح خالداً وكان كبير السن " فقال له خالد: من أين أقصي أترك يا شيخ؟

فقال : من ظهر أبي.

قال (خالد) فمن أين خرجت؟

قال: من بطن أُمي.

قال (خالد): ويحك في أي شيء أنت؟

قال: في ثيابي.

قال(خالد) على أي شيء أنت؟

قال: على الأرض.

قال (خالد): أتُعقل؟

قال: نعم وافيد.

قال(خالد): ويحك إنما أكلمك بكلام الناس.

قال: وأنا إنما أجيبك جواب الناس.

قال (خالد): أسلم أنت أم حرب؟

قال: بل سلم.

قال (خالد) فما هذه الحصون؟

قال: بنيناها لسفينة حتى يجيء الحليم.

ثم تذاكر الصلح فاصطلحا على مائة ألف يؤدونها في كل سنة فكان الذي أخذ منهم أول مال حمل إلى المدينة من العراق ^(٦٩) وكان ذلك في سنة ١٢ للهجرة.

أمر خالد ببشير بن سعد الأنصاري بالمسير إلى بانقياء، فاشتبك معه فرسان الفرس بقيادة (فرخبنداد) ورشقوا من معه بالسهم، فحمل عليهم وهزمهم، وقتل (فرخبنداد) في المعركة، وأصيب بشير بن سعد إصابة بالغة، لم يلبث أن توفي بسببها وهو بعين التمر فبعث خالد جرير بن عبد الله البجلي ليحارب أهل بانقياء، وعندئذ خرج إليه (بصهري بن صلوبيا) فاعتذر إليه عن القتال، وعرض عليه الصلح، فصالح جرير على ألف درهم وطيسان ^(٧٠)، فوجه خالد بالطيسان إلى أبي بكر مع مال الحيرة والألف درهم التي صالحه عليها ابن صلوبا، فوهب أبو بكر الطيسان للحسين بن علي عليه السلام ^(٧١).

تحرير الأنبار:

توجه خالد بعد الحيرة لفتح الأنبار، وعندما وصلها تحصن أهلها، وقدم إليه بها المثنى بن حارثة، فحاصروا أهلها، واحرقا نواصيها، واضطر أهل الأنبار وقائد حاميتها الفارسية (شيرزاد) إلى مصالحة خالد على ما احب كذلك وجه

خالد بن الوليد المثنى للإغارة على سوق يقال لها سوف بغداد الواقعة عن قرن نصر الصراة، وكان يجتمع بها طوائف من كليب وبكر بن وائل وقضاعة، فأغار عليها وأصاب ما فيها.

في هذه الأثناء كتب أبو بكر إلى خالد يأمره بالمسير إلى الشام ليمد أبا عبيدة بن الجراح بمن معه المسلمين، فلم يتردد خالد في تلبية أمر الخليفة، وخلف في الحيرة عمرو بن حزم الأنصاري مع المثنى، فسار إلى الانبار، ثم رحل عنها إلى عين التمر، وهي بلدة في طرف البادية غربي الفرات كانت مسلحة لأهل فارس وكان يتولى الدفاع عنها مهران بن بهرام بن جوبين في جمع عظيم من العجم وعقه بن أبي عقة في حشد كبير من العرب من التمر وتغلب وإياد، فخرج أهل الحصن لمقاتلة المسلمين، ونشب قتال عنيف انتهى بهزيمة أهل الحصن، فانسحبوا إلى حصنهم ولزموه، فحاصروهم خالد حتى طلبوا الأمان، فأبى أن يؤمنهم واستنزل الحصن عنوة، فقتل المدافعين عنه وسبى ذراريهم، من بين من سباهم "يسار جند محمد بن إسحاق" صاحب السيرة، ونصير والد موسى بن نصير "فاتح المغرب والأندلس وسيرين أبو محمد بن سيرين واخوته" ثم وجه خالد وهو بعين التمر (النسير بن ديسم بن ثور) إلى ماء النبي تغلب، ففاجأهم بالغارة فقتل منهم جماعة كبيرة وأمر طائفة، ومن هناك أغار النسير على حي من ربيعة، ثم تكريت وعكبرا وغنم غنائم كثيرة، وسار خالد من عين التمر إلى الشام بعد أمر المثنى بن حارثة بان يعود إلى مقر قيادة الحيرة. وكان مسيره إلى الشام في شهر ربيع الآخر سنة ١٣ هجرية وظل المثنى يواصل هجماته

على القوات الفارسية في سواد العراق حتى توفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية^{٧٣}.

تحرير بلاد الشام:

بعد العراق جاء دور بلاد الشام، أو ما يسميه اليونان بـ "سورية" SYRIA، وهي بلاد واسعة تمتد من شمال الحجاز إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن الفرات إلى الديار المصرية، فيشمل الأراضي الخصبة قرب الساحل التي تغذيها عدة أنهار أهمها: اليرموك، والأردن، وبردى، والأرثد وقويق، وايضاً بادية واسعة تمتد حتى قرب الحجاز ومصر تعرف بـ "البلقاء".

أما سكان البلاد فكان أغلبهم عرب توافدوا عليه من داخل الجزيرة العربية في شكل موجات ضخمة منتظمة مثل: العاموريين والكنعانيين أو "الفينيقيين" والآراميين والأنباط، وأخيراً العرب اليمنيين من قبائل الضجاعم وغسان وكنب وعذرة وجذام وجهام، حيث كانت هذه الأقوام والقبائل تكون معظم سكان بلاد الشام.

وقد نشأت في بلاد الشام دول عديدة نتيجة لهذه الهجرات، وأقامت لها حضارات متميزة منذ قديم الزمان، ولكون بلاد الشام منطقة اتصال وجسر أرضي يربط بين عالم البحر المتوسط وعالم الخليج العربي والمحيط الهندي عبر العراق، وطمعت فيه الدول القوية في حوض البحر المتوسط، مثل: المصريين

القدماء والبطالمة والرومان، وأخيراً البيزنطيين، الذين يسميهم العرب "الروم"^{٧٤} كما طمعت فيها الدولة الشرقية الكبرى - الفارسية - وقامت بغزوها عدة مرات. إن قيام الدويلات العربية المستقلة في بلاد الشام، كانت دائماً محط اهتمام الدولة الرومية ورعايتها وتشجيعها، وكانت حريصة على الاحتفاظ بعلاقات طيبة معها، وذلك من أجل أن تقف حارسة لحدود أملاكها في الشرق ضد غارات عرب الحجاز أو الفرس، ومن تلك الدويلات:

الأنباط والتدمريون وأخيراً الغساسنة، والذين كانت تطلق عليهم بعض المصادر العربية اسم "روم العرب"^(٧٥) لتحالفهم مع البيزنطيين إلى التمسك ببلاد الشام الأشرف المباشر عليه، وقيامهم بتقسيمه إلى أقسام عسكرية عرفت بالأجناد ونشروا فيه الحاميات العسكرية، وهذا النظام هو الذي طبقه العرب بعد تحرير بلاد الشام.

ولابد من الإشارة إلى أن ظهور السيد المسيح "عليه السلام" في بلاد الشام "فلسطين" كان سبباً في تحول أهله منذ وقت مبكر إلى اعتناق الديانة المسيحية. وساعد على ذلك أن الدولة البيزنطية - التي ورثت الرومان في الشرق - جعلت المسيحية ديانتها الرسمية منذ زمن الإمبراطور قسطنطين الأول (- م) ومع ذلك كان سكان بلاد الشام، الذين كان أغلبهم من النصارى العرب، يعتنقون المسيحية على مذهب مخالف للمذهب البيزنطي، كما تميزت المسيحية الشامية أيضاً بالرهبة التي ربما، انتقلت إليها من مصر، بحيث كثرت في الشام الصوامع والديارات^(٧٦).

وفي الواقع يمكننا أن نقول أن نوايا توسيع دولة الإسلام كانت قد بدأت في حياة الرسول ﷺ الذي اتجه بنظرة شمالاً، أي إلى بلاد الشام فكانت سراياه وغزواته بهذا الاتجاه، وأهمها كانت غزوة "مؤتة" التي جسدت بدايات المشروع السياسي للدولة العربية الإسلامية في بلاد الشام فضلاً عن أهدافها الاقتصادية، في تأمين الطريق التجاري للشام الذي كان يشكل عصب الحياة الحجازية.

وقبيل أن يتوفاه الله أعد الرسول الكريم ﷺ في المحرم عام ١١هـ/ ٦٣٢م جيشاً للمسير إلى بلاد الشام، يقوده (أسامة بن زيد) وأمره "أن يوطئ بالخيول تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين" كما يروي الطبري^(٧٧).

وبعد وفاة الرسول ﷺ أصر الصديق ﷺ على إنفاذ جيش (أسامة) إلى مقاصده التي حددها رسول الله، ولم يتراجع عن موقفه هذا، على الرغم من تدخلات الصحابة وطلبهم تأجيل ذلك بسبب الخطر المحدق بدولة المدينة وبالإسلام نتيجة لحركة الارتداد الواسعة التي عمت أنحاء مهمة من جزيرة العرب. فمضى (أسامة) إلى الشمال وأوقع بقبائل من قضاة كانت قد ارتدت عن الإسلام ثم أغار على (أيل) وهي قرية من قرى (مؤتة) وقتل من تعرض لجيشه من أهلها وغنم غنائم كثيرة^(٧٨).

ولم يكتف أبو بكر بما حققه أسامة في حملته، فعندما اشتدت حركة الردة عقد لخالد بن سعيد بن العاص وسيره إلى مشارف الشام، في حين عقد لعمر بن العاص وأرسله إلى قضاة، ويعد لواء خالد بن سعيد أول لواء عقده إلى الشام، ولكنه أيا بكر لم يلبث أن عزله عن الإمارة وأمر مكانه يزيد بن أبي

سفيان، بعد هزيمته على أيدي الروم ومنتصره عرب الشام من بهراء وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام بقيادة القائد البيزنطي باهان.

كتب خالد إلى أبي بكر يعلمه بالهزيمة ويستمدد فسير إليه أبو بكر بعثاً من المسلمين بقيادة ذي الكلاع الحميري وعكرمة بن أبي جهل، ثم لحق بهما الوليد بن عقبة في جيش لمساندته وبينما كان أبو بكر يستنفر أهل مكة والطائف واليمن كان المدد الذي أرسله إلى خالد بن سعيد ويتجه إلى تيماء ثم زحف خالد ابن سعيد إلى جنوبي البحر الميت لمقاتله الروم، فاستدرجه باهان، فتبّع خالد ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد، إلى أن وصلت قوات المسلمين إلى مرج الصفر الواقع إلى الشرق من بحرية طبرية وعندئذ طوقتها قوات باهان وقطعت على المسلمين خط الرجعة، واضطر خالد بن سعيد إلى أن يشتبك مع البيزنطيين في إحدى المواقع فانهزم وقتل ابن له، وفر بنفسه إلى ذي المروة قرب المدينة تاركاً جيشه تحت رحمة الروم، ولكن عكرمة بن أبي جهل نجح في تغطية انسحاب قوات المسلمين إلى حدود الحجاز، وظل مقيماً هناك رداً للمسلمين^(٧٩)، أما خالد بن سعيد فقد عد متخاذلاً وجباناً في الحرب. وأمره أبو بكر بالبقاء في المدينة وعدم مغادرتها.

استجاب عدد كبير من المتطوعين لنداء أبي بكر ﷺ وأخذت الحشود تتوافد من سائر أنحاء الجزيرة وتتجمع في المدينة في معسكرين، وبعد اكتمال تنظيمها في شهر المحرم سنة ١٣هـ / ٦٣٤، عقد أبو بكر ثلاثة ألوية.

الأول: لشرحبيل بن حسنة، وهو شرحبيل بن عبد الله الكندي وحسنة أمه^(٨٠).

الثاني: لعمر بن العاص بن وائل السهمي.

الثالث : ليزيد بن أبي سفيان وقد عد ذلك التاريخ بداية الانطلاق الرسمي للمنظم لحركة الفتوح الإسلامية التي غيرت مسار التاريخ الإنساني في العصر الوسيط أراد الخليفة أن يكون زحف القواد الثلاثة من جهات متعددة: فسار عمرو بن العاص عن طريق آيلة أو ساحل البحر الأحمر (القلزم)، باتجاه أرض فلسطين، وسلك يزيد وشرحبيل طريق "تبوك" أو البلقاء نحو شرق الأردن، وقد واجه القادة الثلاثة مقاومة من سكان المناطق التي مروا بها وخاصة من بعض العرب المنتصرة مما جعلهم يطلبون المدد من المدينة، على الرغم من أنهم تمكنوا من تثبيت أقدامهم بنجاح في جنوب الشام، لذلك أرسل إليهم الخليفة المدد الذي توافد على المدينة بقيادة أبو عبيده بن الجراح من جانب آخر ألحق أبو بكر الوليد بن عقبة بشرحبيل، وألحق علقمة بن محرز ببعث عمرو بن العاص، والحق معاوية بن أبي سفيان ببعث يزيد بن أبي سفيان وسير معه جماعة من المجاهدين.

وقعت اشتباكات متفرقة مع البيزنطيين أولها وقعة كانت بين المسلمين بقيادة يزيد والبيزنطيين بقيادة بطريق فلسطين بقرية من قرى غزة يقال لها دائن وانتهت بهزيمة البيزنطيين وانسحابهم إلى غزة، بينما سار يزيد مطارداً القوات البيزنطية المنسحبة، بلغه أن بوادي عربية من أرض فلسطين حشوداً بيزنطية،

فسير إليها يزيد قائداً من قواده يعرف بأبي أمامه بن عجلان الباهلي، الذي تمكن من الإيقاع بهم وقتل أحد قوادهم^(٨١).

بلغت أخبار توافد قوات المسلمين على جنوب الشام إلى الإمبراطور فاستعد للمواجهة، وعمد إلى مقاتلة جيوش المسلمين كل على حدة" وأراد اشغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده وفضول رجاله، وأرسل إلى عمرو أخاه تذارق لأبيه وأمه، فخرج نحوهم في تسعين ألفاً، وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقة ثنية جلق بأعلى فلسطين، وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان فعسكر بازائه، وبعث الدارقص، فاستقبل شرحبيل بن حسنة وبعث الفيغار بن نسطوس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة، فهابهم المسلمون وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفاً سوى عكرمة في ستة آلاف^(٨٢) . وتدارس قادة جيوش المسلمين الموقف الجديد والتفوق العددي الكبير لجيوش العدو، فقال عمرو بن العاص" إن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا"^(٨٣). وكان الخليفة أبو بكر قد رد عليهم بمثل هذا الرأي عندما نقلوا إليه صورة الموقف الجديد إذ قال لهم "اجتمعوا فتكونوا عسكرياً واحداً، وألقوا زخوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة وإنما يؤتى العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب، واجثموا باليرموك متساندين، ليصل كل رجل منكم بأصحابه" وفي الوقت ذاته كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد وهو في العراق

يستحثه على المسير والالتحاق بجيوش المسلمين في الشام على أن يصحب معه نصف عدد المسلمين ويترك النصف الآخر مع المثنى بن حارثه. فسار خالد بن الوليد في شهر ربيع الأول سنة ١٣هـ، بمن معه من المقاتلين واخترق الصحراء الفاصلة ما بين العراق والشام في ثمانية أيام، ماراً بقرقر، وسوى وقرقيساء ودومة الجندل، وقصم وتندر وحوارين ومرج راهط وثنية دمشق إلى أن وصل إلى بصرى وعليها شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيده بن الجراح فاشترك خالد في محاصرتها، فصالحه أهلها. تم افتتاح المسلمون جميع المناطق التابعة لكورة حوران " وتوجه أبو عبيدة بن الجراح في جماعة من المسلمين كثيفة من أصحاب الأمراء ضموا إليه فأتى مآب من أرض البلقاء وبها جمع العدو فافتتحها صلحاً على مثل صلح بصرى وقال بعضهم أن فتح مآب قبل فتح بصرى" (٨٤).

معركة أجنادين:

ما أن وصل خالد بن الوليد قرب دمشق حتى علم بتحرك جيش كبير للروم ضد المسلمين فأمر جميع جنوده بالتجمع في أجنادين، وهي بلدة قرب الرملة من أرض فلسطين، حتى لا ينفرد عدوهم بهم وهو متفرقون فقد أرسل هرقل من حمص شمال بلاد الشام أخاه تيودوروس (ويسميه العرب وردان) على رأس جيش كبير، يزيد عدد على مائة ألف من الروم وبعض العرب المنتصرة (الأنباط) ومعه البطارقة والقسس والرهبان بالصلبان، وقد سلحوا

بالأسلحة المعروفة في ذلك الوقت: فكان المقاتلة منهم يلبون خفاف الحديد في أرجلهم، وهب مكفونة في الدروع لا يرى منهم إلا الحدق وحينما وصل تيودورس إلى اجنادين نظم جيشه أمام العرب، على أحدث ما هو معروف عند الروم من فن الحرب، فوضع فارساً بين كل اثنين من المشاة أحدهما ناشب والاخر رامح.

أما المسلمون الذين تجمعوا في اجنادين فقد كان عددهم لا يزيد على ثلاثين ألفاً من قبائل متعددة اتخذت لها رايات وألوية، وشعارها عقيدة الإسلام، وكان لخالد ابن الوليد راية خاصة به أسماها "العقاب" ^(٨٥) وكانت أسلحة المسلمين بسيطة بدائية لا تصل إلى قوة أسلحة الروم وإن كان بعضهم من أهل اليمن يلبس الدروع والبيض (أي الخوذ) وقد نظمهم خالد إلى فرق للرجالة: ميمنة وميسرة وجعل الفرسان وحدهم ليحاربوا على حدة، فكان منهم من يمتطي الخيل أو الأبل. أما خالد نفسه فقد تعمم بعمامة صفراء، واشتهر بحريرة حمراء، حتى يراه الجميع.

زحف المسلمون وتم اللقاء بين البيزنطيين وبين المسلمين، واشتد القتال بين الفريقين، وأبلى خالد بن الوليد، يؤمئذ، بلاء حسناً، وعلى الرغم من عدم تكافؤ العدد والسلاح بين الجانبين فقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على الروم بشجاعتهم وارتفاع روحهم المعنوية بالدين الجديد فتمكن المسلمون من قتل عدد كبير من الروم في هذه المعركة التي دارت رحاها في جمادي الأول من سنة ١٣

هـ/ يوليو ٦٣٤ م، كانت هذه أول وقعة عظيمة بين عرب الحجاز والبيزنطيين منذ أن ظهر الإسلام.

لقد انتهت المعركة بهزيمة نكراء مني بها البيزنطيون وقتل الفيقار وتذارق واعداد هائلة منهم واستشهد من الجانب الإسلامي بعض الشخصيات الإسلامية البارزة منها: عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وأخوه أبان بن سعيد، ولما انتهى خبر هذه الواقعة إلى هرقل سقط في يده، وامتألت نفسه رعباً، فنقل مقر قيادته من حمص إلى إنطاكية^(٨٦).

لقد كان للانتصار في "أجنادين" وقع عظيم بحيث اعتقد المسلمون أن هذا النصر من الله بحيث اعتقد المسلمون أن هذا النصر من الله، وقد استغلت "المدينة" هذا النصر استغلالاً كبير في حث المسلمين على الجهاد بحيث أنه استغل الحماس في عرب الجزيرة مما جعلهم يتقاطرون على بلاد الشام، ويشجعهم على السير بدون تردد للانخراط في مشروع الفتح بل ظهرت نوايا الكثير منهم في سكنى بلاد الشام نهائياً وعلى العكس كانت الهزيمة لأعدائهم الروم في "أجنادين" طعنة غير منتظرة بحيث لم يصدق هرقل ذلك، ولم يتصوروا إطلاقاً بأن هزيمتهم في "أجنادين" ستؤدي إلى القضاء على وجودهم نهائياً في بلاد الشام وشمال إفريقيا، وإنما اعتقدوا أنها محنة طارئة أو غضب إلهي بسبب ما ارتكبه من الخطايا والذنوب.

توفي أبو بكر في ٢٢ ربيع الثاني من جمادي الآخرة سنة ١٣هـ/ ٢٣ أغسطس ٦٣٤م، بعد هذا الانتصار الكبير، وذلك بعد أن قضى في الخلافة

حوالي سنتين وثلاثة أشهر [١١-١٣هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤م] وقد حافظ على الإسلام من ردة العرب، ووجه الجيوش نحو الفتوح، مما يجعلنا نعهده من أعظم مؤسسي الدولة الإسلامية بعد النبي.

هوامش الفصل الأول

- ١- حول موضوع الخلافة ونظام الحكم في الإسلام أنظر:
 - الماوردي، الأحكام السلطانية.
 - ابن طباطبأ، الفخري في الآداب السلطانية.
 - القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة.
 - ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل.
 - المقرئزي، السلوك في دول الملوك.
 - حسن إبراهيم حسن وآخر، النظم الإسلامية.
 - صبحي الصالح، النظم الإسلامية.
 - محمد الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي.
- ٢- الأعراف: ١٤٢.
- ٣- البقرة: ٣٠.
- ٤- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٠، ص ٢٩.
- ٥- ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٣٨.
- ٦- الإسراء: ٧١.
- ٧- خليل عبد الكريم، الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، دار سيناء القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٠.

- ٨- عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بيروت، ١٩٦٠م، ص ٤٨.
- ٩- ابن هشام، ج ٤، ص ٣١١، الطبري، ج ٣، ص ٢٠٣، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٦٤.
- ١٠- الحجرات: ١٤،
- ١١- انظر: ابن هشام، ج ٤، ص ٣١٦ وما بعدها، البلاذري، فتوح البلدان، ج ١، ص ١١٤ وما بعدها.
- ١٢- عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص ٤٢.
- ١٣- انظر: الطبري، ج ٣، ص ٢٣٠ وما بعدها، البلاذري، ج ١، ص ١١٩.
- ١٤- الطبري، ج ٣، ص ٢٣٣.
- ١٥- البلاذري، ج ١، ص ١٠٧ وما بعدها.
- ١٦- المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣٠.
- ١٧- الطبري، ج ٣، ص ٢٣٣.
- ١٨- المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣٠.
- ١٩- نفسه، ج ٣، ص ٢٤٦.
- ٢٠- ياقوت الحموي، ج ١، ص ٦٨.
- ٢١- المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٨.
- ٢٢- الطبري، ج ٣، ص ٢٢٥.
- ٢٣- الطبري، ج ٣، ص ٢٣٢، ابن الأثير، ج ٢، ص ٣٤٨.

- ٢٤- البلاذري، ج ١، ص ١١٥.
- ٢٥- عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، المكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة.
- ٢٦- الطبري، ج ٣، ص ٢٣٣ - ٢٣٥.
- ٢٧- ورد في بعض الروايات أن مالكا لم يرتد وأن بني حنظلة وضعوا السلاح وأعلنوا استسلامهم لجيوش خالد، البلاذري، ج ١، ص ١١٧.
- ٢٨- الطبري، ج ٣، ص ٢٤٣.
- ٢٩- البلاذري، ج ١، ص ١١١.
- ٣٠- ابن سعد، ج ١، ص ٥٤.
- ٣١- البلاذري، ج ١، ص ١١٦، ابن الأثير، ج ٢، ص ١٦٠.
- ٣٢- ابن هشام، ج ٢، ص ٩٥٣، البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٠١ - ١٠٤.
- ٣٣- ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٦٠.
- ٣٤- ومنهم المستشرق الإيطالي "كايتاني" وغيره من المستشرقين أمثال برنارد لويس، ولامانس، وبيكر.
- ٣٥- فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٨.
- ٣٦- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٥.
- ٣٧- الطبري، ج ٤، ص ٩.
- ٣٨- ابن الأثير، ج ٢، ص ٣٣٢.
- ٣٩- الفتوح: ٨ - ٩.

- ٤٠- سبأ: ٢٨.
- ٤١- الأحزاب: ٤٥ - ٤٦.
- ٤٢- ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٢٧.
- ٤٣- البقرة: ٢٥٦.
- ٤٤- انظر: عبد الحكيم الكعبي، معاهدات الصلح بين المسلمين ونصارى الجزيرة الفراتية خلال حركة الفتح الإسلامي، مجلة البلقاء، جامعة عمان الأهلية/ الأردن، المجلد ٩، العدد ١، نيسان ٢٠٠٢ ص ١٣٧ - ١٥٥.
- ٤٥- الحج: ٣٩.
- ٤٦- انظر: سورة التوبة: ٢٩.
- ٤٧- انظر: سورة البقرة: ٢٥٦.
- ٤٨- آل عمران: ١١٠.
- ٤٩- تقع آثار هذه المدينة حالياً جنوب بغداد، وتسمى أيضاً "سلمان باك".
- ٥٠- تاريخ بغداد، القاهرة، ١٩٣١، ج ١، ص ٥٧.
- ٥١- هشام جعيط، الكوفة، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣، ص ٩.
- ٥٢- عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣١.
- ٥٣- الطبري ج ٣، ص ٣٤٤.
- ٥٤- المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥٨.

٥٥- دائرة المعارف الإسلامية، مادة "الحيرة" مجلد ٨، ص ١٦١، مقال F.

.BUHL

٥٦- جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٦، ص ٨٣.

٥٧- الطبري، ج ٣، ص ٤٧٤.

٥٨- الطبري: ج ٢، ص ٢٠٦.

٥٩- المصدر نفسه والجزء والصفحة.

٦٠- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٧، المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ٢٧.

٦١- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٨٩.

٦٢- الطبري، ج ٢، ص ٢٠٦.

٦٣- فتوح البلدان، ص ٢٩٥.

٦٤- المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

٦٥- منطقة بين واسط والبصرة، وهي قصبة ميسان، شمال البصرة بأربعة

أيام، معجم البلدان، ج ٥، ص ٨٨.

٦٦- البلاذري، ص ٣٤٤.

٦٧- المصدر نفسه، ص ٣٤٥.

٦٨- تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٣١.

٦٩- البلاذري، ص ٣٤٥.

٧٠- الطيلسان: ضرب من الأوشحة بلبس على الكتف أو يحيط بالبدن ليس به

تفصيل أو خياطة (فارسي معرب).

- ٧١- البلاذري، ص ٢٤٧.
- ٧٢- المسلحة: موضع السلاح؛ المرقب والجمع مسالح.
- ٧٣- الطبري: ج ٣، ص ٢٢ وما بعدها، الدنيوري، الأخبار الطوال، ص ١١٢.
- ٧٤- سورة الروم: ٢.
- ٧٥- الطبري، ج ٣، ص ٨٠.
- ٧٦- ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٧٧.
- ٧٧- الطبري، ج ٣، ص ١٨٤.
- ٧٨- المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٣.
- ٧٩- المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٠.
- ٨٠- ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٠٦.
- ٨١- البلاذري، ص ١٨٨.
- ٨٢- الطبري، ج ٢، ص ٣١.
- ٨٣- المصدر نفسه والجزء والصفحة.
- ٨٤- البلاذري، ص ١٨٩ وما بعدها.
- ٨٥- انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٨١.
- ٨٦- البلاذري، ص ١٩٤.

الفصل الثاني

خلافة عمر بن الخطاب

المبحث الأول: فتوح العراق وفارس والجزيرة الفراتية

المبحث الثاني: فتوح الشام ومصر وبرقة

المبحث الثالث: التنظيمات الإدارية في البلاد المفتوحة

المبحث الأول

فتوح العراق وفارس والجزيرة الفراتية

مقدمة:

كان على المسلمين أن يبحثوا لهم عن خليفة جيد، ولكن أبا بكر أخذ على عاتقه قبل موته، اختيار خليفة لهم، حتى يجنبهم الفرقة في هذه الظروف العصيبة، فكتب لعمر بن الخطاب عهداً بالخلافة لقي قبولاً من جميع المسلمين.

مارس عمر بن الخطاب ﷺ حقه في الخلافة بناء على اختيار أبي بكر ﷺ لذلك تسمى في أول الأمر: "خليفة رسول الله - كما أشرنا سابقاً أو حتى خليفة أبي بكر. ولكن ثبت بالتجربة تعقيد المخاطبة بهذا اللقب، فتسمى عمر بالخليفة فقط كما انه أضاف إلى هذا اللقب لقباً جديداً متمشياً ومناسباً لمرحلة الفتوح، وهو لقب "أمير المؤمنين" سرية أو جيشاً، والمؤمن هو المسلم الذي دخل الإسلام بعد ارتدادها وخرجت للجهاد، فكان عمر أول من تسمى به، وتوارثه الخلفاء من بعده، لا يشاركون فيه أحد.

وفي الواقع إن مؤرخي العرب يبرزون شخصية عمر بن الخطاب كأعظم ما تكون في جزيرة العرب وقتئذ لحماية الشديدين للإسلام، ولموقفه الحاسم

يوم السقيفة، ولأنه أيضاً أبو حفصة زوج النبي، قطعاً لا ريب فيه أنه أشهر خلفاء المسلمين، فعصر عمر يعد العصر الذهبي للإسلام، ولم يحدث أبداً في تاريخ الإسلام أن عصرين كمل ثانيهما أولها، كما حدث في عصري أبي بكر وعمر ويتجلى ذلك من خلال سير الأحداث وتواصلها بين الخلافتين.

معارك جبهة العراق:

الموقف الحربي في العراق بعد رحيل خالد:

انتهى دور خالد بن الوليد في العراق عندما جاء كتاب أبي بكر الصديق ﷺ يأمره فيه أن يستخلف غيره على العراق، وأن يمضي إلى الشام لينجد المسلمين بعد الذي تجمع لهم من الروم فمضى خالد من العراق إلى الشام - كما ذكرنا - واستخلف على العراق المثنى بن حارثة الشيباني الجندي المغامر الذي يدين له تحرير العراق بالكثير من الجرأة والقوة والاندفاع.

بقي من جيش تحرير العراق حوالي " تسعة آلاف " وقيل " ثمانية آلاف مقاتل بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني وكان معظمه معسكراً في الحيرة ما عدا بعض المفارز المثبثة على طول شواطئ الفرات من جهة الشمال والجنوب وبالقرب من المناطق التي تمر تحريرها من قبل الجيش العربي كالأبله والولجة وعين التمر والانبار.

لم يكن موقف الجيش العربي حسناً فما عدا قلة عدده الذي لا يتناسب وخطورة الواجب الملقى على عاتقه نجد أن الفرس، وقد استقر على ملكهم أحد أحفاد الأسرة الساسانية يدعى (شهر يار) تمكنوا من إعداد جيش يضم عشرة آلاف مقاتل بقيادة "هرمز جاذويه" ولما علموا بسفر خالد بن الوليد إلى الشام أرسلوه نحو الحيرة على أمل استرجاعها من العرب فكان على المثنى أن يقاتل هذا الجيش فجمع المفارز المثبثة على الفرات وتقدم بقواته إلى بابل التي اختارها ميداناً للمعركة المنتظرة وحسناً فعل المثنى بانتخابه هذا الموضع لقتال الفرس.

التقى الجيشان ببابل في أوائل شهر ربيع الثاني ١٣هـ ودارت المعركة بين الفريقين مدة من الزمن انتهت بانكسار الجيش الفارسي وتراجعت فلوله المنهزمة إلى المدائن والجيش العربي يتعقبها وينكل بها^١.

لقد بدأت المرحلة الثانية من تحرير العراق مع خلافة عمر بن الخطاب، ولن يعود خالد إلى العراق مرة ثانية، فقد أثر الخليفة الثاني أن يعفيه من القيادة ولن يقصر الخليفة الجديد جهداً على الشام فقد حققت الجيوش الإسلامية في الشام ظفراً طيباً مكن لها منها وكان لابد لهذه الفتوحات التي بدأت في العراق أن تستكمل غاياتها وتتابع طريقها ولذلك وجد عمر أنه مدفوع إلى العراق ملفوت إليه، على مثل ما وجد أبو بكر من قبل أنه مدفوع إلى الشام ملفوت نحوه، فبدأ عمر يندب الناس بالتوجه إلى العراق.

لقد بدأت المرحلة الثانية إذن، بخليفة جديد هو عم، وبإمداد جديد، هو إمداد أبي عبيد الثقفي، الذي كان أول من لبى نداء عمر، وذكر البلاذري: "لما استخلف عمر بن الخطاب ﷺ وجه أبا عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وهو أبو المختار بن أبي عبيد، إلى العراق في ألف، وكتب إلى المثنى بن حارثة يأمره بتلقيه، والسمع والطاعة له، وبعث مع أبي عبيد، سليط بن قيس بن عمرو الأنصاري، وقال له: لولا عجلة فيك لوليتك، ولكن الحرب زبون (أي شديدة تدفع بعضها بعضاً) لا يصلح لها إلا الرجل المكيث (المتأنى)، فأقبل أبو عبيد لا يمر بقوم من العرب إلا رغبهم في الجهاد والغنيمة، فصحبه خلق، فلما صار بالعذيب، بلغه أن جابان الأعجمي بتستر في جمع كثير، فلقبه فهزم جمعه وأسر منهم، ثم أتى درني وبها جمع للعجم، فهزمهم إلى كسكر، وسار إلى الجالينوس، وهو بباروسما، فصالحه أبن الاندزعر عن كل رأس على أربعة دراهم، على أن ينصرف ووجه أبو عبيد المثنى إلى زندورد، فوجدهم قد نقضوا فحاربهم فظفر وسبى ووجه عروة بن زيد الخيل الطائي إلى الزوابي فصالح دهقانها على مثل صلح (باروسما)^٢.

أهم المعارك قبل القادسية:

معركة النمارق:

سار أبو عبيد الثقفي وسعد بن عبيدة وسليط بن قيس الأنصاريان ومن معهم والمثنى بن حارثة وأمره عمر بالتقدم إلى أن يقوم عليه أصحابه وأمرهم

باستتفار من حسن إسلامه من أهل الردة ففعلوا ذلك وسار المثنى فقدم الحيرة وكان الفرس قد انشغلوا عن المسلمين بما وقع بينهم، ثم ملكوا عليهم بوران بنت كسرى بشرط أن تملك رستم بن الفرخزاء عشر سنين ثم يكون الملك في أول كسرى إن وجدوا ممن غلمانهم وإلا ففي نسائهم فدعت بوران مرأزبه فارس وأمرتهم أن يسمعوا لرستم ويطيعوا توجته فدانت له فارس قبل قدوم أبي عبيد ثم قدم المثنى إلى الحيرة وقدم بعده أبو عبيدة بشهر فكتب رستم إلى الدهاقين أن يؤثروا بالمسلمين وبعث في كل رستاف رجلاً يؤثر بأهله وبعث جنداً لمصادمة المثنى وبلغ المثنى الخبر فعجل وخرج من الحيرة ونزل خفان، ونزل جيش الفرس النمارق فسار إليه أبو عبيدة واقتتلوا بالنمارق قتالاً شديداً فهزم الله أهل فارس وأسر رئيس جيشهم واسمه جابان. ولحق المهزومون كسكسر وبها نرسي ابن خالة الملك فسار إليهم أبو عبيد واقتتلوا قتالاً شديداً ثم أنهزم الفرس وهرب نرسي وغلب السلمون على عسكره وأرضه وجمعوا الغنائم، ولما بلغ بوران ورستم هزيمة جابان بعث الجالينوس بجيش فنزل بياقيشاتا فسار إليه أبو عبيد فهزمه وهرب الجالينوس وغلب أبو عبيد على تلك البلاد، ثم ارتحل حتى قدم الحيرة وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لأبي عبيد إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجريمة تقدم على قوم تجرؤوا على الشر فعلموا وتتأسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون وأحذر لسانك ولا تفشين سرك فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرره وإذا ضيعه كان بمضيعة

فكان أبو عبيد شديد الحذر والتحفظ حسن التدبير محافظ على ما أوصاه به عمر

ﷺ^٣

معركة الجسر الخاسرة (شعبان سنة ١٢هـ):

ويقال لها وقعة القرقس أو "قس الناطق" أو "المروحة" حيث عسكر
الفرس على الضفة الشرقية لنهر الفرات تجاه الحيرة بقيادة يهمن جاذوية، فلما
قدم أبو عبيد اتخذت قوات المسلمين أماكنها على الضفة الغربية المقابلة، وعرض
بهمن على أبي عبيد أن يختار بين أن يعبر الفرس إليه أو يعبر هو إليهم. فاختار
أبو عبيد العبور إلى الضفة الشرقية ورد على من حذره مغبة ذلك بقوله (لا
يكونوا أجراً على الموت منا) وقد وضع أبو عبيد للعبور جسراً من الزوارق مر
عليه جند المسلمين^(٤).

كان جيش الفرس يضم عدداً من الفيلة، ولذلك كانوا كلما حملوا على
المسلمين فرت خيولهم ذعراً من الفيلة، فاضطرب نظام المسلمين وقتل عدد كبير
منهم وعلى رأسهم أبو عبيد، فحاولوا التقهقر إلى الضفة الغربية للفرات، لكنهم
فوجئوا بانقطاع الجسر على يد أحد أقرباء أبي عبيد، اعتقاداً منه أن ذلك أدعى
للاستبسال لكن قطع الجسر أدى إلى زيادة الاضطراب بين المسلمين، لأنهم لم
يكونوا على بينة من أمره بل فوجئوا به. وكان من الممكن أن يباد جيش
المسلمين بأكمله في ذلك اليوم، لولا ما أبداه بعض أبطالهم من ضروب البسالة،
حيث تمكنوا من إعادة الجسر في ظروف بالغة الصعوبة، ووقف المثنى يحرس

الانسحاب ويحميه حتى ينقذ ما يمكن إنقاذه وقد استشهد قائد جيش المسلمين أبو عبيد بعد أن اثبت شجاعة شخصية وقلة خبره في شؤون الحرب. كما جرح المثني جروحاً بليغة^(٥). وقدرت خسائر العرب بستة آلاف منهم أربعة آلاف قتلوا في ميدان المعركة مع نخبة ممتازة من القادة بينما غرق الألفان في النهر في أثناء الانسحاب. أما خسائر العجم فقد قدرت أيضاً بستة آلاف قتل وجريح^(٦) ونعتقد أن في هذا التخمين بعض المبالغة.

وقد لجأ إلى الصحراء أكثر من ألفين من المسلمين الفارين من المعركة، وكاد يقتلهم الجوع والعطش لا يريدون العودة إلى المدينة حياء وخجلاً من عار الهزيمة، وقد بذل الخليفة عمر جهوداً كبيرة لاستعادتهم.

موقعة البويب (رمضان سنة ١٣هـ):

لما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشهد أبي عبيد في معركة بالجر، ندب الناس إلى المثني وكان ممن ندب قبيلة بجيلة ورئيسها جرير بن عبد الله البجلي فاجتمع كثير منهم فأمرهم عمر بالتوجه إلى العراق فأبوا إلا الشام، فعزم عليهم عمر التوجه إلى العراق وينقلهم ربع الخمس فأجابوا وسيرهم إلى المثني، وكتب إلى أهل الردة، وكل ما جاء أحد بعث به إلى المثني، وبعث المثني الرسل فيمن يليه من العرب فتوافد عليه في جمع عظيم وجاءه أنس بن هلال النمري في جمع عظيم من النمر النصاري، وقالوا نقاتل مع قومنا وبلغ الخبر قادة الفرس فاجتمعوا من وراء الفرات واجتمع المسلمون بالبويب، وكان على جيش الفرس

مهران مهروية فأرسل إلى المثنى يقول: إما أن تعبر إلينا وإما أن يعبر إليك، فقال المثنى: اعبروا فعبر مهران فنزل على شاطئ الفرات، وهياً المثنى أصحابه وكان في رمضان فأمرهم بالإفطار ليقوموا على عدوهم فأفطروا: وأقبل الفرس في ثلاث صفوف مع كل صف فيل ولهم زجل فقال المثنى لأصحابه أمن الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت ودنوا من المسلمين فطاف المثنى في صفوفهم يحرضهم، وقال إني مكبراً ثلاثاً فتهيؤوا ثم احملا في الرابعة فلما كبروا أول تكبيرة اعجلتهم فارس وخالطوهم فلما طال القتال واشتد قال المثنى لأنس بن هلال النمري إنك أمرؤ عربي وإن لم تكن على ديننا فإذا حملت على مهران فاحمل معي فأجابه، فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل في ميمنته ثم خالطوهم واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنبتان تقتتل ولا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم، لا المسلمون ولا المشركون، وأفنى المثنى قلب المشركين فلما رأوه قد أزال القلب وثبت مجنبتا المسلمين على مجنبتي المشركين وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم حتى هزموا الفرس، وسبقهم المثنى إلى الجسر وأخذ طريق الأعاجم فاقترفوا مصعدين ومنحدرين، وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثثاً وبقيت عظام القتلى دهنراً طويلاً وكانوا يحزرون القتل مائة ألف وسمي ذلك اليوم يوم الأعشار أحصى إلى الليل ومن الغد إلى الليل وغنم المسلمون غنائم كثيرة وأعطى بجيلة ربع الخمس كما شرط لهم عمر رضي الله عنه (٧).

موقعة الخنافس وسوق بغداد:

لقد استقام الأمر للمسلمين بعد البويب، واستقاد لهم السواد وأخذ المثنى يخره هنا وهناك، وفرق القواد واذكى المسالح وأغار على تجمعات الفرس في مكان فيه.

وكان من هذه الغارات غارته على الخنافس وهو سوق يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسواد قضاة وربيعة يخفرونهم، فركب المثنى وغار على الخنافس يوم سوقها فانتهب السوق وما فيها وسلب الخفراء ثم رجع إلى الانبار فتحصن أهلها منه فلما عرفوه نزلوا إليه وأتوه بالأعلاف والزاد وأخذ منهم الأدلاء على سوق بغداد وهو موضع المدينة التي اختطها المنصور فيما بعد وصحبهم في أسواقهم فوضع السيف فيهم وأخذ ما شاء، ثم رجع إلى الانبار وشن الغارات بخيول أصحابه على الأطراف وبعث خيلاً على أحياء تغلب بصفين، فاغاروا عليهم من تغلب والنمر بشاطئ دجلة ففروا وأدركوهم بتكريت فأصابوا ما شاءوا من النعم.

وقد كان المثنى هو سيد هذه الغارات كلها بعد البويب، وكان على مقدمته حذيفة بن محض وعلى مجنبيه النعمان بن عوف بن النعمان ومطر الشيبانيان ولا يطول أمر هذه الغارات فقد أدرك الفرس أي نذر مينة تهدد دولتهم الواسعة فبدأوا يعدون للمعركة الجديدة: معركة القادسية، إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ^(٨).

القادسية : المعركة المصيرية:

بلاد فارس هي تلك الهضبة، أو منطقة الأستبس من الأراضي الصلبة والصحاري والجبال، التي تمتد في الجنوب إلى ساحل بحر الهند، وفي الغرب إلى الخليج العربي وسلسلة جبال زاغروس، وفي الشرق إلى السند، وفي الشمال إلى بحر قزوين ونهر جيحون.

ومنذ قديم الزمان كانت هذه المنطقة مقاماً لهجرات متعددة من أجناس البحر الأبيض، إلا أنها ما لبثت أن أصبحت مستودعاً للجنس الآري، الذي ظهر على الخصوص في المنطقة الشمالية الغربية من الهضبة أو ما يعرف بميديا mydia ، وهي التي سماها العرب : إقليم الجبال" ^(٩) لكثرة جبالها. ويبدو أن الآريين - وبهم سميت إيران - كانوا يسكنون أول الأمر هذه البلاد مع الهندوس الذين غادروها إلى الهند، بدليل تقارب اللغتين (الزند الإيرانية والسنسكريتية الهندية).

ومن الهجرات التي وفدت على هذه الهضبة، هجرة الفرس، وهم من الآريين أيضاً والتي امتدت إلى جبال زاغروس إلى الشرق من نهر دجلة فعرفت بهم المنطقة التي سميت "فارس" وإن اندمجوا مع العناصر السابقة في أنحاء إيران، وكونوا الشعب الذي سماه العرب: "العجم" كما ظهرت لهم اللغة التي عرفت بـ " الفهلوية" ^(١٠).

ونتيجة لتعدد الهجرات وتنوع السكان فيها، حدثت اضطرابات في بلاد فارس، الأمر الذي دفع ملوك العراق القدامى من البابليين والآشوريين، إلى التوسع في تلك البلاد وإخضاعها وإعادة النظام إليها، إلا أن الفرس استطاعوا أن يوحدوا بلادهم بقيادة كورش الأكبر (٥٥٨-٥٢٩ ق.م) الذي أسس في فارس الدولة الأخمينية، وتمكن كورش الأخميني هذا من القضاء على آخر حضارة عراقية ناضجة في بابل سنة ٥٣٩ ق.م وكان جده المسمى أيضاً كورش قد استولى على نينوى عاصمة آشور سنة ٦١٤ ق.م.

تمكن الإسكندر المقدوني من القضاء على الدولة الاخمينية سنة ٣٣١ ق.م، فتفرقت بلاد فارس إلى دويلات صغيرة يحكم كل منها ملك واستمرت على هذه الحال إلى أن ظهر الاشكانيون في منطقة "بارث" ^(١١) وهي خراسان الحالية فأقاموا لهم دولة خضعت لها هذه الممالك سنة ٢٤٧ ق.م، فتلقب ملوكهم بلقب "شاهنشاه" [أي ملك الملوك] وهم الذين يسميهم العرب "ملوك الطوائف"، إلا أن هذه الدولة الممزقة توحدت من جديد على يد أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الساسانية سنة ٢٢٦م، بقيادة أردشير، وهذه الدولة هي التي حاربها العرب وأسقطوها مطلع القرن السابع الميلادي، بعد أن حكمت ما يقرب من أربعة قرون، وخضعت لها شعوب كثيرة في الشرق، وجعلت عاصمة ملكها على أرض العراق، في المدائن (طيسفون) كما أشرنا سابقاً.

أولاً: تحشيد الجيش العربي في القادسية

كانت بداية تحشيد الجيش العربي بإعلان النفير في الجزيرة العربية بقول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمته الماثورة "والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب" وهو يتلو رسالة المثنى على رجاله ومستشاريه وقد أخذ منه الغضب مأخذه وعزم على أمر لم تسمع به العرب قبل الآن.

لقد أعلن النفير العام في الجزيرة ولم يدع ذا رأي وشرف وبسطة، لا خطيباً ولا شاعراً إلا وجنده وعمم عند ذهابه إلى الحج الرسالة التالية: "على العرب أن لا يدعوا من له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي إلا وجهوه إليه إذا كان أقرب إلى المدينة منه إلى العراق، أما من كان أقرب إلى العراق فليرسل إلى المثنى".

وكتب إلى المثنى يأمره بأن لا يدع في ربيعة ومضر وحلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه وإلا حشدتموه، أحملوا العرب على الجد إذا جد العجم، فتلقوا جدهم بجدم.

فكان لإعلان النفير في الجزيرة العربية صداه وتأثيره في أبنائها فجاءت إمدادات العرب إلى عمر من كل وجه فعزم على قيادة نخبة الجزيرة بنفسه تنفيذاً لقوله المأثور: "والله لأضربن ملوك العظم بملوك العرب" واستخلف على العاصمة العربية علي بن أبي طالب، وفي أول يوم من محرم سنة ١٤ هـ خرج من المدينة العاصمة إلى مكان يدعى (صرار) على بعد خمسة كيلومترات من

المدينة في طريق العراق إلا أن رجالات العرب وقد عقدوا مؤتمرا خطير الشأن في "صرار" لم يوافقوه على قيادة الجيش بنفسه وطلبوا أن ينتخب غيره لهذا العمل، بينما كانوا يتذكرون فيمن يتولى قيادة حرب العراق أتاه كتاب من سعد بن أبي وقاص وكان حينئذ في هوازن يقول فيه: "وقد انتخبت لك ألف فارس كلهم ذو نجدة ورأي وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم، إليهم انتهت أحسابهم رأيهم فشأنك بهم" (١٢).

فلما قرأ لهم الكتاب قالوا له: "وجدته يا أمير المؤمنين" قال: "من هو؟" قالوا: "الأسد في برائه - سعد بن أبي وقاص".

فوافقهم على ما أرادوا وكتب له يستعجله بالقدوم ليوكل إليه أمر حرب العراق، وأوصاه وصية كريمة جاء فيها: "يا سعد إنني قد وليتك حرب العراق، فاحفظ وصيتي، فإنك تقدم على أمر شديد كربه، لا يخلص منه إلا الحق، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به، ولا يغرنك من الله إن قيل: خال رسول الله ﷺ وصاحبه، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين" (١٣).

وفي هذه المرحلة تسلم الصحابي سعد بن أبي وقاص قيادة حرب العراق ووضع عمر تحت تصرفه أربعة آلاف مقاتل في صرار "إحدى ضواحي المدينة" وأصدر الخليفة عمر إليه الأوامر التالية: أن يسلك في تقدمه الطريق الذي يوصل المدينة بزرود وشراف والقادسية (طريق زبيدة المشهور) وأن يكون هدفه الأول الوصول إلى (زرود) حيث يطلب من القبائل العربية من بني تميم وأسد والرباب التطوع في جيشه وبعد أن يلبوا نداءه يستمر على تقدمه إلى "شراف" حيث يستطيع أن يكمل تحشده فيها ويخبره عندئذ بموقفه ليرسل إليه وصايا جديدة^(١٤).

بعد ذلك وقف الخليفة عمر يودع فرسان الجزيرة قائلاً لهم: إن الشرف فيكم يا معشر النخع المتربع، سيروا مع سعد، فسار القوم إلى العراق متوجهين نحو (زرود) وكان الموسم موسم شتاء، فوصلوا إليها وتفرقوا في مياهها قام قائدهم سعد بدعوة القبائل العربية من بني أسد وتميم والرباب للقطوع في جيش الفتح فلبى طلبه سبعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من بني أسد ومثلهم من بني تميم والآخر من بني رباب^(١٥).

وقبل أن يترك سعد (زرود) أرسل كتيبة من الخيالة مؤلفة من ٥٠٠ فارس بقيادة المغيرة بن شعبة إلى الأبله (البصرة) ليستمر تحشده في شراف والقادسية ويأمن الخطر من جناحه الأيمن ثم تقدم بجيشه الذي بلغ ١٢٠٠٠ مقاتل إلى شراف، وفور وصوله إليها قام بدعوة القبائل العراقية العربية للتطوع في جيش الفتح كما قام بتنظيم جيشه وفقاً للأوامر الصادرة إليه في هذا الشأن من الخليفة، فألف من كل عشرة جنود حظيرة وعين عليها عريفاً ثم ألف من

الحظائر سرايا، ومن السرايا كتائب وعين لكل وحدة قائداً كما عيّن على القادة أمراء من الذين اشتهروا بأصالة الرأي في الحروب^(١٦).

وبعد أن أتم استعداداه للتقدم كتب إلى عمر في موقفه وموقف جيشه ذاكراً تفاصيل خطوطه الدفاعية الأمامية، تلك المراكز العسكرية التي أسسها المثنى ما بين غضى القادسية وطالباً الخليفة أن يصدر إليه الأوامر بالتقدم، وفي خلال هذه الفترة قدم إلى شراف المعني بن حارثة والزعماء العراقيين الآخرون من قادة جيش الفتح الأول ناعين إلى سعد بن أبي وقاص وفاة المثنى بن حارثة ومبلغيه وصيته له واستعدادهم للخدمة بزعامته^(١٧)، وأن آخر ما قام به هذا القائد العربي وصيته لسعد بن أبي وقاص التي أودع فيها رأيه في خطة المعارك والتي تتضمن ما يلي: "إذا قدم سعد فيلقا على حدود أرض العجم على أدنى حجر من أرض العرب ولا يقاتلهم في عقر دارهم، فإن ظهر الله المسلمين ونصرهم فلمهم ما ورائهم وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة، ثم يكون أعلم بسبيلهم وإجراء على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم".

بعد تجمعهم في "شراف" واستعدادهم إلى التوجه إلى القادسية جاءت أوامر الخليفة إلى قائد جيش العراق بالرسائل التالية^(١٨): "أما بعد، فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله، وأعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع، وإذا لقيتم القوم أو أحدا منهم فأبذوهم الشد والضرب وإياكم

والمناظرة بجموعهم ولا يخذعنكم فإنهم خدعة مكررة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم، وإذا انتهت إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يردونه من تلك الأصول، وهو منزل رغب خصيب حصين، دونه قناصر وأنهار مقتعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات المدر والجراع بينهما، ثم إلزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنفضهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم، فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تتصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويردكم الكرة"، ثم طلب منه مع كاتب ثالث: "... في يوم ... ترحل فيه شراف إلى القادسية فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس... والحذر الحذر على ما أنت عليه" وبعد أن قام سعد بتقسيم جيشه إلى وحدات معينة بالنسبة إلى الصنوف التي يتألف منها اصدر أمر المسير على الوجه التالي:

المقدمة بقيادة : زهير بن عبد الله.

اليمينه بقيادة: عبد الله بن المعتم.

الميسرة بقيادة: الشاب شرحبيل بن الصمت.

المجردة بقيادة: سلمان الباهلي.

الركاب (الرتل الراكب) بقيادة: عبد الله بن ذي السهمين:

وطلب من أمر المقدمة أن يكون هدفه الأول احتلال العذيب أو (عذيب الهجانات) وينتظر فيها إلى حين وصول الكوكب (القسم الأكبر) إليها، أما هدفه الثاني فيكون سهل القادسية وقد تم احتلال الهدف الأول الذي لم يلقوا فيه مقاومة سوى بعض المترصدين من جواسيس الأعداء الذين طاردتهم خيالة المقدمة واستطاعت اللحاق بهم قرب القادسية.

وفي المسير إلى الهدف الثاني أرسل أمر المقدمة مفرزات استطلاع في نواحي شتى منها رغيل مؤلف من ثلاثين فارساً بقيادة (بكير بن عبد الله) ليستطلع له أخبار العدو بأطراف الحيرة.

ولما وصل جيش سعد بن أبي وقاص إلى "العذيب" ترك الخط الثاني المؤلف من النساء وعيال الجنود فيها وأفرز حامية كبيرة لحمايتهم واستمر على تقدمه إلى أن وصل إلى سهل القادسية فعسكر في "قديس" بينما طلب من مقدمته احتلال قنطرة نهر العتيق والتعسكر حيالها، وقد شنت مفرزات كثيرة غارات (ما عدا الحصول على المعلومات واختبار الأرض والتوغل فيها) غنموا أموالاً طائلة جعلتهم في بحبوحة من العيش^(١٩).

ثانياً: تحشد الجيش الفارسي ومسيره إلى القادسية

لقد بذل رستم الجهد لجمع أعظم جيش تستطيع فارس جمعه لقتال العرب، وذلك ليس على حدود العراق فحسب بل في الجزيرة ذاتها وقد اتخذت

القيادة الفارسية العامة مدينة ساباط "الصويرة" مركزاً لها ولجيشها وقد تم في خلال الأشهر الثلاثة الأولى لعام ٦٣٥م أوائل ١٤هـ "تحشيد جيش يتراوح عدده بين ١٠٠ و ١٢٠ ألف جند من صنف المشاة والخيالة والفيلة.

وفي أثناء هذا التجمع وردت الأخبار من حدود الفرات الغربية تنبئ بازدياد نشاط العرب في غاراتهم، وقد جاء في إحدى رسائل حكام المقاطعات الفارسية إلى الملك ما يلي في هذا الصدد: "إن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه الحرب، وإن فعل العرب منذ نزلوها لا يبقى على شيء، وقد أخرجوا ما بينهم وبين الفرات وليس فيما هنالك إلا الحصون، وقد ذهبت الدواب وكل شيء لم تحتلمه الحصون من الأطعمة ولم يبق إلا أن يستنزلونا وإن أبطؤوا عن الغياب أعطيناهم بأيدينا".

فطلب الملك من رستم أن يتولى قيادة الجيش بنفسه ليضرب العدو ضربة قاضية في القادسية ويسير بعد ذلك لاحتلال الجزيرة العربية ليشغل أهلها بالدفاع عنها.

إلا أن لرستم رأياً غير رأي الملك، إذ لا يريد أن يشتبك الفرس بالعرب بمعركة فاصلة إلا بعد إنهك قواهم بحركات الإزعاج واستدراجهم لقتال رجعي إلى داخل البلاد وأن يرسل غيره من القادة في هذه المهمة حتى إذا آن الأوان ضربهم رجل فارس بقوته الاحتياطية المدخرة لهذه الغاية ضربته الكبرى.

وفي هذه الأثناء طلب الخليفة عمر من قائده في العراق سعد بن أبي وقاص بعد أن علم منه خبر استعداد الفرس وتأليف جيش كبير لقتال العرب-

أن يرسل وفداً إلى عاصمتهم، وقد جاء في كتاب الخليفة إلى سعد يوضح فيه الغرض من إرسال هذا الوفد إذ يقول: "لا يكرينك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به، واستعن بالله واتكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل النظرة والرأي يدعونه، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وقلجاً عليهم، واكتب إليّ في كل يوم".

فتألف الوفد من عدد كبير من رجالات الجيش البارزين كالنعمان بن مقرن وحنظلة بن الربيع وعمرو بن معدي كرب والمغيرة بن شعبة والمغيرة الأسدي وعاصم بن عمرو.

سار الوفد إلى المدائن توأً على الخيول كلها صهال وعليهم المقطعات والبرد وفي أيديهم سياط دقاق، ولما علم الملك بقدومهم جمع رجالاته في البلاط وطلب حضور الوفد وقد افتتح الملك الحديث كما يلي: ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوج ببلادنا؟ أمن أجل أنا جمعناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فأجابه رئيس الوفد النعمان بن مقرن يشرح له رسالة محمد وما جاء به لخير الناس إلى أن قال: "... ثم أمرنا أن نبداً بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه، الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أبيتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم! وإن تقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم. فأجابه الملك: إن لا علم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين

منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونناكم، لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجودكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم^(٢٠).

فأجابه المغيرة الأسدي:

أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف وأن يكرم الأشراف الأشراف ... وليس كل ما أرسلوه جمعه لك ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ... فأما ما ذكرت من سوء الحال فما هي ظهر الأرض ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وشعار الغنم، ديننا يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على بعض، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً ... وقال لنا من تابعكم على هذا (يشير إلى القرآن) فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فأعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم ... فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتتجي نفسك.

فرد عليك الملك:

لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي! ثم التفت إلى حاشيته قسائلاً أتوني بوقر من تراب واحملوه على أشرف هؤلاء: ثم سرقوه حتى يخرج من باب المدائن، ثم وجه كلامه إلى الوفد العربي: "ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه

أنني مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكل به وبكم من بعد، ثم أوردته حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور".

وبعد أن حمل التراب عاصم بن عمرو خرجوا إلى خيلهم فركبوها والتراب معهم إلى أن وصلوا إلى مقر جيشهم يبشرون إخوانهم بالفأل الحسن من أرض العراق ستكون لهم إن شاء الله!.

لم يكتم الملك يزيدجرد إعجابه بالوفد العربي فقال لرستم الذي أتاه يستفسر منه عما جرى في المفاوضات (ما كنت أرى أن في العرب مثل رجال رأيتم دخلوا عليّ، وما أنتم بأقل منهم ولا أحسن جواباً منهم، لقد حدقني القوم، لقد وعد القوم أمراً ليدركنه أو ليموتن عليه)^(٢١).

ولما علم رستم بما فعله الملك تشاءم وأرسل في طلب الوفد العربي ليأخذوا منهم التراب قبل أن يخرجوا من أرض العراق، فلم يستطيعوا اللحاق بهم.

وبعد مرور شهرين من تجمع رستم في ساباط قرر بتأثير ضغط الملك وإلحاحه أن يتقدم لقتال العرب وهو مكره، وكانت خطته تقضي بإرسال مقدمة سوقية كبرى تتألف من ٤٠٠٠٠ مقاتل بقيادة الجالينوس وطلب من هذا القائد أن يتقدم عن طريق ساباط - كوثي - النجف القادسية وحذره من الدخول في معركة حاسمة مع العرب، بل عليه كما قال رستم "أن يزحف زحفاً وأن لا ينجذب إلى المعركة إلا بأمر منه".

وحاول رستم أن يقنع الملك لآخر مرة ببقائه مع جيشه في المدائن وينتظر ما يقوم به الجالينوس الذي له شهرة وساعة لا تقل عن شهرته، فأبى الملك عليه ذلك وطلب الدخول بمعركة حاسمة سريعة لتقرير المصير، فلم ير بداً من أن يتقدم ببقية جيشه البالغ عدده ٦٠٠٠٠ مقاتل و٣٥ فيلاً ووجهته كوثي - بابل - بوبيا (إبراهيم الخليل) - الحيرة، وقد ترك مؤخرة لجيشه تقدر بـ ٢٠٠٠٠ مقاتل بقيادة الفيرزان.

كان تقدم جيش رستم بطيئاً جداً فقد بقي في طريقه الذي لم يكن يتجاوز مائة وسبعين كيلومتراً نحو من شهرين قبل وصوله لساحة المعركة ونراه في خلال هذه المدة تنتابه الهواجس من كل جانب، فقد كتب إلى أخيه في مارس يطلب إليه أن يستعد مع الزعماء الآخرين للدفاع عن بلادهم إذ أنه يرى: "أن هؤلاء القوم سيظهرون علينا وسيقولون ما يلينا" ثم يشكو له إجراء الملك على توليته القيادة العامة وهو مكره^(٢٢).

بعدها تقدم جيش رستم حيال العرب وعباً جيشه البالغ ١٢٠ ألفاً إلى شرقي نهر العتيق واضعاً قسماً منه في جناحه الأيمن ومعه ثمانية فيلة وقسماً منه في الجناح الأيسر ومعه سبعة فيلة أما كوكب قوته (قسمها الأكبر) فوضعه في القلب ومع ثمانية عشر فيلاً ونصب رستم مقره الفخم خلف القلب.

بينما اتخذ العرب مراكزهم إلى غربي نهر العتيق ومن خلفهم (الخنديق) - خندق سابور - وكانت المقدمة تحتل القنطرة وهي الجسر المشيد على نهر العتيق وعن يسارها ويمينها قوات الخيالة تحمي أجنحة الجيش العربي الذي

يستند إلى اليمين إلى مياه الفيضان من الجنوب وإلى الصحراء القاحلة من الشمال وفي مركز الجيش إلى الورااء، القصر أو قلعة قديس القديمة (في السهل الذي يسمى الآن الرحبة) وقد اتخذ سعد بن أبي وقاص مقراً لقيادة الجيش وقبل أن نتناول تفاصيل المعركة باختصار المفاوضات التي جرت بين رستم قائد الجيش الفارسي من جهة، والوفود العربية المختلفة من جهة أخرى، تلك المفاوضات التي تبين لنا بوضوح أهداف الأمتين والحالة النفسية لكلا الفريقين وما كاد رستم ينتهي من حشد جيشه في القادسية حتى أرسل إلى قائد مقدمة المسلمين يطلب إليه مفاوضاته فلبى هذا طلبه ففاوضه رستم على شروط الصلح مقنعاً إياه بتحسين شؤون العرب المادية وترفيه حالهم وتسهيل تجارتهم فرد عليه القائد العربي بأن ما تقنعنا به قد فات أوانه، وأن حال العرب قبل الإسلام هو على طرفي نقيض من حالهم الآن، إنهم ما خرجوا من جزيرتهم إلا لتحرير الأمم من العبودية أو على حد تعبيره: "إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ولما سألته رستم هل إذا دان الفرس بدين العرب ترجعون؟ فأجابه: "أي والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة في أو حاجة فصدقه رستم على قوله! وقد تركت المفاوضات الأولى في نفس رستم أثراً بالغاً يدلنا على ذلك المؤتمر الذي عقده بعد مفاوضة رجال جيشه وقد تحداهم إلى وجوب وضع حد لهذه الحرب الشعواء التي لا يعلم أحد نتائجها الخطيرة^(٢٣).

ولقد طلب رستم إجراء مفاوضات أخرى مع العرب وقد لبوا طلبه لأن كلا الفريقين كان يرمي في مفاوضاته إلى ما فيه مصلحته فرستم يتوخى منها تأجيل المعركة الفاصلة لإطالة الوقت على العرب أملاً منه بضجرهم من طول الانتظار وأمل رحيلهم من حيث أتوا بينما كان العرب يتوخون من مفاوضاتهم هذه كسب الوقت بضعة أيام إلى أن تصل إليهم النجيدات التي أرسلها أبو عبيدة ابن الجراح من دار الحركات السورية بعد انتصار العرب على الروم في معركة اليرموك من جهة ولإضعاف الروح المعنوية في رجال الفرس من جهة أخرى ففي المفاوضات الثانية وكان يمثل العرب فيها ربيعي بن عامر نرى رستم سألته: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر (ويقصد به شروط المسلمين) حتى ننظر فيه وتنظروا؟ فأجابه ربيعي: نعم كم أحب إليك؟ أيوماً أم يومين؟ لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا فأجابه ربيعي: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وما عمل به ائمتنا أن لا نمكن الأعداء من أذانا ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث (ثلاثة أيام) فنحن مرتدون عنكم ثلاث فانظر في أمرك وأمرهم وأختر واحداً من ثلاث بعد الأجل (يقصد إما الدخول في الإسلام وإما الجزية وإما القتال)، فأجابه رستم: أسيد أنت: لا ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أديانهم على أعلامهم! وعلى هذه الصورة انتهت المفاوضات الثانية، وقد أرسل رستم على إثرها يطلب إلى سعد أن يرسل إليه رجلاً له عقل ورأي ليفاوضهم، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة وقد انتهت المفاوضات في هذه المرة بغضب رستم الذي قال للمغيرة: "وحق الشمس، لا يرتفع لكم الصبح غدا حتى أقتلكم أجمعين" (٢٤).

ثالثاً: المعركة(*)

بدأت معركة القادسية في منتصف يوم (الاثنين) الأول من شهر محرم سنة ١٥هـ - ٦٣٦م، حيث تم عبور جيش رستم نهر العتيق واتخذ الجيشان موقعهما بين الخندق والعتيق، وقد استعد العرب للقتال منذ الصباح فجمع سعد بن أبي وقاص رؤساء الكتائب وأمراء القبائل في مقره (وكان لا يستطيع الجلوس أو الركوب لظهور الدمامل فيه) فأوضح إليهم خطورة الموقف الذي هم فيه وأنهم اليوم أمام معركة فاصلة في تاريخ العرب والإسلام، وعليها يتوقف مصيرهم فلما أن يقبعوا في جزيرتهم القاحلة وإما أن ينسابوا في الأرض التي وعد الله بها عباده الصالحين، وطلب إليهم أن يشجعوا جنودهم ويحثوهم على القتال حثاً يغلي به دم القلوب وتتوتر له الأعصاب ويوغر الصدور ويهون الموت وطلب إليهم أن يبدؤوا بالزحف الهام بعد صلاة الظهر توأً عندما يسمعون صوت التكبيرة الثالثة.

تقدمت صفوف العرب المتقدمة جميعاً للهجوم وكان الفرس في تعبئة القتال ينتظرون أعداءهم فتلاقت الصفوف واشتبك الفريقان بقتال شديد، وقد مثلت فيلة الفرس في هذا اليوم دوراً خطيراً إذا استطاع أصحابها من توجيهها إلى الخطوط الأمامية فأفزعت خيول العرب التي لم تتعود رؤيتها ونكصت راجعة وكان بنو أسد (أهل الردة السابقون) يقومون بنصيب وافر من تحمل عبء المعركة وقد تلافى سعد بن أبي وقاص الموقف بأن طلب من كتيبة بن تميم

هجوم الفيلة برميها بالنبال وقطع وضنها وقد فعلوا ذلك وردوها على أعقابها عن بني أسد الذين حافظوا على مراكزهم إلى الليل برغم الخسائر التي منيوا بها وكانت ٥٠٠ قتيل^(٢٥).

سمي اليوم الأول يوم أرماث وانتهى في الشطر الأول من الليل وكانت كفة الفرس راجحة كما كانت خسائره أقل من خسائر العرب.

وفي اليوم الثاني من المعركة (يوم أغواث) قامت جماعات نقل القتلى العرب في صباح اليوم التالي باكراً بإخلاء القتلى من الميدان ودفنهم بين وادي العذيب وعين شمس، بينما قام حاملو النقالات بنقل الجرحى إلى العذيب لتقوم النساء بتمريضهم ومداوتهم، وفي الوقت الذي استعد الجيش ليقوم بالقتال طلعت نواصي خيل الإسلام قادمة من الشام وكانت مقدمة جيش النجدة الذي أرسله أبو عبيدة بن الجراح من سوريا وعدده ستة آلاف مقاتل.

وكان على المقدمة البطل المقدم القعقاع بن عمرو الذي مثل في قتال هذا اليوم الدور الأول فيما عدا مناورته التي قام بها ليخدع أعداءه بأنه أتى بجيش عظيم وذلك بأن قسم مقدمته التي كانت ألف فارس إلى أرتال صغيرة بفرجات كبيرة وفي الوقت عينه قوى معنويات جيش العراق التي تأثرت بنتيجة معركة الأمس باشتراكه في القتال فور وصوله إذ قام بجولات موفقة قتل فيها (بهمن - جازوية) القائد الفارسي الذي انتصر في معركة الجسر، وكان قتال اليوم على العموم بجانب العرب، ولا سيما فيما يتعلق بالفيلة التي تكسرت صناديقها في معركة اليوم السابق ولم تشترك في القتال.

ومما يجدر ذكره هو أن العرب حملوا عشرة من الرجال على إبل
ألبسوها الجلال والبراقع وطافت بهم الخيل تحميها في حملتها على خيول الفرس
متشبهين بالفيلة وقد نجحت عملياتهم إذ انهزمت خيول الفرس في القلب فطاردها
الفرسان العرب وهم يفتكون بالمنهزمين إلى أن صدهم المشاة، هذا وقد استمر
قتال ذلك اليوم حتى منتصف الليل وتوقف القتال وكفة العرب هي الراجحة
وبلغت خسائره في هذا اليوم بين قتيل وجريح ٢٠٠٠ بينما خسائر الفرس
١٠٠٠٠ بين قتيل وجريح.

وفي اليوم الثالث من المعركة (يوم غماس) استبشر العرب عندما طلع
عليهم صباح هذا اليوم الكوكب (القسم الأكبر) من قوة النجدة المرسلة إليهم من
الشام واستمروا على القتال الذي توقف عند منتصف الليلة السابقة بنشاط عظيم
حيث دخل المعركة خمسة آلاف جندي جديد إلا أن فعل الفيلة كان شديداً على
العرب كما كان في اليوم الأول من المعركة، وعلى هذا فقد طلب قائد العرب
سعد بن أبي وقاص من الفرسان الذين يعتمد عليهم كالقعقاع وعاصم بن عمر أن
يخلصوا المسلمين من شدة وطأتها بأن يحاولوا فقا عيونهم وقص مشافرها
بالسيوف فقاموا بواجبهم خير قيام إذ اختاروا منها الفيلة المتقدمة التي كانت في
القلب فحملوا على مشافرها بالسيوف فولت هاربة عبر العتيق واتبعها الفيلة
الأخرى وانفسح المجال للمشاركة العرب على التقدم في القلب بينما كانت الخيالة
تحمي أجنحتها، وكان الموقت على هذه الحالة إلى الليل عندما قام القعقاع بكتيبته

بهجوم ليلي شديد على مراكز الفُرس المتضععة وعقبته الكتائب الأخرى فاختلط الجيشان واختل توازن المعركة إلى درجة أن الجيشين لم يريا مثل هذا القتال قط، وانقطعت أخبار القتال عن رستم وسعد والكل ينظر الصبح بفارغ الصبر ليعرفوا نتيجة هذه المعركة الفاصلة في تاريخ الأمتين^(٢٦).

وفي اليوم الرابع للمعركة (يوم القادسية) ومن حسن حظ العرب أن تكون نتائج قتال الليلة الثالثة أو ليلة الهرير بجانبهم كما كان من حسن حظهم أن يكون معهم القعقاع بن عمر الذي قال فيه أبو بكر: "لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا" فقد سيطر القعقاع على الموقف وطلب في صباح اليوم الرابع للمعركة الاستمرار على الهجوم ساعة أخرى فإنها ساعة النصر النهائي.

واستمر زحم الهجوم حتى الظهر إذ بدأت تظهر دلائل خور العزيمة من نفوس الأعداء، وفي تلك اللحظات العصيبة تهب ريح غريبة تقتلع مقر قيادة الفرس وتضعف من مقاومتها في الوقت الذي استطاعت فيه كتائب العرب المركزية من التوغل في قلب العدو المتراجع، وقد أسرع القعقاع ومعه فصيلة من جنوده الشجعان إلى مقر قيادتهم يفتشون عن رستم الذي اختبأ بين حيوانات المقر فسارع (هلال علفة) بضربه بسيفه فأخطأه وألقى رستم نفسه في العتيق ولحق به هلال الذي أخذ برجله وأخرجه من النهر وقتله ثم نادى: "قُتِلْتُ رستم ورب الكعبة".

ولم يكد ينتشر هذا الخبر ويعلم الفُرس بموت قائدهم وأن المسلمين غنموا رايتهم التاريخية "درقش كافيان" حتى تراجعوا والعرب من ورائهم تطاردهم،

ومما يجدر ذكره هو أن الجالينوس أحد قادة الفُرس المشهورين قام ومعه بضع كتائب تحمي الانسحاب عبر العتيق إلا أن معظم جنود هذه الكتائب لقوا حتفهم، وقُتل من الفرس في الليلة الرابعة وفي نهارها ٣٠٠٠٠ مقاتل بينما خسر العرب ٨٥٠٠ بين قَتيل وجريح.

ولما تم انسحاب الفرس إلى شرقي العتيق أمر سعد أمر المقدمات زهرة بأن يطاردهم من الخلف في الوقت الذي أمر القعقاع بأن يطاردهم من جهة اليمين وشرحبيل من جهة اليسار.

ومع أن مؤخرات الفرس كانت تقاوم المطاردة بشدة بتقت مياه الفرات لغمر الأراضي التي اجتازوها فقد استمر العرب على تعقبهم عصر اليوم الرابع مسافة كبيرة أوصلوهم فيها إلى مكان قريب من النجف، وعندها عادوا إلى القادسية ظهر اليوم الخامس، وقد قُتل في أثناء المطاردة (الجالينوس) الذي كان يحمي الانسحاب.

ولم تكن مطاردة العرب في الحقيقة مطاردة جدية لأن المعركة التي دامت أربعة أيام بلياليها أنهكت قواهم إنهاكاً لم يعانون مثله في ماضي حروبهم، ولم تكن لهم الطاقة ليتحملوا أعباء معارك جديدة وتوغل في بلاد يلقون فيها مقاومة مستمرة، إنهم ضحوا بثلاث قوتهم بينما كان الثلثان الآخران في أشد الحاجة إلى الراحة.

ولقد كان مجموع خسائر الفُرس بمعركة القادسية بلغت حوالي ٥٠٠٠٠ مقاتل بينما بلغت خسائر العرب بين قتيل وجريح حوالي ١١٥٠٠ مقاتل وقد خسر الفرس ذخائر وأموال لا تحصى فأغنت كل فرد من أفراد الجيش الذي اشترك في المعركة^(٢٧).

أحداث ما بعد القادسية:

لم يستطع الجيش العربي المنتصر الذي حطم القوة الضاربة لجيش الإمبراطورية الساسانية مطاردة فلول ذلك الجيش مطاردة حقيقة بعد كسبه المعركة.

لقد فقد الجيش العربي ثلث قواته، بينما كان الثلثان الآخران في أمس الحاجة إلى الراحة والاستجمام وإعادة التنظيم بعد معركة دامت أربعة أيام، جرى القتال الأخير فيها أكثر من ثلاثين ساعة متواصلة، فضلاً عن ضرورة إخلاء الجرحى من الميدان، وجمع أسلاب الحرب وتوزيعها على الجنود المنتصرين.

مع كل ذلك فسعد بن أبي وقاص قائد معركة القادسية أمر بعد راحة قصيرة أن تقوم عدة مفارز بتطهير المنطقة الواقعة إلى غربي الفرات من فلول الجيش الفارسي المغلوب وقد نفذت خطته بدقة، وكانت أمام سعد بن أبي وقاص مشكلة هجرة السكان وتركهم أرضهم بسبب الحركات الحربية وخوفهم من تتكبل الجيش الفاتح بهم لانضمامهم إلى جانب الفرس كرهاً عنهم، ولأن الإسلام يأمر بقتل المشركين إن لم يسلموا ولم يدفعوا الجزية، ويأمر بقتل من نقضوا عهودهم

مع العرب في حين أنهم يدعون أن الفُرس أكرهوهم عليه، وهذه كلها أمور تتجاوز صلاحيات قائد الفتح، ولا بد من استشارة الخليفة في الأمر وتلقي أوامر صريحة لحل هذه المشاكل الأساسية وحتى الخليفة عمر لم يتخذ قراراً حاسماً في الموقف قبل أن يستشير قادة الإسلام في المدينة، فكتب إلى سعد كتابين نورد نصهما لما احتواه من آراء جريئة وبعيدة المرمى في إدارة الشعوب وسياساتها، تلك الآراء التي قال فيها الكاتب الاجتماعي الفرنسي غوستاف لوبون كلمته المشهورة: "ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب".

الكتاب الأول:

"أما بعد، فإن الله جل وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين: العدل في السيرة والذكر، فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرضى منه إلا بالكثير، وأما الثاني العدل فلا رخصة فيه لقريب ولا لبعيد ولا في شدة ولا في رخاء، وإن روي إلينا فهو أقوى وأطفاً للجور وأقمع للباطل من الجور وأن روى شديداً فهو أنكش للكفر، فمن تم على عهده من أهل السواد (العراق) ولم يعن عليكم بشيء فله الذمة وعليهم الجزية، وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاؤوا فانبذ إليهم وأبلغهم مأمَنهم".

الكتاب الثاني:

"أما عن من أقام ولم يجل وليس لهم عهداً فلهم ما لا لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة عدوكم، وكذلك الفلاحون إذا ذلك، وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة، وإن كذبوا نبذ إليهم. وأما من أعان وجلا فذلك أمرٌ جعله الله لكم فإن شئتم فادعوهم أن يقيموا لكم من أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية، وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما آفأ الله عليكم منهم^(٢٨).

التقدم نحو شاطئ دجلة الغربي:

وبصدد العمليات الحربية أمر الخليفة سعداً بأن يتقدم لاحتلال المدائن عاصمة الدولة الساسانية على أن يترك النساء والعيال بالعتيق على جانب الفرات الغربي بعد أن يضمن حمايتهم بمفرزة قوية، وكانت فلول الجيش الفارسي قد اجتمعت في بابل وأصر قادة الجيش الباقون على قيد الحياة كالنخیرجان ومهران الرازي والهرمزان وعلى رأسهم الفيرزان أن يقاتلوا العرب فيها بمعركة نهائية يتفرقون بعدها إذا كتب لهم الفشل، كل إلى جهة معينة، وقد وضعوا حماياتهم في كل من اللسان -مدينة الكوفة حالياً- وبرسييا.

سار الجيش العربي وكل أفراد فرسان مسلحون مرفهون، مقدمة سوقية بقيادة زهرة بن الحوية إلى اللسان فلم تلق فيها مقاومة من حمايتها التي انسحبت إلى برسييا دون قتال.

ولما وصل القسم الأكبر إلى اللسان تقدمت المقدمة إلى برسيبا، وبعد قتال طفيف مع حاميتها تلتها وانسحبت الحامية الفارسية إلى بابل، وبقي حاكم المقاطعة الفارسي في برسيبا بعد أن قبل تأدية الجزية، وقدم هذا الحاكم الفارسي مساعدة قيمة للعرب فنصب الجسور لعبور جيشهم صوب بابل، وأعطاهم معلومات ثمينة عن الجيش الفارسي المحتشد في بابل.

أخبر أمر المقدمة سعداً بتفاصيل الأمر وانتظر أوامر قائده، فقرر سعد الاستمرار على التقدم إلى برس ومقاتلة الفرس حتى بابل.

وفي بابل معركة سريعة خاطفة انتهت بنصر مبین للعرب فلا عجب فروح النصر التي كان يقابل بها الجندي العربي لم تتوفر في الجندي الفارسي الذي كان قاداته يفكرون في طرق الهزيمة إلى داخلية البلاد، لا بل وفرّ الهرمزان من ميدان المعركة إلى الأهواز كما فر النخیرجان إلى بهر سير ومنها عبر إلى المدائن.

أما كبير القادة (الفيروزان) فقد فر إلى نهاوند حيث فيها كنوز الملك فاستولى عليها.

تحرير كوثي وساباط:

وتقدم الجيش العربي بعد تحريره مدينة بابل إلى كوثي، فاحتلها بعد قتال طفيف، زار سعد بيت إبراهيم الخليل في المدينة ثم تقدم الجيش إلى ساباط فاحتلها وعقد الصلح مع أهلها توجه بعدها إلى بهر سير (المدينة الدنيا) واسمها

القديم سلوقية، وفي مقوع يسمى (المظلم) الواقع على الطريق بهرسير التقت مقدمة الجيش العربي بكتيبة الحرس الملكي الفارسية وتسمى (كتيبة بوران) وكانت قد اتخذت موضعاً دفاعياً أمامياً لحماية بهرسير فهزمتها بعد قتال عنيف.

حصار بهرسير (المدائن الدنيا) وسقوطها:

لم يكن أمام الجيش العربي غير المدائن فتقدم إليها مسرعاً، وكان الفرس قد أقاموا في المدينة الشرقية المقابلة للمدائن خط دفاع قوي فحصنت على شكل نصف دائرة تستند فيها التحصينات من الشمال والجنوب على نهر دجلة، ويرابط فيها جيش فارسي قوي.

ولم يكن الجيش العربي مستعداً لاختراق هذا النوع من الدفاعات الحصينة فاضطر إلى محاصرة المدينة شهرين كاملين وفرض عليها حصاراً اقتصادياً اضطر فيها المحاصرون على أكل الكلاب والسنائير، واستعان الجيش العربي بأهل البلاد فصنعوا لهم عشرين منجنيقاً وعدداً من العربات والدبابات أخذوا يرمون بها الحصون.

وعرض الملك يزدجرد خلال الحصار الصلح على العرب فاقترح أن يجلو جيشه عن بهرسير (المدائن العليا) وأن تكون البلاد الواقعة غربي دجلة إلى العرب، ويحتفظ الفرس بالبلاد الواقعة شرقي نهر دجلة، وأن يكون النهر حداً فاصلاً بين الدولتين، ورفض سعد بن أبي وقاص هذا العرض فوراً مؤكداً أن ليس هناك من حل سوى الخيار بين ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو الحرب. وكان

واضحاً؟ أن قبول واحد من هذه الشروط لا يحول دون دخول الجيش العربي البلاد.

وكان العرب في خلال الحصار يخضعون القرى والساكنة الواقعة غربي نهر دجلة ويوطدون حكمهم فيها، وقام سلمان الفارسي الذي كان رائد الجيش الإسلامي بدور خطير في تثبيط هم المحاصرين التي كان يبثها من وراء الحصون.

وفي أواخر شهري الحصار قام الجيش الفارسي بمحاولة يائسة للخروج من الحصار فشن هجوماً مقابلاً عنيفاً على العرب المرابطين حول المدينة، إلا أن هجومهم أحبط فعادوا أدراجهم بعد أن تكبدوا خسائر فادحة.

تحرير المدائن:

(صفر سنة ١٦هـ / نيسان "إبريل" سنة ٦٣٨م) وقف آخر ملوك الإمبراطورية الساسانية - الملك الشاب يزديجرد منذ توليه العرش سنة ٦٣٢م موقف المدافع المستميت بوجه الفتح العربي للإبقاء على ملكه في العراق، ويحدثنا التاريخ بأنه كان رجلاً شجاعاً ذا عزيمة قوية، وحاول عبثاً الوقف بمفرده بوجه التحول الجديد، فلقد خانه قادة جيشه المتخاذلون فارين إلى داخل البلاد الفارسية، ولم يجد في شعبه أي حافز للقتال، ولم يقف إلى جانبه حلفاء الأُمس من سكان البلاد الأصليين الذين سخروا لمنفعة حكامهم القساة المستبدين،

ولم يبق لديه غير جيش محترف كثير في عدده وقوي في عدته تنقصه روح القتال.

وإزاء هذه الحقائق قرر إخلاء العاصمة والانسحاب إلى داخل البلاد ليتخذ من المناطق الجبلية الوعرة على حدود العرب وحدود فارس خط الدفاع ليحول دون زحف موجة الفتح العربي، وأرسل فعلاً خزائنه وأسرته إلى حلوان قريباً من قصر شيرين الحالية.

ولما سقطت المدائن الغربية (بهرسير) ترك الملك عاصمته وذهب إلى حلوان بعد أن ترك حامية عسكرية لتعويض العرب ولصدهم إذا حاولوا عبور دجلة.

عبور دجلة:

علم قائد الجيش العربي أن الملك يزدجرد بدأ يخلي العاصمة، وذلك يعني تهريب كل نفائس الإمبراطورية التي حكمت الشرق الأوسط عدة قرون، وكان فيضان دجلة في بدايته، وعلى استمرار في الصعود طيلة شهرين قادمين، ولا سبيل للمدائن وهي هدفه الأخير الذي عينه له الخليفة، سوى عبور النهر سباحة، وكان قراره خطيراً يتطلب موافقة قادة جيشه وجنده عليه، فجمعهم وألقى بهم الخطاب التالي: "إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شأوا فينا وشونكم في سفنهم وليس وراءكم شيء تخافون أن تأتوا منه فقد كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأمنوا ذواتهم، وقد رأيت

من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحركم الدينا إلا أنني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم".

وافقه القادة على رأيه وأقروا خطته القاضية بتأسيس رأس جسر على الضفة الشرقية يقوم بعملياتها عاصم بن عمرو وبكتيبتها الأهوال المؤلفة من ستمائة فارس، على أن تسبقها سرية من الفدائيين عبرت النهر، وتغلبت على فصيلة من الجيش الفارسي حاولت إحباط العبور وتم تأسيس رأس الجسر بجهد ضئيل، وعندها عبرت كتيبة الأهوال النهر بقيادة عاصم بن عمرو وأعقبتها كتيبة الفرسان بقيادة البطل القعقاع بن عمرو، فالقسم الأكبر بقيادة سعد بن أبي وقاص الذي اقترن بسلمان الفارسي يسايره في السباحة!.

وهكذا بوغت المدائن -بعد ثلاثة أيام فقط من سقوط المدائن الغربية- مباغتة لم تكن تنتظرها أن تتم بهذا الشكل وبهذه السرعة، وبانت فكرة مقاومة الفاتحين مستحيلة، فسلمت العاصمة دون قتال ووقف السكان يتطلعون إلى تلك المسرحية العجيبة في التاريخ يتصايحون: جاء الشياطين!.

وسمي ذلك اليوم يوم الماء، وسماه آخرون: يوم الجرثيم! لا يعيا جندي إلا أنشزت له جرثومة يريح عليها(*).

دخول العاصمة:

تم عبور النهر من ضاحية العاصمة الجنوبية العربية، ودخل الجيش الظافر المدائن تتقدمه كتيبة الأهوال وعلى رأسها قائدها الشجاع عاصم بن

عمرو، وأعقبها كتيبة الفرسان وعلى رأسها القعقاع بن عمرو فالقسم الأكبر وعلى رأسه سعد بن أبي وقاص، وسار الجيش بمظاهرة من شوارع العاصمة إلى أن وصل الكوكب (القسم الأكبر) القصر الأبيض - دار الملك^(٢٩).

وعلى باب القصر الأبيض وقف سعد بن أبي وقاص قائد الجيش المنتصر خال رسول الله يقرأ الآية الكريمة: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَاكِينَ ﴿٣﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤﴾﴾^(٣٠). ثم دخل القصر وصلى بجيشه صلاة الفتح وسط التماثيل المتناثرة في باحته، وكانت أول جمعة جمعت بالعراق، وذلك في صفر سنة ست عشر^(٣١).

ولم يتمالك سلمان الفارسي نفسه فقال في حشد من الناس: "نزلت لهم والله البحور كما نزل لهم البر ليخرجن منه أفواجا كما دخلوه أفواجا، فطبقوا الماء حتى ما يرى الماء من الشاطئ، ولهم فيه أكثر حديثاً منهم في البر، ولو كانوا فيه فخرجوا ولم يفقده شيئاً ولم يفرق منهم أحد" وبدأ سعد بتثبيت مركز جيشه في العاصمة فأرسل زهرة وهو قائد المقدمات باتجاه النهروان يؤلف خط ستار لحماية العاصمة، وطلب منه في نفس الوقت أن يرسل مفرزات المطاردة والاستطلاع في النواحي الشمالية والشرقية المحيطة بالعاصمة على أن تكون على اتصال بالقوات الفارسية المرابطة في أطراف النهروان بقيادة مهران.

الفنائم:

لقد كان عدد الجيش العربي الفاتح ستين ألف مقاتل، بما فيهم أولئك الذين بقوا لحماية القاعدة في الفرات، وقد أصاب كل فرد من هذا الجيش اثنا عشر ألف درهم ما عدا الخمس الذي أرسل إلى بيت المال، فيكون مجموع النقود التي وجدت في الخزائن تسعمائة مليون درهم على أقل تقدير.

ولم يكن لهذا المال شأن يذكر إزاء ما غنمه العرب من التحف الفنية والمجوهرات والأواني الذهبية والفضية ومن أسلحة وملابس وديباج مما لا يحصى ولا يقدر بثمن على الإطلاق ولم تشهد مثله العرب في تاريخهم.

وأرسل سعد إلى الخليفة عمر ما عدا الخمس المخصص لبيت المال بعض التحف الفنية العجيبة كبساط الملك الذي أبدع المؤرخون في وصفه، وعجزوا عن تقدير ثمنه، وكذلك أرسل تاج الملك وحليه وسيفه وثيابه وتحفا أخرى عجيبة، ولما رآها الخليفة عمر رضي الله عنه قال: "إن قوماً أدوا هذا لذوا أمانة" فرد عليه علي بن أبي طالب قائلاً: "عفت فعفت الرعية!" (٣٢).

القتال في ثلاث جبهات لتحرير الأراضي العراقية:

موقف الفرس بعد تحرير المدائن:

لم يبق الملك الذي فقد عاصمة ملكه، ولا لقادة الإمبراطورية الذين تشبثوا في داخل بلادهم من أمل بعد هزيمة القادسية سوى سلاح اليأس يقاتلون

به الفاتحين القادمين على غزو بلادهم في. عقر دارهم، وكان يعز على الملك يزجرد الثالث أن يتم انهيار الإمبراطور على يديه فعمل المستحيل لإعادة تنظيم ما تبقى من جيشه، وأخذ يبث في نفوس أبناء قومه روح المقاومة في المناطق الجبلية القريبة من سهل العراق حيث اتخذ من حاضرتها حلوان مقراً له.

وقام قادة الفرس في كل مكان من بلادهم بتجنيد مواطنيهم وإعادة تنظيم جيوشهم للدفاع عن وطنهم بعد أن سروا معركة العراق أو كادوا يخسرونها.

واستطاع الفرس بفترة وجيزة أن يحشدوا ثلاثة جيوش في وسط الجبهة قريباً من العاصمة، وفي أقصى الجنوب إزاء البصرة وفي أقصى شمالي العراق حيث كانوا لا يزالون يسيطرون على منطقة الموصل.

وفي الجبهة الوسطى حيث تدور معركة تقدير المصير استطاع مهران الرازي جمع جيش يربو على مائة ألف جندي حشده في جلولاء على مشارف المنطقة الجبلية لحمرين وقره غان ودرأويشكة.

وفي الجبهة الجنوبية ألف الهرمزان جيشاً قوياً حشده على مشارف شط العرب مقابل البصرة، والهرمزان هو أحد قادة الجيش الذي فرّ من معركة بابل وعاد إلى بلاده الأهواز بوصفه أميراً من أمرائها.

وقام حاكم الموصل الفارسي بتأليف جيش مختلف من الحاميات الفارسية والرومانية ومن القبائل العربية من إياد وتغلب والنمر، وزحف به إلى تكريت لمقاتلة العرب فيها، ليخفف الضغط عن الجبهة الشرقية الوسطى التي تدور فيها

المعارك الحاسمة في الوقت الذي تحصنت فيه الحاميات الفارسية المرابطة على ضفاف القسم الشمالي الغربي لنهر الفرات لصد أي هجوم عربي عليها.

موقف الجيش العربي:

لم يقم الجيش العربي بعد احتلال المدائن بحركات عسكرية جديدة إذ كان لابد من إعادة تنظيم الجيش وإعطائه فرصة الراحة ولابد من تنظيم إدارة العراق الغني، وتشغيل جهازه الزراعي الذي تأثر بالحرب التي دامت أربع سنوات متواصلة.

وكانت القيادة العربية العامة بنفس الوقت مدركة للموقف العسكري وملمة بخطط أعدائها، وقدّرت كذلك أن المعركة الفاصلة بينها وبين الفُرس ستكون في الجبهة الوسطى حيث بدرت بوادر الفعاليات التي كان يبذلها الملك الطريد على الحدود فقررت على ضوء هذا الموقف تصفية الجيوب الضعيفة قبل أن تدخل معركة مصيرية أخرى مع الجيوش الرئيسية للأعداء.

الجبهة الشمالية:

أ. معركة تكريت:

تتفيداً لأوامر الخليفة عمر رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص في المدائن تم تأليف قوة ضاربة من خمسة آلاف مقاتل بقيادة عبد الله بن المعتم وتضم خمسة

آخرين من القادة وهم: ربيعي العنزي ويقود المقدمة، والمحارب بن حسان الذهلي للميمنة، وفرات بن لحيان للمسيرة، وهانئ بن قيس على الساقة (المؤخرة)، وعرفجة ابن هرثمة لقيادة الفرسان.

أمرت القوة أن تسير إلى تكريت بمحاذاة نهر دجلة فقطعت المسافة بين المدائن وتكريت بأربعة أيام، وفي تكريت شوهد جيش العدو المختلط المؤلف من الفرس والعرب وبعض الجنود الرومان قد تحصن في المدينة، متخذاً خطة الدفاع المُستكين ومتخفياً وراء الحصون، راضياً بالحصار الذي فرضه عليه قادته في حين أن الغرض منه هو مبادأة العرب بالهجوم ليحققوا الهدف المنشود الذي كان يتوخاه الملك يزججرد.

حاصر الجيش العربي حاكم الموصل البيزنطي في تكريت أربعين يوماً جرت خلالها مناوشات بسيطة، وعندما اشتدت وطأة الحصار قرر الجنود البيزنطيون الانسحاب من المدينة فتأثر بذلك الجنود العرب من قبائل إياد وتغلب والنمر الذين كانوا في صفوف الأعداء، فاتفق زعماءهم على مفاوضة العرب بالدخول في الإسلام، واتفق معهم في الوقت ذاته على الاشتراك مع جيشه للقضاء على الجيش الفارسي - البيزنطي المختلط فرسموا لذلك خطة سرية كان نصيبهم منها أن يسدوا بوجه الأعداء طريق الانسحاب من ناحية النهر في الوقت الذي يهاجم فيه جيش عبد الله بن المعتم من ناحية البر، واتفقوا على وقت وإشارة الهجوم، وقد نفذت الخطة بدقة وبنجاح كبيرين فاستطاع الجيش العربي

الإسلامي اقتحام خطوط الدفاع الجنوبية الغربية ليلاً في الوقت الذي بوغت فيه العدو وبيجنود العرب من الخلف فارتبك أيما ارتباك وقضى عليه القضاء المبرم. وبعد هذا النصر أرسل عبد الله بن المعتم مفرزة من جيشه معززة بأفراد القبائل العربية التي أسلمت وانضمت إليه في مكان يدعى الحصنين وبه حاميات فارسية فاستطاعت تلك المفرزة إخضاعها^(٣٣).

ب. تطهير غربي الفرات:

كان خط الحدود بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية يمر من شمالي غربي الفرات ما بين القائم والبوكمال، فتقطع الفرات وتقع الجزيرة ضمن حدود الدولة البيزنطية، وكان بلدة قرقيسيا والفراض هيت مراكز عسكرية لقطاعات الحدود البيزنطية والفارسية.

ولما رأى العرب المسلمون أن جموع أهل الجزيرة قد أمدوا هرقل بجند يساعدونه على أهل حمص وبعثوا جنداً لتعزيز حامية هيت قرّر رأي الخليفة عمر على تطهير غربي الفرات من تلك الحاميات، فأمر سعد بن أبي وقاص أن يرسل رتلاً بقيادة عمر بن مالك لإنجاز هذه المهمة، فسار الرتل بمحاذاة نهر الفرات وحاصر بلدة هيت، ولما كان أهلها قد تحصنوا فيها قرر إفراز قسم من قواته لتطويق البلدة وحصارها وسار بباقي قوته فباغت قرقيسيا واحتلها، فلما سمعت حامية هيت بمصير قرقيسيا اضطرت هي أيضاً على التسليم^(٣٤).

الجهة الجنوبية:

معارك البصرة والأهواز:

لبنى سعد بن أبي وقاص نداء قائده عتبة في البصرة فأرسل بأمر من الخليفة رتلين أحدهما بقيادة نعيم بن مقرن والثاني بقيادة نعيم بن مسعود، أمرهما أن يتجها نحو ميسان ودست ميسان حتى يكونا بينهم وبين نهر تيري.

أما عتبة فقد أرسل رتلًا آخر بقيادة "سلمى بن القين" و"حرملة بن مريطة" وأمرهما أن ينزلا بقواتهما على حدود أرض ميسان ودست ميسان بينهم وبين منادر، ومع أننا نجهل تفاصيل الأوامر التي زود بها قائدة هذه الأرتال ومدى تعاونها مع بعضها في إنجاز مجرى الأحداث ومن موقف قوات العدو المرابطة بين نهر تيري وبين الدلتا حينذاك، وكذلك من المفاوضات التي قام بها قائد رتل البصرة ونعني به سلمى بن القين مع رؤساء قبيلة "بني العم" العربية التي كانت تقطن في تلك الجهات والتي انتهت باتفاق رؤسائها على الاشتراك في القتال إلى جانب إخوانهم العرب المسلمين، فيثور أحد الرؤساء وهو غالب الوائلي بمنادر ويثور الآخر وهو كليب بن وائل الكلبي بنهر تيري فيقتلا المقاتلة ثم يكون وجههما رتل البصرة فيتعاونوا معه في القتال.

وفي ليلة الهجوم المقررة خرج رتل البصرة بقيادة سلمى بن القين على تعبئة واتصل برتل الكوفة، وهاجم الرتلان جيش الهرمزان بين دلتا ونهر تيري، وفي أثناء الاشتباك أتى المدد من قبائل بني العم في الوقت الذي تواردت فيه

الأخبار إلى الهرمزان بأن مناذر نهر تيري قد أخذنا فزعزع ذلك موقفه وقرر الانسحاب من المعركة إلى ما دون شاطئ دجيل، وقد استطاعت فلول قواته عبور جسر سوق الأهواز واتخذها معسكراً بحيال تلك المدينة، وأقام على الجسر قوة تحميه وتحول دون عبور الجيش العربي، إلا أن هرمزان كان يقدر خطورة موقفه فطلب الصلح، وقد أجاب عتبة عليه مشترطاً أن يقصر ذلك على الأهواز فقط، أما نهر تيري ومناذر وسوق الأهواز فتتضمن إلى البصرة لأنها جزء منها ولا شأن للهرمزان بها فوافق الهرمزان على شروط الصلح هذه، وعلى أثر عقد الصلح عيّن سلمى بن القين حاكماً عسكرياً على المناذر، أما الحاكم المدني فهو غالب الوائلي، وعيّن حرملة بن مريطة حاكماً عسكرياً على نهر يتري، أما الحاكم المدني فهو كليب بن وائل.

وقد أوعز لطوائف قبيلة بني العم على النزوح إلى منازلهم وأن تقطع لهم الأراضي ويرفه عن حالهم لاستيطان تلك المنطقة تحقيقاً لرغبة الخليفة عمر بن الخطاب ونزولاً عند إرادته^(٣٥).

الجبهة الوسطى:

معركة جلولاء:

أمر الخليفة عمر رضي الله عنه بأن يتقدم جيش مؤلف من اثني عشر ألف مقاتل بقيادة هشام بن عتبة أبي الوقاص نحو جلولاء لمنازلة الجيش الفارسي الرئيسي

المحتشد فيها، وأمر أن يقود مقدمة الجيش القعقاع بن عمرو وأن يتولى قيادة الميسرة عمر بن مالك، وقيادة الميمنة سعد بن مالك، وأن يكون قائد الساقة سعد الجهين.

وكانت الأوامر تقضي بطرد العدو من جلولاء، وبعد أن يتم النصر للعرب ينتقم القعقاع بمقدمة إلى سلسلة الجبال الأولى التي تفصل العراق عن إيران أو على حد تعبير الخليفة عمر رضي الله عنه "يكون بين السواء، العراق وبين الجبل على حد سواءكم: فيرباط فيها ويحول دون تسرب الفرس إلى العراق" (٣٦).

تقدم جيش هشام بن عتبة من المدائن إلى جلولاء فقطع المسافة بينهما في أربعة أيام، وفي جلولاء شاهد العدو وقد اتخذ موضعاً دفاعياً حول هذا الموقع مسنداً ظهرها إلى نهر ديالي، وقد أحاط دفاعاته بسياج من الخشب ثم استبدل بسياج من الحديد فيه فتحات معينة عن الطرف.

وقد أحاط العرب بدفاعات الفرس وحدثت مناوشات ليست بذات شأن بين الفريقين، ولما رأى الفرس أن الإمدادات متواصلة إلى عدوهم خافوا من العاقبة وقرروا الخروج من دفاعاتهم والاشتباك مع العرب المسلمين في معركة فاصلة، وقد مهدوا السبيل إلى ذلك بدفن بعض أقسام الخندق لجعلها طرقاتاً لخيولهم.

وفي صباح أحد أيام ذي القعدة سنة ١٦هـ (كان الأول سنة ٦٣٧م) خرج الفرس للقتال فنشبت بين الفريقين معركة حامية إلى درجة أن نفذ ما مع الفرس من نبل ونشاب فاستخدموا رماحهم وسيوفهم.

استمر القتال على هذا الشكل حتى ظهر اليوم وكاد العرب يغلبون على أمرهم لو لم ينقذ الموقف القعقاع بن عمرو الذي مثله في الساعة الأخيرة من معركة القادسية فكسب معركتها وها هو في معركة جلولاء يصرخ في جنوده (أهالكُم هذه؟ احمِلوا حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ولا تكنبن!) ومع أن الحملة كانت عنيفة إلا أنها لم تثمر عن فوز نهائي، وفي المساء عاد القعقاع فضبط قسماً من الخندق وقد عزم على النصر الذي لاح له بين عينيه يحرض الجيش على القتال ولم يجد بأساً لتشجيع الجيش من أن يأمر مناديه أن يقول: "يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق!" فحملوا وهم لا يشكون في كون هشام بن عتبة في الخندق فإذا هم بالقعقاع قد استولى عليه^(٢٧).

وانهزم الفرس، فعقرت خيلهم وتخطبت بالسياج الحديدي وصاروا رجالة، واتبعهم المسلمون فعملوا فيهم قتلاً رهيباً ولم ينج إلا القليل، وذكر البعض أن قتلى الفرس من هذه المعركة كان مائة ألف جلهم من أهل الرأي فجالت القتلى المجال ما بين يديه وما خلفه فسميت جلولاء بما جللها من قتلاهم فهي جلولاء الوقعة وبذلك يقول الشاعر العربي:

ويوم جلولاء الوقعة أصبحت كئائبنا تردى بأسد عوايس

وقد طارد القعقاع بمقدمته فلول السيوف الفارسية المنهزمة حتى دخل مدينة خانقين وقتل فيها قائد الجيش العام مهران الرازي واستمر على التقدم

فدخل مدينة قصر شيرين، وعلى فرسخ واحد فقط من حلوان قاتل حاميتها التي كان يقودها خسرو فغلبها واستولى على حلوان^(٣٨).

وسبق أن غادر يزيدجر الثالث هذه المدينة قاصداً مدينة الري بعد أن يش من مقاومة العرب المسلمين والوقوف في وجههم.

وكان القعقاع يود لو سمح له بالتوغل في الجبل للقضاء على البقية الباقية من المقاومة الفارسية، إلا أن الأوامر الصادرة إليه حالت دون أمنيته المخالفة لرغبة الخليفة عمر رضي الله عنه، فقد قال الخليفة بهذا الصدد: "ودت لو أن بين السواد وبين اجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم...".

وقد بقي القعقاع في حلوان إلى أن اختيرت الكوفة قاعدة لجيش الفتح بدلاً من المدائن أما الغنائم التي حصل عليها العرب المسلمون فكانت عظيمة أصاب كل فارس منها تسعة آلاف درهم وتسعة دواب ما عدا الخمس^(٣٩).

معركة ماسبدان:

لم يبق لفتح القسم الأوسط من العراق في الجبهة الشرقية غير مدينة ماسبدان التي تسللت إلى سهلها قوة صغيرة من الجيش الفارسي بقيادة أذين بن الهرموان فأرسل سعد رتلاً بقيادة ضرار بن الخطاب لطرده هذه القوة من مناطق الحدود العراقية فالتقى بها في مكان يدعى "بهندق" وبعد قتال قصير تغلب عليها وقتل قائدها وتعقب فلولها إلى نهر سيروان (قسم ديالي الأعلى)^(٤٠).

وهكذا تنتهي في هذه الجبهة الصفحة الأولى من الحركات الحربية التي حررت العراق من الحكم الأجنبي لتبدأ صفحة جديدة في ميادين أخرى.

وقعة نهاوند [فتح الفتوح]:

قيل أنها كانت سنة ثمان عشرة وقيل سنة تسع عشر وقيل سنة إحدى وعشرين، أثار أمر نهاوند أن المسلمين لما خلصوا من جند العلاء من بلاد فارس وفتحوا الأهواز كانت الفرس ملكهم وهو بمرور فحركوه، وكاتب الملوك بين الباب والسند وخراسان وحلوان فتحركوا، وتكاتبوا واجتمعوا إلى نهاوند، ولما وصلها أوائلهم بلغ سعداً الخبر فكتب إلى عمر وقد وشا بسعد قوم سعوا به وألبوا عليه ولم يشغلهم ما نزل بالناس، وكان من تحرى أمره الجراح بن سنان الأسدي في نفر، فقال لهم عمر: والله ما يمنعني ما نزل بكم من النظر فيما لديكم، فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس، وكان محمد صاحب العمال يقتص آثار من شكى زمان عمر، فطاف بسعد على أهل الكوفة يسأل عنه، فما سأل عنه جماعة إلا أثتوا عليه خيراً سوى آل الجراح الأسدي فإنهم سكتوا ولم يقولوا سوءاً، حتى انتهى إلى بني عبس فسألهم، فقال أسامة بن قتادة: اللهم إنه لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، ولا يغزو في السرية. فقال سعد: اللهم إن كان قالها رياءً وسمعة فأعم بصره، وأكثر عياله، وعرضه لمضلات الفتن، فعمي، واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بالمرأة فيأتيها حتى

يجسّسها، فإذا عثر عليها قال: دعوة سعد الرجل المبارك، ثم دعا سعد على أولئك النفر فقال: اللهم إن كانوا خرجوا أشراً وبطراً ورياء فاجهد بلادهم، فجهدوا، وقطع الجراح بالسيوف يوم بادر الحسن بن علي -عليه السلام- ليغتاله بساباط، وشذخ قبيصه بالحجارة، وقتل أربد بالوجئ ونعال السيوف.

وقال سعد: إني أول رجل أهرق دماً من المشركين، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه وما جمعها لأحد قبلي ولقد رأيتني خمس الإسلام، وبنو أسد تزعم أنني لا أحسن أن أصلي وأن الصيد يلهيني وخرج محمد بهم معه إلى المدينة فقدموا على عمر فأخبروه الخبر، فقال: كيف تصلى يا سعد؟ فقال أطيل الأوليين وأحذف الآخرين فقال: هكذا الظن بك أبا اسحق ولولا الاحتياط لكان سيبلهم بيناً، وقال من خليفتك يا سعد على الكوفة؟ فقال: عبد الله [ابن عبد الله] بن عبتان، فأقره، فكان سبب نهوند وبعثها زمن سعد.

وأما الواقعة فهي زمن عبد الله، فنفرت الأعاجم بكتاب يزجرج فاجتمعوا بنهوند على الفيرزان في خمسين ألفاً ومائة ألف مقاتل، وكان سعد كتب إلى عمر بالخبر ثم شافهه به لما قدم عليه وقال له: إن أهل الكوفة يستأذنوك في الانبياح وأن يبدؤهم بالشدة ليكونوا أهيب لهم على عدوهم.

فجمع عمر الناس واستشارهم، وقال لهم: هذا يوم له ما بعده، وقد هممت أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه فانزلاً منزلاً وسطاً بين المصريين ثم

استغفرهم وأكون لهم رداءً حتى يفتح الله عليهم ما أحب، فإن فتح الله عليهم حببتهم في بلدانهم.

فقال طلحة بن عبيد الله: يا أمير المؤمنين قد أحكمتك الأمور، وعجمتك البلايا، واحنكتك التجارب، وأنت وشأنك، لا ننبو في يدك ولا نكل عليك، إليك هذا الأمر، فمرنا نطيع وادعنا نجب واحملنا نركب وقدنا عليك، إليك هذا الأمر وقد بلوت وجريت واحتربت فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيارهم، ثم جلس.

فعاد عمر، فقام عثمان فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا سرت قل عندك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعزّ عزاً وأكثر، يا أمير المؤمنين إنك لا تستبقي بعد نفسك من العرب باقية، ولا تمتع من الدنيا بعزيز، ولا تلوذ منها بحرير، إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه، وجلس.

فعاد (عمر) فقام إليه علي بن أبي طالب فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإن أشخصت من هذه الأرض انتفضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع

وراعك أهم إليك مما بين يديك من العورات والغيالات، أقرر هؤلاء في أمصارهم وأكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا ثلاث فرق: فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير المؤمنين أمير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغير ما يكره، أما عددهم فإننا لم نكن فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر.

فقال عمر: هذا هو الرأي، كنت أحب أن أتابع عليه، فأشيروا علي برجل أوليه ذلك الثغر وليكن عراقياً، قالوا: أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك، فقال: والله لأولين أمرهم رجلاً يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً، فقيل: من هو؟ فقال: هو النعمان بن مقرن المزني، فقالوا: هولها، وكان من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، وكان على خراج كسكر، فدعا عمر السائب بن الأقرع إليه عهد النعمان بن مقرن، قال له إن قتل النعمان فولى الأمر حذيفة بن اليمان، وإن قتل حذيفة فولى الأمر جرير بن عبد الله البجلي، وإن قتل جرير فالأمير المغيرة بن شعبة، وإن قتل المغيرة فالأمير الأشعث بن قيس وكتب إلى النعمان بن مقرن: "إن قبلك رجلين هما فارسا العرب: عمرو بن معدي كرب، وطليحة بن خويلد فشاورهما في الحرب، ولا ترفع إلي باطلاً، وأن يهلك ذلك الجيش فأذهب، فلا أرينك" (٤١).

سار السائب حتى ورد الكوفة ودفع إلى النعمان عهده، ووافت الإمداد، وخلف أبو موسى بالبصرة ثلثي الناس، وسار بالثلث الآخر حتى وافى الكوفة، فتجهز الناس، وساروا إلى نهاوند، فنزلوا بمكان يسمى "الإسفيذهان" من مدينة

نهاوند على ثلاث فراسخ، قرب قرية يقال لها "قديسجان" وأقبلت الأعاجم يقودها مروان شاه بن هرمزد حتى عسكروا قريباً من معسكر المسلمين وخذلوا على أنفسهم، وأقام الفريقان بمكانهما فقال النعمان لعمر وطلحة: "ما تريان؟ فإن هؤلاء القوم قد أقاموا بمكانهم لا يخرجون منه، وإمدادهم تترى عليهم كل يوم" فقال عمرو: "الرأي أن تشيع أن أمير المؤمنين توفي، ثم ترحل بجميع من معك، فإن القوم إذا بلغهم ذلك طلبونا فنقف لهم عند ذلك" ففعل النعمان ذلك، وتباشرت الأعاجم، وخرجوا في أثر المسلمين حتى إذا قاربوهم وقفوا لهم، ثم زحفوا، فاقتتلوا، فلم يسمع إلا وقع الحديد على الحديد، وكثرت القتلى من الفريقين، وحال بينهما الليل فأنصرف كل فريق إلى معسكرهم، وبات المسلمون لهم أنين من الجراح، ثم أصبحوا وذلك يوم الأربعاء، فتزاحموا، واقتتلوا يومهم كله، وصبر الفريقان، وركب النعمان بن مقرن برزونا أشهب، ولبس ثياباً بيضاء، وسار بين الصفوف، يحيي المسلمين، ويحضرهم، وجعل ينتظر الساعة التي كان الرسول ﷺ يقاتل فيها، وستنزل النصر، وهي زوال النهار، ومهب الرياح، وسار في الرايات يقول: "إني هازٌ لكم الراية ثلاثاً، فإن هزرتها أول مرة فليشد كل رجل منكم حزام فرسه، وليستلم شِكَته، فإذا هزرتها الثانية فصوبوا رماحكم، وهزوا سيوفكم فإذا هزرتها الثالثة فكبروا، واحملوا، فإني حاملٌ".

فلما زالت الشمس بأدنى صلوا ركعتين، ووقف، ونظر الناس إلى الراية، فلما هزها الثالثة كبروا وحملوا فانتفضت صفوفهم الأعاجم، وكان النعمان

أول قتيل، فحمله أخوه سويد بن مقرن إلى فسطاطه، فخلع ثيابه، فلبسها، وتقلد سيفه، فلم يشك أكثر الناس أنه النعمان، وثبتوا يقاتلون عدوهم ثم أنزل الله نصره، وانهزمت الأعاجم، فذهبت على وجوها حتى صاروا إلى قرية من نهاوند على فرسخين، تسمى "نزيريد" فنزلوها لأن حصن نهاوند لم يسعهم، وأقبل حذيفة بن اليمان، وقد كان تولى الأمر بعد النعمان حتى أناخ عليهم، فحاصرها بها، ولم يلبث أصحاب الحصن أن صالحوا المسلمين على الأمان^(٤٢).

وتعد موقعة نهاوند خاتمة المعارك الفاصلة في تاريخ الفتح العربي لفارس ولذلك سميت "فتح الفتوح" وبها أنهار سلطان الفرس نهائياً.

وترتب على انتصار المسلمين في نهاوند سقوط عدد من المدن، منها الدينور التي أقر أهلها بالجزية والخراج وسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، فأجابهم المسلمون إلى طلبهم، ومنها ما سبذان التي صولح أهلها على مثل صلح أهل الدينور، كذلك صالحه أهل السيروان على الجزية والخراج.

وقام جرير بن عبد الله البجلي بفتح همذان قسراً على مثل صلح نهاوند في آخر سنة ٢٣هـ، كما افتتح أبو موسى الأشعري مدينة قم وقاشان عنوة، ثم أصبهان في سنة ٢٣هـ، ولم تستعص على المسلمين سوى اصطخر التي لاذ بها "يزدجرد"، ثم انتفض أهل اصطخر عليه فهرب يزدجرد إلى خراسان ولكنه لم يصرعه في مرو في سنة ٣٠هـ^(٤٤)، وبصرع الملك يزدجرد فقد الفرس كل أمل استرجاع فارس، ودالت دولتهم.

أما الجزيرة الفراتية التي كانت بعض مدنها تحت سيطرة الروم البيزنطيين فقد كان تحريرها ضرورة حربية لتأمين فتوح الشام، وكان أبو عبيدة ابن الجراح قد بعث عياض بن غنم إلى الجزيرة ثم توفى أبو عبيدة فخلفه عياض، وود عليه كتاب عمر بن الخطاب بتولية حمص وقنسرين والجزيرة، فسار إلى الجزيرة الفراتية في النصف من شعبان سنة ١٨هـ في خمسة آلاف مقاتل، واشترك معه في هذه الحملة ميسرة بن مسروق العبسي، وكان على مقدمة جيشه، وسعيد بن عامر الجمحي وكان على الميمنة، وصفوان بن المعطل السلمي على الميسرة، وتمكنت جيوش عياض من تحرير مدن الجزيرة الواحدة تلو الأخرى فوصلت إلى الرقة التي صالح أهلها على الجزيرة بعد حصار دام بضعة أيام وأمن جميع سكانها على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم، ثم واصل عياض زحفه إلى "حران" فتحصن أهل المدينة، فتركها إلى الرها "أورفه" ونجح في الاستيلاء عليها صلحاً، وكتب إلى أهلها أماناً، كذلك صالح أهل حران على مثل صلح الرها، ففتحوا أبوابها للمسلمين ثم زحف عياض إلى سميساط فصالحه أهلها على مثل صلح الرها، وسار إلى نصيبين سنة ١٩هـ ففتحها، كما فتح قرقيسيا وسنجار وميافارقين وقرى الفرات وآمد وحصن كفرتوثا وماردين ودارا صلحاً على مثل صلح الرها وحران والرقة، ثم فتح عياض أرزن صلحاً، وهكذا تم تحرير كامل الجزيرة الفراتية بسهولة ويسر^(٤٥) فقد ذكر الطبري أن الجزيرة كانت "أسهل البلدان أمراً، وأيسره فتحاً"^(٤٦).

المبحث الثاني

فتوح الشام ومصر وبرقة

استكمال تحرير بلاد الشام:

معركة اليرموك:

بعد هزيمة الروم في معركة أجنادين، قرر هرقل نقل مقر قيادته من حمص إلى أنطاكية -شمال بلاد الشام- كما أشرنا سابقاً، وفي الوقت نفسه راح يجهز جيشاً ضخماً قدرته المصادر بما لا يقل عن المائة ألف^(٤٧) وقرر أن يقوده بنفسه لمهاجمة جيوش المسلمين، وذكر الطبري^(٤٨) أن جيش المسلمين كانت عدته ٤٦ ألفاً فمن الأجناد الأربعة ٢٧ ألف ومن خلال خالد بن سعيد ثلاثة آلاف، ومن إمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد عشرة آلاف ومن المسلمين الذين استمروا تحت قيادة عكرمة بعد هزيمة خالد بن سعيد ستة آلاف وكان يتولى قيادة جيوش بيزنطة، القائد الأرمني باهان وكان يعرف عند البيزنطيين بشدة بلائه، وكان من الفرق البيزنطية فرقة الغساسنة، وعرب الشام من قبائل لخم وجذام يتقدمهم جبلة بن الأيهم الغساني، وفرقة من سكان أرمينيا.

تجمع الجيش الإسلامي شمالي نهر اليرموك، في سهل واسع يعرف بالواقصة أو الياقوصة، ويبدو أن نظام الجيش الإسلامي بتقسماته الأربعة تحت قيادة أربعة من القواد لم يحظ برضى وموافقة خالد بن الوليد، وكان يرى ضرورة توحيد هذه الجيوش بجيش واحد منظم وتحت قيادة واحدة، ليواجهوا به جيش الروم الموحد، فخطب في المسلمين قائلاً: "إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعلموا فيما لم تؤمروا به بالذي ترونه أنه الرأي من واليكم ومحبتة". فسأله المسلمون عن خطته واستشاروه الرأي فقال: "إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى إنا سننصير، ولو علم بما كان ويكون لقد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من إمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فأنه الله، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه أن دانوا له، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ، هلموا، فإن هؤلاء قد تهيأوا، وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم، لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلما فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، ودعوني إليكم اليوم" فأمره على أنفسهم. ثم وزع خالد جيوش المسلمين إلى كراديس يتراوح عددها ما بين ٣٦ كردوساً وأربعين - كل كردوس يتألف من

ألف جندي- ثم قسم الكرايس إلى ثلاثة أقسام: ميمنة وعليها عمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وميسرة وعليها يزيد بن أبي سفيان، وقلب وأقام عليه أبا عبيدة بن الجراح، ثم ولّى على كل كردوس قائداً من قواد المسلمين أمثال القعقاع ابن عمرو وجعله على أهل العراق ومعه عياض بن غنم، وهاشم بن عتبة كل منهم على كردوس، كما قدم على فالة خالد بن سعيد دحية بن خليفة وامرئ القيس وبزيد بن يحنس وعكرمة بن أبي جهل وزاد الكلاع ومعاوية بن حديج، وقبل أن يشتبك المسلمون مع البيزنطيين، قرأ المقداد بن الأسود سورة الأنفال وهي سورة الجهاد^(٤٩).

أصدر خالد بن الوليد أوامره إلى مجنبتى "القلب" بقيادة عكرمة والقعقاع بالهجوم على الروم وسرعان ما نشب القتال والتحم الجند، وفي هذه الأثناء قدم البريد من المدينة فأبلغ خالد بوفاة أبي بكر ﷺ في ليلة النصف من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ، وخلافة عمر ﷺ كما أبلغه نبا عزله عن الإمارة وتولية أبي عبيدة، فأخفى خالد خبر وفاة أبي بكر وأخذ الكتاب من البريدي واحتفظ به لحين انتهاء المعركة حفاظاً على معنويات المقاتلين.

واصل المسلمون قتالهم بقيادة خالد بن الوليد إلا أنهم اضطروا إلى التراجع عن خطوطهم ومواقعهم بعد هجوم شنه عليهم البيزنطيون، وقد ثبت كل من عكرمة وعمه الحارث بن هشام أمام الهجوم البيزنطي ولم يتراجعا، وصرخ عكرمة ونادى قومه قائلاً: "من يبايع على الموت" فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في ٤٠٠ من وجوه المسلمين وفرسانهم وقاتلوا أمام

فسطاط خالد، وثبت المسلمون أمام البيزنطيين فبادر خالد بالهجوم بقلب الجيش، فانهزم فرسان العدو وتركوا مشاتهم تحت رحمة المسلمين، فأذرع المسلمون فيهم بالسيوف واقتحموا في خندقهم، فاقتحمه خالد عليهم، وانهزموا إلى سهل الواقصة، فلتقاهم المسلمون بالقتل، وانتهى اليوم بنصر حاسم للمسلمين، أبادوا فيه العدد الأعظم من جيش البيزنطيين، واستشهد من المسلمين حوالي ثلاثة آلاف من بينهم عكرمة بن أبي جهل وعمر بن مكرمة وضرار بن الأزور، وانحاز جبلة بن الأيهم إلى الأنصار وقال لهم: "أنتم أخوتنا وبنو أبينا" ثم أعلن إسلامه هو وجماعه من قومه^(٥٠)، أما هرقل فقد ذهل بما أصاب جيشه من هزيمة ساحقة على أيدي المسلمين ورحل إلى عاصمته القسطنطينية مغادراً أرض بلاد الشام إلى الأبد.

تحرير مدن بلاد الشام:

استثمر المسلمون انتصارهم الساحق في اليرموك فتقدموا لتحرير بقية أرض الشام ومدنه، وزحف أبو عبيدة بن الجراح إلى دمشق، فنزل بمرج الصفر متتبّعاً فلوك الروم، بقيادة باهان، الذين لاذوا بفحل، وبلغه أيضاً أن مدداً بيزنطياً قد أتى أهل دمشق من حمص، وفي هذه الأثناء جاءه قرار الخليفة عمر رضي الله عنه بأن يبدأ بتحرير دمشق لأنها حصن الشام وبيت ملكهم وفي نفس الوقت يشغل أهل فحل بخيل تقف بإزائهم، فإذا فتحت دمشق سار إلى فحل فإذا نجح في افتتاحها سار هو وخالد إلى حمص وترك شرحبيل بن حسنة، وعمر بن العاص بالأردن

وفلسطين ونفذ أبو عبيدة توجيهات الخليفة، فزحف بمعظم الجيش الإسلامي وهاجم مدينة دمشق، وترك على فحل طائفة من المسلمين لمحاصرتها وقد لجأ البيزنطيون المحاصرون في محل إلى إغراق الأراضي حول فحل بالمياه، فوحلت الأرض الأمر الذي أعاق تقدم المسلمين.

أما القوة المهاجمة لمدينة دمشق فقد نجحت في إحكام الحصار حولها، إذ رابط خالد بن الوليد على رأس فرقة من الجيش قوامها خمسة آلاف مقاتل على بابها الشرقي، وعمر بن العاص على باب توما، وشرحبيل بن حسنة على باب الفراديس، بينما رابط يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير المعروف بباب كيسان، أما أبو عبيدة فقد نزل على باب الجابية، يتجلى وسط هذه المواقف التاريخية الخالدة دور خالد بن الوليد، فقد ذكرت المصادر أنه كان يقظاً لا ينام ولا ينام ولا يخفى عليه من أمور أهل دمشق شيئاً فانتهاز انشغال الروم بأحد احتفالاتهم، وغفلتهم عن حراسة الباب الشرقي، ليقحمها، وكان قد أعد سلاسل من الحبال، وبفضل هذه الحبال تمكن نفر من المسلمين من ارتقاء السور، وعندما بلغوا أعلاه كبروا، وفي هذه الأثناء اقتحم خالد الباب الشرقي بعد قتل حراسه، ولما أيقن الروم أن المدينة اقتحمت عنوة من تلك الجهة طلبوا الصلح من أبي عبيدة وفتحوا له باب الجابية، فصالحهم دون أن يعلم بما أنجزه خالد بن الوليد، فتقدم القادة والتقوا في وسط دمشق^(٥١) مزهوين بنصرهم المبين.

بعد تحرير دمشق كان لابد من حسم موضوع فحل المحاصرة، وتنفيذاً للخطّة التي وضعها الخليفة توجه أبو عبيدة لاقتحام فحل، فجعل خالد بن الوليد

على المقدمة، واشتبك المسلمون مع البيزنطيين في معركة انتهت بهزيمة البيزنطيين، وحرر المسلمون فحل ثم بيسان وطبرية، من جانب آخر حرر شرحبيل بن حسنة جميع مدن الأردن وتغلب على سواده.

توالى بعد ذلك تحرير مدن الشام الشمالية إذ زحف أبو عبيدة وخالد إلى حمص، فصالح أهلها على مثل ما صالح به أهل دمشق، ثم قصد بعلبك وحماة وشيزر فخرج إليه أهلها مسالمين مصالحين، وواصل أبو عبيدة زحفه فسار إلى معرة النعمان، وحررها صلحاً، وعهد أبو عبيدة بفتح سواحل سورية إلى عبادة ابن الصامت ففتحها عنوة^(٥٢) ثم اقتحم انطرطوس وكانت خالية من سكانها، وحرر جبلة عنوة، وأوكل بالحفاظ عليها والدفاع عنها حفظة وحراساً خلال مدة الصيف.

أما أبو عبيدة فقد سار وعلى مقدمته خالد بن الوليد إلى قنسرين، وكانت لتنوخ، فنجح المسلمون في السيطرة عليها وعلى قراها، بعد دحر الروم وقتل قائدهم "ميناس"، وصالح أبو عبيدة أهلها على مثل صلح حمص، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم، وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان، ثم تقدم أبو عبيدة إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم، فحررها صلحاً، ومن هناك زحف إلى أنطاكية واشتبك مع أهلها فطلبوا الصلح^(٥٣).

واصل أبو عبيدة تحريره لمدن الشام الشمالية الواحدة تلو الأخرى حتى بلغ نهر الفرات وسير قواده في بعوث إلى مدن منيح ودلوك وربعان وبالس،

فاقتحوها صلحاً، ثم عبرت جيوش المسلمين درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد بيزنطة بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي، وهو أول من سلك هذا الدرب من المسلمين، وسير خالد بن الوليد إلى مرعش فافتتحها وصالح أهلها على الجلاء^(٥٤).

تحرير بيت المقدس وسواحل الشام الجنوبية:

مضى عمرو بن العاص يحرر المدن الفلسطينية، وتمكن في أمد قصير من الاستيلاء على نابلس وعمواس وبيت جبرين ويافا ومرج عيون وعكا وعسقلان وغزة ورفع دون قتال ثم زحف نحو إيلياء (بيت المقدس) وحاصرها زهاء أربعة أشهر، كان خلالها القتال متصلاً وقدم عليه أبو عبيدة بعد أن أتم فتح قنسرين ونواحيها في سنة ١٦هـ، فاشتراط بطريق إيلياء (صفرونيوس) على أبي عبيدة أن يأتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه ليتسلمها ويوقع معاهدة الصلح خوفاً من أن يتعرض كنيستهم العظمى لأعمال التخريب، فقدم عمر بن الخطاب في سنة ١٦هـ وعقد عهد الصلح لأهل إيلياء، أورد الطبري نفسه^(٥٥)، ولما بعث عهد الأمان إلى أهل إيلياء ودخلها جند المسلمين شخص عمر إلى بيت المقدس من الحابية، وتم تحرير إيلياء على يد عمر بن الخطاب في ربيع الآخر سنة ١٦هـ، أما عمرو بن العاص فقد مضى إلى قيسارية وحاصرها ولم يتمكن من اقتحامها فقد كانت الإمدادات تصلها عن طريق البحر.

كان يزيد بن أبي سفيان قد توجه إلى مدن الساحل الشمالي بعد تحرير دمشق مباشرة سنة ١٤هـ، ولم يأت عام ١٧هـ حتى كان قد أتم تحرير مدن صيدا وعرقا وجبيل وبيروت، وهي مدن ساحلية، ولم يلق فيها مقاومة ذات شأن من جانب سكان هذه المدن التي جلا معظمهم عنها، وكان يزيد يقيم على الحصن أياماً قليلة "قربما قوتل قتالاً غير شديد وربما رمى" وساعده على تحرير هذه السواحل من الوجود البيزنطي أخوه معاوية.

وكانت مدينة طرابلس (الشام) قد استعصت على المسلمين في ولاية يزيد لمناعتها ووثاقة تحصيناتها، فقد ذكر البلاذري أن "يزيد بن أبي سفيان وجه معاوية إلى سواحل دمشق سوى طرابلس فإنه لم يكن يطمع فيها"^(٥٦) إذ كان اقتحام طرابلس يتطلب حصاراً من البر والبحر في آن واحد قد يطول أمده، لذلك كان يزيد يرى أن يرجئ هذا الأمر إلى أن تتوفر له الإمكانيات، وخاصة الخبرة في مجال الحصار البحري، الذي لم تكن للعرب خبرة فيه.

توفي يزيد بن أبي سفيان في آخر عام ١٨هـ في طاعون عمواس (وعمواس قرية من قرى فلسطين) وخلفه أخوه معاوية على ولاية دمشق الساحل، ولم يتهدأ لمعاوية إتمام تحرير طرابلس إلا في خلافة عثمان بن عفان.

تحرير مصر:

سكن مصر منذ قديم الزمان جنس جمع خصال الساميين والهاميين، وإلى عصر الفراعنة لم يكن فيه إلا أثر ضعيف من الجنس الزنجي، وقد استطاع

هذا الجنس أن يكون حصار حضارة تعد من أقدم الحضارات، التي يمتد تاريخها السياسي إلى أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، ولكن مصر فقدت استقلالها بفتح الإسكندر الأكبر في ٣٣٢ ق.م وخضعت بعد ذلك للبطامة والرومان والبيزنطيين، إلى أن جاءها العرب كمحررين، ومع ذلك فمصر خلال احتلال هذه الشعوب الغربية عنها، ظلت تكون شعباً منفصلاً في الجنس واللغة والتقاليد.

ومع أن مصر عاشت بدينها الأول آلاف السنين إلى أن اضطرت إلى تركه في ظل الحكم الروماني بسبب تشويبه بما أدخله فيه من عباداته وعبادة ملوكه وأباطرته، ولذلك تحولت مصر منذ وقت مبكر إلى المسيحية التي تنادي ضد الظلم الروماني، وفي جوهرها تشبه ديانتها القديمة، فعمل المسيحية انتشرت في مصر على يد أحد تلاميذ المسيح، وهو القديس "مرقس" كما أنه ظهر فيها قبل أي مكان آخر نظام الرهبنة.

ويبدو أن الديانة المسيحية انتشرت في جميع أنحاء مصر في القرن الثالث الميلادي، بدليل كثرة الروايات التي تتحدث عن اضطهاد الدولة الرومانية وتعذيبها للنصارى المصريين، وحتى بعد أن جاءت بيزنطة وارثة الرومان في الشرق والتي جعلت المسيحية ديانتها الرسمية- نجد أن المسيحية المصرية تتخذ مذهباً مختلفاً -مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح- على عكس البيزنطيين الذين قالوا بالطبيعة الإلهية والبشرية للمسيح، أو ما عرف بمذهب الملكانية نسبة إلى الملك أو الإمبراطور البيزنطي. وقد كان هذا الموقف الديني من جانب المصريين، سبباً في أن جعل المسيحية في مصر تواكبها حركة قومية منذ

ظهورها، وخصوصاً أن البيزنطيين كانوا كالرومان يضطهدون المصريين اليعاقبة، ويزيلون بطاركة كنيستهم ويستحلون سفك دمائهم.

عهد الخليفة عمر بن الخطاب ؓ أمر تحرير مصر بعد إنهاء تحرير بلاد الشام وفلسطين إلى عمرو بن العاص، أشهر قادة الفتح الإسلامي بعد خالد، وكان قد أسلم سنة ثمان للهجرة، واشترك في قمع الردة، كما قاد عمليات تحرير فلسطين المجاورة لمصر، ويوصف هذا الفاتح بأنه كان قصيراً عظيم الهامة عريض ما بين المنكبين، معروفاً بالدهاء وهو من مظاهر الزعامة عند العرب، وكان عمرو عارفاً بمصر التي دخلها قبل الإسلام.

لقد حاولت بعض الروايات أن تجعل فكرة تحرير مصر آتية من عمرو ابن العاص وحده، وأنه أخذ على عاتقه السير إلى مصر على الرغم من أن الخليفة غير راغب فيه، وأنه أرسل إليه كتاباً يأمره بالرجوع إلا إذا كان دخل في أرض مصر، ولكن القائد المغامر لم يلق بالاً لأوامر الخليفة واجتاز الحدود المصرية ليضع الخليفة أمام الأمر الواقع، ونرى أن هذه الرواية ليس لها أساس واقعي وأن قرار تحرير مصر أتى نتيجة تفكير متأنٍ ومداولات بين الخليفة وقواد جيشه في مؤتمر الجابية حين مجيئه الشام، لأهمية هذا القرار بالنسبة للدولة العربية الناشئة، ولعل التردد الذي تنسبه بعض الروايات العربية إلى عمر قد يكون مبعثه تخوفه على سلامة المسلمين من احتمالات هذا القرار ومخاطره، لقد كان قرار الخليفة وأمره قاطعاً إلى عمرو بن العاص بالتوجه بجيشه إلى

مصر بمجرد قراءة كتابه، بما يدل على أن خطة التحرير كانت مدبرة من قبل الخلافة ذاتها.

إن من أهم أسباب ظهور فكرة تحرير مصر -فضلاً عن العوامل الاقتصادية- هي تأمين فتوحات وإنجازات العرب في بلاد الشام، والقضاء على كل محاولة بيزنطية لاستعادة الشام، ولعل التفكير فيه حدث بعد اليرموك مباشرة، فقد كان على العرب أن يعملون ألف حساب لرد فعل يأتي من الجانب البيزنطي، حيث كانت جيوشهم موجودة بكثافة في مصر، فضلاً عن انسحاب قواتهم التي كانت موجودة في فلسطين إليها، وحتى لا يقع العرب بين فكي كماشة الجيوش البيزنطية في آسيا الصغرى وجيوش مصر.

من جانب آخر كان احتلال البيزنطيين لسواحل مصر وما تهيئه لأساطيلها من قوة بحرية فيه تهديد للجزيرة العربية نفسها، وفيها مركز الدولة العربية الناشئة، وربما كان العرب أنفسهم يطمعون في احتلال مصر بقصد إنشاء قوة بحرية تمهيداً لمواجهة البيزنطيين في البحر، كما تغلبوا عليهم في البر.

ويمكن أن نضيف سبباً آخر لظهور فكرة تحرير مصر هو أن مصر كانت معروفة عند العرب من الذين زاروها منهم قبل الإسلام بثرائها الواسع، فهي في نظرهم المدرة السوداء أي الخصبة، وأنها أكثر من الشام والعراق أموالاً مما يجعل من تحريرها من أيدي الروم قوة للمسلمين، وعونا لهم، فضلاً عن إمكان إضعاف بيزنطة بحرمانها من خيرات هذا البلد وموقعه الهام جداً.

سار عمرو بن العاص بجيشه في سنة ١٨ هـ في الطريق المحاذي لساحل البحر المتوسط، فوصل إلى العريش ومنها إلى الفرما، وكانت تعرف قديماً بحصن بيلوز، وكان قوم من الروم مستعدين للقتال، فاشتبك المسلمون مع الحامية البيزنطية واستمر حصار المسلمين لها ما يقارب من شهر إلى أن سقطت في أيدي المسلمين^(٥٧) وبسقوطها أمن العرب الطريق المؤدية إلى مصر وربطوا بينهم وبين قواعد تموينهم في الشام.

بعد الفرما سار عمرو نحو حصن بابلليون دون أن يلقي مقاومة تذكر إلى أن نزل القواصر فدخلها ثم سار إلى حصن بلبيس فقاتل البيزنطيين نحو شهر حتى افتتحها، ثم مضى في طريقه حتى أتى أم دنين وهي قرية تقع إلى شمال حصن بابلليون وهناك اشتبك عمرو مع البيزنطيين في قتال عنيف، انتهى بهزيمة الروم، فتحصنوا داخل الحصن، فحاصروهم، وقتلهم قتالاً شديداً، وكان حصن بابلليون من المناعة والحصانة بحيث لا يمكن اقتحام أسواره أو تخريب أبراجه، فلما تعذر على عمرو فتح الحصن وطال الأمر كتب عمرو إلى عمر يستمده فأمره عمر بأربعة آلاف رجل وكتب إلى عمرو: "إن قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبداد بن الصامت، ومسلمة بن مخلد"، ولما طال الحصار على قيرس حاكم مصر أخذ يفاوض عمرو في شروط الصلح وأرسل قيرس هذه الشروط إلى

هرقل فغضب هرقل وأرسل إلى قيرس وقواد الروم يعنفهم على تخاذلهم أمام العرب، ورفض الروم الصلح واستؤنف القتال من جديد.

وفي هذه الأثناء عمد الزبير إلى اصطناع الحيلة، فوضع سُلماً إلى جانب الحصن، ثم صعد معه جماعة، وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً، فكبر الزبير وكبر من معه، فأجابهم المسلمون من خارج، فلما سمع البيزنطيون التكبير لم يشكوا قط في أن العرب قد اقتحموا الحصن، ففر الحراس والمدافعون عن تلك الجبهة، فنزل الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه فتدفق المسلمون في الحصن وتم فتح الحصن بعد ما يقرب من سبعة أشهر، وعقد العرب مع المصريين معاهدة تعرف بمعاهدة حصن بابلين الأولى في سنة ١٩هـ / ٦٤٠م.

وكان لسقوط حصن بابلين أهمية عظمى للفاتحين لأنه كان يعني سقوط مركز الدفاع الأول في مصر، وتفتح الطريق للزحف إلى الإسكندرية، ويبدو أن قيرس سافر إلى بيزنطة لينقل إلى هرقل شروط المعاهدة، ولكن الإمبراطور رفض هذه الشروط وطلب من البيزنطيين استئناف القتال وكان عمرو قد استغل فرصة غياب قيرس في بيزنطة فاستولى على الفيوم وعين شمس والأشمونين إخميم وقرى الصعيد وعلى تنيس ودمياط ودميرة وغيرها، ثم عبر المسلمون نهر النيل متوجهين إلى الإسكندرية حاضرة مصر^(٥٨).

سار عمرو إلى الإسكندرية في ربيع الأول سنة ٢٠هـ / ٦٤٢م بعد أن استخلف على حصن بابلين خارجة بن حذافة بن غانم^(٥٩) واشتبك عمرو مع

البيزنطيين في عدة مواقع محصنة، كحصن نقيوس الواقعة على الشاطئ الشرقي لفرع النيل الغربي، ثم في سلطيس الواقعة على بعد ستة أميال جنوبي دمنهور الحالية، وانهزم البيزنطيون في كل من هذين الحصنين، ثم التقى عمرو مع البيزنطيين في معركة حصن الكريون، وكان أهم معقل بيزنطي أمام الإسكندرية وكانت الكريون تشرف على ترعة الإسكندرية التي يعتمد عليها أهل الإسكندرية في السقي ونقل البضائع، ونشبت بين الطرفين في هذا المكان معركة حامية استمرت عدة أيام انتهت بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً فتراجع البيزنطيون على أثرها بعد أن قتل عدد كبير منهم، وتحصنت فلول الجيش البيزنطي المتراجع في الإسكندرية وكانت الإسكندرية مدينة حصينة لها أسوار محكمة البناء ولها حصن منيع كان الفرس قد أقاموه خلال حقبة احتلالهم للإسكندرية في شرق المدينة من جهة الميناء الشرقية، وأدرك عمرو استحالة استيلائه على الإسكندرية لمناعتها فآثر أن يترك عليها فرقة للرباط ويؤجل اقتحامها لفرصة أخرى بينما توجه لتحرير بقية الوجه البحري^(١٠).

دام حصار الإسكندرية بضعة أشهر، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "ما أبطؤوا بفتحها، إلا لما أحدثوا" وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو حرر الإسكندرية صلحاً يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين للهجرة، وخلف بها ألف رجل من أصحابه، ومضى عمرو من معه في طلب من هرب من الروم إلى البحر، والمتفق عليه أن عمرو بن العاص حاصر الإسكندرية مدة أربعة

عشر شهراً، منها تسعة أشهر بعد موت هرقل، وخمسة قبل ذلك، وأن تحريرها أنجز في أول المحرم سنة ٥٢١هـ / ٦٤٢م^(١١).

لابد من الإشارة إلى أن أهم العوامل المساعدة على تحرير الإسكندرية موت هرقل وضعف الحكومة البيزنطية بعد وفاته، وقيام المنازعات في القسطنطينة من أجل العرش، مما اضطر البيزنطيين إلى التعجيل على إنهاء حالة الحرب، وذلك بعقد صلح مع المسلمين حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية، وقد تم الاتفاق بين الطرفين على أن يدفع أهل الإسكندرية للعرب جزية شهرية وفي مقابل ذلك يتعهد المسلمون بعدم التدخل في شؤون المسيحيين وكنائسهم، والسماح لليهود بالبقاء في الإسكندرية، وأن يبقى المسلمون مدة أحد عشر شهراً خارج المدينة ريثما يبحر عنها الروم، وقد تم جلاء الروم عنها نهائياً في سبتمبر سنة ٦٤٢م.

تحرير برقة وطرابلس:

بعد تحرير مصر سار عمرو إلى برقة أو ما يسميه اليونان بنطابوس Pentapolis أي المدن الخمس وإلى طرابلس Tripolis أي المدن الثلاث: وكلاهما عبارة عن صقع كبير يتكون من شريط ساحلي تتوافر فيه الزراعة بسبب سقوط الأمطار في أودية تتساب إلى برك، ولوجود المياه في الآبار، وخلفه صحراء مجدية أو جبال، حيث يكون جزءا من البلاد الممتدة حتى المحيط، التي كانت تعرف قديماً بلوبية Libya، وللعرب "بالغرب".

وكان يسكن برقة وطرابلس عنصر من الناس يُعرف للعرب باسم البربر، لعلمهم من أجناس البحر الأبيض أو الجنس الحامي، وهم من نفس الجنس الليبي القديم الذي عرفه الفراعنة، فكانت أغليبتهم كالعرب يعيشون في قبائل معظمهم من البدو الذين يتنقلون بين الوديان والجبال للانتجاع، أما من كان قد اختلطوا منهم بحياة الروم فيسمون بالأفاريق (أي المتحضرين)، وقد كانت أهم قبائل برقة وطرابلس: لواتة وهوارة ونفوسة^(١٢).

بعد أن استكمل عمرو بن العاص تحرير مصر كان من الطبيعي أن يفكر في فتح برقة وطرابلس الغرب لعاملين، الأول: أن برقة كانت تعد امتداداً طبيعياً لمصر، وإقليمياً متمماً لها، إذ هي تجاور لوبيا ومراقبة، وهما كورتان من كور مصر الغربية، وكانت برقة وطرابلس قد انفصلتا عن ولاية إفريقية منذ عهد الإمبراطور البيزنطي موريق (٥٨٢ - ٦٠٢م) وأصبحتا رسمياً تابعتين لمصر، وإن كانتا في حقيقة الأمر مستقلتين ولما اشتعلت نيران الثورة في المغرب ضد الإمبراطور المغتصب فوقاس كانت برقة وطرابلس في مقدمة الولايات المغربية التي آزرت جريجوريوس على الانفصال عن الإمبراطورية البيزنطية، ولذلك كان لابد لعمرو بن العاص بعد أن استكمل تحرير مصر أن يبادر بتحرير برقة وطرابلس تأميناً لحدود مصر الغربية من الخطر البيزنطي.

والعامل الثاني هو رغبة عمرو في تطبيق سياسة الاستمرار في التحرير نحو الغرب، وهو أمر يدل عليه سير الفتوحات العربية في الشام ومصر وبرقة

ثم إفريقية والمغرب والأندلس وجنوبي فرنسا، ولم يكن المحاربون العرب يزهدون في مواصلة القتال بعد انتهائهم من تحرير مصر التماساً للمغانم التي كانت تعود عليهم من الغزو، ولم ينتظر عمرو حتى ينتهي تماماً من تحرير مصر، ويتفرغ لفتح برقة، فنراه يبادر بإرسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة "انطابلس" فبعد تحرير مصر في سنة ٥٢٠ هـ وجه عقبة ابن نافع الفهرس إلى زويلة وبرقة فافتتحهما ويؤيد ابن أبي دينار القيرواني هذه الرواية في كتابة المؤنس والظاهر أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة ابن نافع عن بلاد برقة فجعل بتسيير جيوشه لتحريرها.

سار الجيش الإسلامي غرباً حتى قدم برقة، وكانت وقتئذ أشبه بولاية بربرية مستقلة عن الدولة البيزنطية، وكان يسكنها بطون من قبيلة لواته البترية وهي من أكبر قبائل البربر شأنًا وأشدّها بأساً، وكان بربر لواتة ساخطين على البيزنطيين كارهين لحكمهم الجائر، وتعسفهم في جباية الضرائب، كما نقموا منهم لكثرة مظلالمهم، فعملوا على التخلص من الحكم البيزنطي، وكانت قد بلغتهم الأخبار باستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي العرب، وهذا يفسر مبادرتهم بتقديم بفروض الولاء لجيش المسلمين^(٦٣).

بعد إنجاز تحرير برقة توجه الجيش الإسلامي لتحرير طرابلس باعتبارها مفتاح الدخول لقلب إفريقيا وقد تطلب هذا الأمر تسيير جيشين: الأول يسير بمحاذاة ساحل البحر بهدف الاستيلاء على طرابلس وما يليها من مدن الساحل، والثاني يتجه نحو الداخل بقصد السيطرة على الواحات التي ستؤلف

مراكز المقاومة في قلب البلاد إذا ما تركت وشأنها، فسير عمرو قائده عقبة إلى فزان فحررها ثم واصل زحفه حتى بلغ زويلة وكانت مهمة عقبة -على ما يبدو- هي التأكد من طاعة أهل هذه الواحات أو على الأقل وقوفهم موقفاً حيادياً، ونجح عقبة في هذه المهمة وأصبحت المنطقة الممتدة بين برقة وزويلة آمنة أمام تقدم المسلمين.

سار الجيش الأول قيادة عمرو بن العاص لتحرير إقليم طرابلس ومدن الساحل الليبي، فبدأ بمدينة سرت التي تقع بين برقة وطرابلس، فاستولى عليها، ثم زحف على مدينة لبدّة، وكانت قليلة العمران آنذاك، فاستولى عليها، ثم مضى نحو طرابلس وكانت مدينة حصينة، أسوارها من جميع الجهات عدا جهة البحر، فحاصرها شهراً ولم يتمكن من اقتحامها لمناعتها. وتشير الروايات الخاصة بتحرير طرابلس أن جماعة من الجيش الإسلامي من بني مدلج فاجؤوا الروم من جهة ساحل طرابلس بعد انحسار مياه البحر بسبب حركة الجزر ومهدوا السبيل أمام عمرو لدخول طرابلس، وبعد تحرير طرابلس سير عمرو فرقة من الفرسان إلى سبرت (صبراتة) فحرروها، كذلك أرسل قائده بسر بن أرطاة إلى واحة ودان فحررها سنة ٢٣هـ وبذلك تم للعرب تحرير برقة والقسم الشرقي من ولاية طرابلس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٥).

المبحث الثالث

التنظيمات الإدارية في البلاد المفتوحة

بناء المدن الجديدة:

حرص الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه على إقامة قواعد عسكرية في العراق ومصر تكون بمثابة در هجرة للمقاتلين العرب أطلق عليها اسم "الأمصار" أما الشام فلم تنشأ فيه مثل تلك الأمصار لأن الشام كان فيه الكثير من الدور والمدن التي هجرها أصحابها وجلوا عنها فراراً من الحرب، فاستولى عليها العرب واتخذوها سكناً لهم يغنيهم عن بناء دور جديدة.

إن الأساس الذي أنشئت عليه هذه المدن أو الأمصار هو أن تكون قواعد حربية ومعسكرات للجند، إلا أن هذه المدن قُدر لها أن تصبح بعد ذلك مراكز إشعاع فكري وحضاري وديني في قلب الأقطار المحررة، وهذه المدن هي البصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر.

تأسيس البصرة:

هناك عدة أدلة تشير إلى فاعلية العوامل العسكرية في اتخاذ مدينة البصرة خلال المرحلة التأسيسية على الأقل، ومن بين هذه الأدلة:

١- تتفق آراء بعض المؤرخين الرواد في أن عتبة بن غزوان قد نزل ومن معه من المقاتلين في بداية الأمر في معسكرات متقلة، فضربوا أولاً الخيام والقباب والفساطيط، فلم يكن في البصرة بناء لهم، فهي تعكس فكرة أن الموضع الذي نزل به عتبة كان يمثل مخيماً عسكرياً.

٢- حينما نجح عتبة في هجماته رأى أهمية موقع المخيم استراتيجياً في حربه ضد الفرس فكتب إلى الخليفة عمر رضي الله عنه بضرورة اتخاذ هذا الموضع ليجتمع فيه العرب قائلاً ما نصه "لابد للمسلمين من منزل يشنون به إذا شتوا، ويسكنون فيه إذا انصرفوا عن غزوهم".

٣- أن الخليفة عمر رضي الله عنه قبل أن يعطي الإنذن بتمصير الموضع اشترط على عتبة أن يوافق هذا الموضع جملة من الشروط والمستلزمات لابد من وجودها وتوفرها فقال له: "لا تجعلوا بيني وبينكم بحراً بل مصروها" أي اختر المكان الذي يقع على الأطراف أو الحدود علاوة على هذا الشرط فإن الخليفة اشترط: "بأن يجمع أصحابه في موقع واحد ويسكن قريباً من الماء والمرعى".

نستخلص أن الهدف من هذه الشروط الثلاثة هو تأسيس معسكر للمقاتلين العرب ليكونوا على اتصال سهل بالمدينة وليكون مكاناً يضم المقاتلين فحسب. وبالفعل فقد ركز عتبة بن غزوان في جوابه على رسالة الخليفة عمر رضي الله عنه على المميزات الرئيسية التي تميز به الموضع فإنه: قريب من منابع المياه، يقع على طرف البر، يكثر فيه القص والقصة. فوافق الخليفة قائلاً إنها أرض قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب.

لقد كان من المتوقع أن يتخذ عتبة بن غزوان الأبله قاعدة عسكرية وعاصمة إدارية ومكاناً للانطلاق للحملات العسكرية القادمة للحملات العسكرية القادمة، فالمدينة قديمة وتتمتع بموقع وأهمية اقتصادية وتجارية متميزة ولكن عتبة لم يتخذها انطلاقة من المعايير الرئيسية لاستراتيجية العرب العسكرية، فالأبله ميناء تجاري محاط بالبساتين والأنهار، لذلك ستكون هذه الطبيعة الجغرافية عائقاً أمام الوظيفة التي أنشئت من أجلها البصرة.

وأخيراً استقر الرأي على اتخاذ مدينة البصرة لما لها من أهمية من حيث موقعها كمعسكر للفتوحات الإسلامية، وأصبحت فيما بعد من أعظم مراكز العلم والسياسة والحرب في البلاد الإسلامية وأصبح لها شهرة عظيمة في العالم الإسلامي^(١٦).

تصير البصرة:

كلمة مصر تعني في اللغات الآشورية والعبرية، والآرامية الحدود، ولها في اللغة العربية مثل هذا المعنى، فيقال: "اشتريت الدار بمصورها"، وجاء عن عمر بن الخطاب ؓ أنه قال: "لا تجعلوا بيني وبينكم بحراً بل مصروها" ويقصد اجعلوها على الحدود، ولكن هذه الكلمة أصبح استعمالها منذ زمن عمر ؓ يقتصر بصورة خاصة على الأماكن السبعة(*) التي اتخذها العرب قواعد عسكرية يقومون منها بحملاتهم الحربية وفتوحاتهم وجعلوها مراكز لإدارة البلاد والأقاليم التي يفتحوها وقد ظل الطابع العسكري صفة بارزة لهذه الأمصار طوال القرن الأول الهجري.

وتعتبر البصرة أولى الأمصار التي أمر عمر بن الخطاب ؓ باحتطاطها، وأول من مصرّ البصرة عتبة بن غزوان في سنة ١٥هـ بأمر من عمر ؓ، وقد أدرك الخليفة عمر بن الخطاب ؓ -الذي تمت في عهده أعظم الانتصارات الأولى في الفتوح- أهمية الاستقرار، فأمر في السنوات الأولى من خلافته بتأسيس (أمصار) يستقر فيها المقاتلون وعوائلهم، وتكون قواعد للإدارة ولتحركات الجيوش العربية، ومع أن الغالبية العظمى لسكان هذه الأمصار هم من المقاتلين إلا أن الغرض الأساسي من تأسيسها هو تأمين الاستقرار، وتثبيت نظم إدارية، وتسيير الحياة المدنية، إلا أنها سرعان ما نمت فيها حياة اقتصادية وفكرية عميقة واسعة طغت بمرور الزمن على السمة العسكرية، وأصبحت من

أعظم المراكز الحضرية لا في دول الإسلام فحسب وإنما في العالم المتحضر عموماً.

وفي رواية حول تمصير البصرة (يذكر علي بن المغيرة الأثرم عن أبي عبيدة قال: لما نزل عتبة بن غزوان، الخريبة كتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يعمل نزوله بها، وإنه لابد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا وإذا رجعوا من غزوهم لجؤوا إليه، فكتب إليه: "اجمع أصحابك في موقع وليكن قريباً من الماء والمرعى" فكتب عتبة بن غزوان كتاباً يقول فيه: "إني وجدت أرضاً كثيرة القضة في طرف البر إلى الريف ودونها منافع ماء فيها قصباء"، فلما قرأ الكتاب قال: "هذه أرض نضرة، فأنزل بها الناس، وبنوا مساكن بالقصب، وبنوا مسجداً".

وقد اختلف المؤرخون حول زمن تمصير البصرة، فكان نزول المسلمين فيها سنة ١٤هـ، إلا أن تخطيطها لم يتم إلا سنة ١٧هـ ومن هنا نشأ الاختلاف، وذكر ابن الأثير أنها مصرت في سنة ١٤هـ.

إلا أنه يقول: في رواية أخرى (أنها مصرت في ربيع - سنة ١٦هـ) على أن بعض المؤرخين ذكروا أنها مصرت في سنة ١٥هـ، ويقول الهمداني: "ويبدو أن نزول المسلمين أولاً في الخيام، ثم سمح لهم عمر ﷺ باستخدام القصب ثم اللبن، كان سبب الخلاف في تحديد الزمن الذي مصرت فيه".

ويقول البلاذري: "إن أبا موسى الأشعري ولي البصرة سنة ١٦هـ" ويقال سنة ١٧هـ، وثبتت أن أبا موسى ولي البصرة في سنة ١٦هـ وهذا يقتضي أن عتبة أرسل قبل ذلك التاريخ، وتقرب هذه الرواية من ادعاء سيف بن عمر "أن البصرة

مصرت في ربيع - سنة ١٦هـ، وأن عتبة بن غزوان خرج إلى البصرة من المدائن بعد فراغ سعد من جلولاء وتكريت ولعله وجهه إليها سعد بأمر عمر رضي الله عنه. ويجدر أن نشير إلى أن الواقدي يقول: "أنشئت البصرة سنة ١٧هـ من التاريخ، قبل الكوفة بستة أشهر، وأنشئت الكوفة سنة ١٨هـ من التاريخ" ومع أن التاريخ المذكور عن تأسيس البصرة، إلا أنه يوحى بتأخر إرسال عتبة بن غزوان إلى البصرة^(١٧).

لم تتفق الآراء تماماً حول توقيتات إنفاذ عتبة إلى المنطقة، وظهور البصرة فضلاً عن التناقض في علاقات الوقائع وعرض الظروف التي رافقت التأسيس ويمكن القول أن هناك مجموعتين مختلفتين من الروايات، الأولى تجعل من سنة ١٤هـ / ٦٣٥م تأسيس المدينة وأن الخليفة عمر هو الذي أرسل عتبة في شهر ربيع الأول من تلك السنة لفتح الأبله بعد مقتل شريح بن عامر الذي كان قد أول إليه قيادة عمليات المشاغلة والإغارة على القوات الفارسية هناك، فمكث عتبة عدة أشهر دون قتال، الأمر الذي دفع الخليفة إلى أن يوجه بدلاً عبد الرحمن بن سهل، لكنه مات قبل أن يصل البصرة، فانتدب العلاء بن الحضرمي الذي كان في البحرين ليتوجه إلى البصرة ويحل محل عتبة، وقد توفي هذا أيضاً، وفي هذه الأثناء أغار عتبة ففتح الأبله ثم الفرات وبرقباد، وفي هذا السياق نجد رواية أخرى أن الخليفة عمر رضي الله عنه ولي عتبة أمر فتح الأبله بعدما بلغته أخبار قطبة بن قتادة، وما كان يقوم به من غارات على الفرس وما أبداه

وقومه من مساعدة للقائد خالد بن الوليد عندما اجتاز منطقة البصرة سنة ١٢هـ / ٦٣٣م متوجهاً نحو الكوفة.

أما المجموعة الثانية من الروايات فتشير إلى أن البصرة أسست سنة ١٦هـ أو ١٧هـ وأن عتبة توجه إلى منطقة البصرة بناء على أوامر من القائد العام للجيش الإسلامية في العراق سعد بن أبي وقاص، وكان تحت إمرته، وكان سعد قد تسلم أمراً من الخليفة عمر بهذا الشأن حول إنفاذ عتبة إلى تلك المنطقة، فيذكر الطبري أن سنة تمصير البصرة هي ١٦هـ / ٦٣٧م بينما يحددها يعقوبي سنة ١٧هـ / ٦٣٨م، ويقول ابن الفقيه أن عتبة نزلها سنة ١٦هـ ومصرها سنة ١٧هـ أما رواية المسعودي وهي الأقرب إلى الدقة فتشير إلى وقوع حادثين الأولى كانت سنة ١٤هـ / ٦٣٥م عندما وصل عتبة أراضي البصرة وأقام فيها معسكراً مؤقتاً اتخذ كنقطة انطلاق لغزوات محدودة على التخوم القريبة، والثانية هي تمصير البصرة في شهر محرم سنة ١٧هـ أو في ربيع الأول أو الثاني سنة ١٦هـ.

إن التدقيق في تلك الروايات يكشف لنا أن هذا التناقض أو الاختلاف هو مفتعل ولا ينسجم وسير الأحداث، وربما أوجدته دوافع وظروف أخرى، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن أصحاب القرار في شبه جزيرة العرب قد فكروا بتأسيس مدينة مستقرة أو (دار هجرية) حضرية، والأمر لم يحسم بعد على أرض العراق في تلك المواجهة العسكرية مع الإمبراطورية الساسانية ونعتقد أنه لا يصح الحديث عن موضوع تأسيس أو تمصير مدينة قبل النصر الحاسم في

القادسية وطررد فلول الجيش الساساني من أرض العراق واستقرار الأمور نهائياً لصالح المسلمين.

يمكننا أن ننتهي إلى أنه كانت هناك لحظتان واضحتان في ظهور البصرة، الأولى تمثلت في الإقامة المؤقتة سنة ١٤هـ بعد معركة البويب مباشر، والثانية هي الإقامة الدائمة المصحوبة بالتخطيط والبناء بعد النصر الحاسم في معركة القادسية، وفراغ العرب من السيطرة على العراق وطررد القوات الساسانية منذ سنة ١٦هـ / ٦٣٧م، وينسب المؤرخون المسلمون بحق تأسيس البصرة إلى الصحابي عتبة بن غزوان.

تأسيس الكوفة:

كان تأسيس الكوفة إحدى الضرورات الحربية التي اقتضتها طبيعة الفتح الإسلامي لبلاد فارس في زمن عمر بن الخطاب ؓ فقد اندفع الجيش العربي تحت قيادة سعد بن أبي وقاص بعد فتوح السواد بين المدينة حاضرة الدولة الإسلامية في ذلك الوقت وبين ميدان القتال، فكان من الضروري أن يتخذ الجيش الإسلامي المحارب نقطة ارتكاز له أو معسكراً ثابتاً قريباً من ميدان القتال فأصدر عمر أمره إلى سعد بأن "يتخذ للمسلمين دار الهجرة وقيروناً" وكان سبب اتخاذها أن المسلمين اتخذوا المدائن قاعدة حربية لهم بعد موقعة القادسية واستمرت كذلك حتى شاهد عمر بن الخطاب ؓ تغيراً في وجوه من نزلوها

وضعفاً، فسألهم عمر بن الخطاب ﷺ عن سبب ذلك فقالوا: وخومة البلاد غيرتنا، فأمرهم أن يرتادوا منزلاً ينزلون فيه المسلمين.

وقيل: بل كتب حذيفة بن اليمان إلى عمر: أن العرب قد رقت بطونها وجفت أعضائها وتغيرت ألوانها، وقد كان حذيفة مع سعد، فكتب عمر إلى سعد: "أخبرني ما الذي غيّر ألوان العرب ولحومهم" فكتب إليه سعد: "إن الذي غيرهم أن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إيلها من البلدان" فكتب إليه عمر: "أن أبعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً برياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر" فأرسلهما سعد، فخرج سلمان حتى أتى الأنبار فسار في غربي الفرات لا يرض شيئاً حتى أتى الكوفة.

وكان من العوامل التي دفعت العرب إلى اتخاذها من أجل تكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق أو دار هجرة وعاصمة للمسلمين بدل المدائن، فسكنتها القبائل العربية، وأيضاً لأن الجيش الفاتح لم يطب له المقام في المدائن عاصمة بلاد فارس فظهر على جنده السقم لاعتيادهم جو الصحراء، حيث سرعان ما كره العرب المدائن لرداءة جوها، وبعث عمر بن الخطاب ﷺ لهم يقول: "إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها الإبل" وأيضاً لأن عمر بن الخطاب ﷺ رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها، وأمر بثاقب بصيرته أن يبني لهم معسكراً على حدود الجزيرة الشرقية حتى يظل اتصالهم بالجزيرة وحتى لا ينساحوا في البلاد المفتوحة.

وكذلك لأنه عندما نزل سعد الأنبار فاجتؤوها وأصابهم الحمى فكتب سعد إلى عمر يخبره بذلك فكتب إلى سعد أنه لا تصلح العرب إلا حيث يصلح البعير والشاة في منابت العشب فانظر فلاة في جنب البحر فارتد للمسلمين بها منزلاً، وأيضاً لأنه عندما نزل المسلمون المدائن وطال بها مكثهم وآداهم الغبار والذباب فرووا أن يغيروا المكان والانتقال إلى مكان يناسبهم فنزلوا إلى الكوفة واتخذوها بلاد والاستقرار بها، وقد اشترط عمر بن الخطاب رضي الله عنه القيام بإنشاء المدينة بالقرب من مراكز قديمة هي الحيرة، وأن يراعوا في اختيارها أن يكون مناخها مناخاً صحراوياً وكذلك أن تكون على أطراف المنطقة الزراعية (الريف) ولا يفصلها عن الجزيرة أي حاجز مائي قد يعيق حركة الجند أو الهجرات إليها، وفي رواية الطبري أنه عندما رجع سعد بالناس من جلواء قدم عمار وخرج بالناس إلى المدائن فاحتؤوها، قال عمار: هل تصلح بها الإبل، قالوا: لا، إن بها السبعوس، قال عمر: إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها الإبل، قال: فخرج عمار بالناس حتى نزل الكوفة.

وتختلف الروايات في طريقة اعتداء سعد إلى هذه المنطقة التي اختط فيها الكوفة، وأياً ما كانت الرواية الصحيحة فإن النتيجة التي نصل إليها من بين هذه الروايات المختلفة هو أن اختيار الموضع الذي قد تم فيه تأسيس الكوفة لم يكن أمراً مرتجلاً إنما كان بعد نظر طويل وبحث دقيق وهي نتيجة لا تقبل اختلافاً ولا يطعن فيها تعدد الروايات التي انتهت بنا إليها.

أما بصدد تاريخ تمصير الكوفة: فهناك تبايناً واختلافاً في سنة تمصيرها فالبعض يجعل تأسيسها في سنة ١٤هـ / ٦٣٥م وهناك من المؤلفين من جعل سنة تمصيرها سنة ١٥هـ / ٦٣٦م، وقد ذكر المسعودي أيضاً أن سعد بن أبي وقاص قد مصرّ الكوفة في سنة ١٥هـ / ٦٣٦م^(٦٨). في حين يرى آخرون أن تأسيسها في سنة ١٧هـ / ٦٣٨م، وهم من المؤلفين القدامى ويرى آخرون بأن تأسيسها سنة ١٨هـ / ٦٣٩م ورأي آخر يشير إلى أنها مصرّت في سنة ١٩هـ / ٦٤٠م، ولكن المتفق عليه أنها مرت بعدة مراحل قبل التمهيد النهائي الذي جاء بعد تمصير البصرة، وتم اختيارها وتوزيع خطتها في سنة ١٧هـ / ٦٣٨م.

تأسيس الفسطاط:

أول ثمار تحرير مصر تأسس الفسطاط فقد ذكر أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنه في ذلك فسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه هل يحول بيني وبين المسلمين ماء فأجابه عمرو بن العاص نعم يا أمير المؤمنين فكتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم فتحول عمرو من الإسكندرية إلى المكان الذي سمى فيما بعد الفسطاط.

بنيت مدينة الفسطاط سنة ٢١هـ وذلك بناء على رغبة أمير المؤمنين على غرار البصرة والكوفة في العراق، وأصبحت عاصمة البلاد ومركزاً إسلامياً وقاعدة عسكرية يمكن للعرب أن يواصلوا منها التقدم نحو المغرب، وكان عمرو

ابن العاص يريد أن يتخذ له حاضرة ليستقر فيها وكان اختيار المكان طبيعياً ولم يكن اختياراً اعتباطياً.

بنى عمرو بن العاص أول مسجد للإسلام في مصر وكان يسمى جامع عمرو بن العاص أو (الجامع العتيق).

وذكر أن مكان المسجد كان خاناً لقيسبة بن كلثوم من بنى سوم سأل عمرو قيسبة في منزله هذا أن يجعله مسجداً فقال قيسبة أني أتصدق به على المسلمين فسلمه إليهم واختط مع قومه وبنى الجامع في سنة ٢١هـ وكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين ذراعاً.

بنى المسجد على نفس النسق الذي بنى عليه مسجد النبي عليه السلام في المدينة وإلى جانب المسجد الجامع بنى عمرو بن العاص دار الإمارة ثم قسم الأرض فيما حول المسجد ودار الإمارة إلى خطط ووزعها على القبائل العربية التي استقرت في المدينة وأصبح المسجد مع مرور الوقت موضع عناية الولاية والأمراء فأخذ يزداد في حجمه ومكانته.

وقام العرب بحفر القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر فسارت السفن من مصر إلى الحجاز وسميت بخليج (أمير المؤمنين) كما فتحوا الترع والجداول التي أهملها الرومان وأصلحوا طرق المواصلات فتحسنت حال الفلاحين.

وبخصوص تسمية الفسطاط فقد تعددت الآراء في تسمية هذا المكان بالفسطاط، فالرأي الأول يعتمد على قصة اليمامة، وأن عمرو بن العاص عندما

أراد التوجه لتحرير الإسكندرية أمر بنزع فسطاطة (الخيمة) فإذا به يمامة قد باضت بيضها، فقال عمرو: تحرم علينا فأقرأها هو عليه وأوصى به حتى تفرخ اليمامة وتطير صغارها.

وعند رجوع المسلمين من الإسكندرية بعد أن أوصاهم عمر بن الخطاب ﷺ عدم البقاء في مكان يحول الماء فيه بينه وبينهم فقالوا أين ننزل؟

قالوا: الفسطاط يعنون فسطاط عمرو بن العاص الذي خلفه بمصر، وهناك رأي آخر أن كل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط وإنها كلمة تعني المدينة.

والرأي الثالث يقول أن كلمة الفسطاط قد أخذت من الكلمة الإغريقية Fessatum بمعنى المدينة وأن العرب نقلوها عن اليونان عند اتصالهم بها وأصحاب هذا الرأي غالبيتهم من مؤرخي الفرنجة، وفريق آخر يقول أن كلمة الفسطاط تعني المعسكر^(٦٩).

كانت هذه الأمصار ثمرة من ثمار حركة التحرير العربية الإسلامية التي انطلقت من شبه جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي، وقدّر لهذه الأمصار أن تلعب دوراً هاماً في الحياة السياسية للدولة العربية الإسلامية، وأن تصبح مراكز علمية هامة في العصر الإسلامي، حتى قيل أن تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والحضاري خلال القرون الأولى للهجرة كان تاريخ هذه المدن والأمصار، والملاحظ في بناء هذه المدن الإسلامية أن العرب حرصوا عند تخطيط هذه المدن أن تكون داخل البلاد بعيداً عن السواحل حتى لا تتعرض

للمغزوات البحرية، كما راعوا فيه أيضاً أن يتوفر فيها ما يتناسب مع حياتهم البدوية من مراعي الإبل وما يصلح لها، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "... وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم، كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها في العراق وأفريقيا، فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالْبصرة والكوفة والقيروان وأمثالها" (٧٠).

ولابد من الإشارة إلى مسألة على جانب كبير من الأهمية تتعلق بإدارة البلاد المحررة والمفتوحة وهي إقرار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالاحتفاظ بالنظم الإدارية السابقة على الإسلام في تلك البلاد حتى لا تضطرب الأمور وتسود الفوضى، فضلاً عن عدم توفر الكفاءات العربية اللازمة للإدارة خاصة في الأمور الكتابية وشؤون الخراج وجبايته، وقد استبعد المسلمون من هذه النظم كل ما لا يتفق مع تقاليد العرب ومبادئ الإسلام الحنيف.

التنظيمات المالية:

الديوان:

أدت الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام والعراق إلى ضرورة استقرار الجند، وإقامة معسكرات في البصرة والكوفة في العراق اللتان أمر ببنائهما لتكونا معسكرات دائمة للفتاحين وقاعدتين حربيتين -كما أشرنا- لكي يتم من خلالهما توجيه الجيوش إلى بلاد فارس، هذا بالإضافة إلى كونهما مراكز لنشر الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية في بلاد فارس، وكان المسلمون يحاربون حتى زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدون عطاء أو رزق معين، بل كانوا كلما غزوا بلداً أخذوا نصيبهم من الفبي والغنينة، وعندما تعاقبت الفتوحات الإسلامية وازدادت الدولة في الاتساع أصبح هذا النظام قديماً، فكان من الواجب عندئذ تطبيق نظام جديد، ومن هنا أقر عمر بن الخطاب نظام الديوان.

وذكر ابن خلدون في مقدمته أن: "من الوظائف المهمة للدولة وظيفة الدواوين وهي القيام على أعمال الجباية وتسجيل مخصصات الدولة في الداخل والخارج وتعداد الجنود وتسجيل أسمائهم وتقدير مرتباتهم وصرف مكافآت لهم والعودة في ذلك إلى القوانين التي يتصفها رعيته، تلك الأعمال جميعها مدونة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك من الداخل والخارج يعتمد على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا الموظفين المهرة من أهل تلك الوظائف ويسمى ذلك الكتاب بالديوان"^(٧١).

فالديوان وضع لحفظ كل ما يختص بحقوق البلاد من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، وبهذا المفهوم لم يكن للديوان وجوداً في زمن الرسول ﷺ أو الخليفة الأولى أبي بكر الصديق ؓ ذلك أن الرسول ﷺ وكذلك الخليفة أبي بكر لم يفرض أي منهما عطاء مقررًا للمسلمين، بل كانوا يأخذون نصيبهم من الغنائم بحسب ما قرره الشريعة، وإذا ورد إلى المدينة شيء قسمه النبي عليهم في المسجد.

وقد تعددت الآراء في أصل كلمة ديوان فمنها من يقول أنه عربي ومعناه الأصل الذي يرجع إليه ويعمل بها جاء فيه، ومنها قول أنت عباس: "إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب"، ويقال دونته أي أثبتته وإليه يميل كلام سيبويه.

أما السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كيف عرف العرب الديوان؟ مما لا شك فيه أن الخليفة عمر بن الخطاب ؓ يعد واضع أسس الحكم الإسلامي من الناحية العملية، ويستدل على ذلك بقول المؤرخين: إن عمر أول من وضع الديوان أو دَوَّن الدواوين، وقد كان أغلب موظفي الدواوين من أهالي البلاد المفتوحة لأن معظم العرب خاصة في أول أمرهم، لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة إلا في حالات قليلة.

لهذا لم يشترط عمر بن الخطاب في الكتاب أن يكونوا عرباً أو مسلمين وقد أنشأ عمر بن الخطاب الديوان في سنة ٢٠هـ بعد فتح بلاد الشام والعراق

ليكون سجلاً يحوي قائمة بأسماء الجنود المقاتلين وأنسابهم وأعطياتهم، وكان الديوان مفتوحاً للعرب جميعاً متى التحقوا بالمقاتلين في المراكز التي خصصت لهم.

ولم يكن للجند عطاء معين زمن الرسول ﷺ بل كان يجري تقسيم الغنائم خمسة أقسام، واحد منها للرسول ﷺ وأربعة أخماس تقسيم بين رجال الجيش، وكذلك كان الحال زمن أبي بكر كما سبق الإشارة كذلك، فلما جاء عمر بن الخطاب لم يأخذ بمبدأ التسوية في العطاء بل وضع للجند ديواناً رتبهم فيه.

ويشير الطبري إلى أن عمر بن الخطاب فرض لأهل الفيء للذين أفاء الله عليهم من سكان المدائن والقادسية وبلاد الشام الذين انتقلوا إلى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر، وقال: "الفيء لأهل هؤلاء الأمصار لمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم ولن يفرض لغيرهم" (٧٢).

وتعددت الآراء في سبب وضع الديوان، فأرجعه ابن خلدون في مقدمته لسبب أنا مالاً جاء به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين فسأله عمر بن الخطاب ﷺ عن قيمته فأخبره أنها خمسة آلاف ألف درهم فاستكثره وتعبوا في قسمه إلى إحصاء الأموال وخطب العطاء والحقوق، فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال: لقد رأيت ملوك الشام يدنون فوافقه عمر في ذلك ثم دعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا من شباب قريش، وأمرهم بكتابة الناس على منازلهم.

وفي رواية أخرى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشار الصحابة فيما فعل بالأموال الكثيرة هذه فكان قول الإمام علي بن أبي طالب إليه أن تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال فلا تمسك منه شيئاً، وقال عثمان بن عفان: أرى مالا كثيراً يكفي الناس، وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، وذلك مخافة أن ينتشر الأمر وهذه الرواية تشير على أن نشأة الديوان تعود إلى أصول عربية.

وذكر بعض الإخباريين في رواية أخرى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين شاور الصحابة في تدوين الدواوين قال: "رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض فارس، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله..." فأيده الصحابة فيما قال.

فدعى مجموعة من رجالات قريش وأمرهم بكتابة الناس على منازلهم فبدؤوا ببني هاشم ثم اتبعوهم أبا بكر وأهله وعثمان وأهله ثم عمر بن الخطاب وأهله ودونوا القبائل ووضعوها على الخلافة، ثم رفعوا ما تم تدوينه إلى الخليفة عمر، فرفض ذلك، وأمر أن تكون البداية بقرابة رسول الله الأقرب ثم الأقرب فرتبوا الناس طبقات مبتدئين بالعباس عم الرسول ﷺ ثم بني هاشم ثم من يليهم من قبائل قريش بطن بعد بطن حتى يستوفي جميع قريش، ثم قام بتدوين الأنصار، فبدأ برهط سعد بن معاذ من الأوس ثم الأقرب فالأقرب لسعد.

وقد قيل أنه بدأ بمن شهد بدر من المهاجرين والأنصار لكل رجل خمسة آلاف درهم في كل سنة ومعهم أحلافهم ومواليهم على السواء، وفرض لمن له

إسلام كإسلام أهل بدر، وكذلك من هاجر إلى الحبشة ممن شهد معركة بدر أربعة آلاف درهم لكل رجل، وفرض لمن شهد فتح مكة وقاتل قبل معركة القادسية ثلاثة آلاف، ولأهل القادسية والشام ألفين ألفين، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف لقربته برسول الله ﷺ، وفضل على من شهد معركة بدر أزواج الرسول فجعل لكل منهن عشرة آلاف ما عدا السيدة عائشة ففرض لها اثني عشر ألفاً، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم، ولم ينقص أحداً عن ثلاثمائة ولم يغفل الديوان حق من أسلم من العجم في العطاء.

وبهذا نلاحظ أن القاعدة التي اتبعتها عمر مقياساً لتوزيع العطاء فكانت لها خلفيات متصلة بمبدأ أساسه النسب والقربة برسول الله ﷺ ثم بمبدأ الأسبقية في الإسلام أو المشاركة في أحداثه التاريخية البارزة خاصة المعارك الأولى^(٧٣).

وأنشئت في زمن عمر بن الخطاب عدة دواوين أخرى غير ديوان العطاء منها ديوان القضاء ودواوين الإحصاء والخراج والمحاسبة التي لم تكن من المؤسسات الموجودة قبل زمنه فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور، ووكل معظم الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة، وليس من أن يقوم بها العرب لأن أولى بهم فرائض الدفاع والجهاد، فلو وجد منهم من يتقن لتلك الأعمال لكانت خسارة الدولة في قيامهم بها أكبر من ربحها، ولكنهم غير موجودين ولا عملهم فيها باللازم للمصلحة الكبرى، وقد يكون عمل السوري من مصلحة سورية، والعراقي من مصلحة العراق أجدر.

العملة:

لم يكن للعرب عملية خاصة بهم قبل الإسلام وذلك لعدم وجود نظام دولة في منطقة الحجاز بالمعنى المعروف للدولة، لذلك أبقى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ على نظام العملات المتداولة في البلاد المحررة والمفتوحة وهي عملات فارسية في العراق والمشرق ورومية في الشام وشمال أفريقيا وحميرية في اليمن، وهي عملات كان يتعامل بها العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، ومن المعروف أن الرسول ﷺ أقر "العملة" على ما كانت عليه وأن المسلمين كانوا يتعاملون في عصر الرسول بهذه العملات لأنه لم يكن من اليسير على العرب في هذه المرحلة أن يسكوا عملات جديدة لأنفسهم في ظروف دولتهم الناشئة تلك، بينما يرجع ابن خلدون ذلك إلى "سذاجة العرب وبدائيتهم" (٧٤).

لقد تعامل العرب في الحجاز تجارياً مع البيزنطيين والفرس، وكان من الطبيعي أن يستخدموا عملات هذين الشعبين في معاملاتهم معهم، وهي الدرهم الساساني (الفضي)، والدينار البيزنطي (الذهبي)، واستمر التعامل بها في زمن الرسول ﷺ وكذلك في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ.

وبعد تحرير بلاد الشام والعراق ومصر وبرقة في زمن عمر بن الخطاب ﷺ وانسحاق العرب الفاتحين في هذه البلاد وإدارتها لم يفكروا في تغيير السكة ذات النقوش المسيحية (البيزنطية) أو تغيير السكة ذات الطابع المجوسي (الساسانية) ما دامت هذه السكة مألوفة لديهم وما دامت تؤدي الغرض منها بين

الغالبين والمغلوبين، وما دام الإبقاء على هذه العملات يساعد على استقرار البناء الاقتصادي في الدولة العربية الإسلامية، لذلك كان قرار عمر الإبقاء على هذه العملات الفارسية بنقوشها البهلوية والبيزنطية بنقوشها اليونانية، ومع ذلك فقد حرص عمر بن الخطاب ﷺ على إضافة بعض النقوش والكتاب العربية ذات المعاني الإسلامية مثل "الحمد لله" و"محمد رسول الله"، كما أضاف على نقوش الفلوس البرونزية المضروبة في دمشق كلمة "جايز" وعلى الفلوس المضروبة في حمص كلمة "طيب" أو "واف" إشارة إلى الوزن الصحيح، والملاحظ أن أسماء المدن كانت تنقش باليونانية والعربية معاً كدمشق وحمص وطبرية وبعبك وإيليا وقنسرين (٧٥).

نظام الضرائب:

من جانب آخر أقر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ النظم المالية الساسانية في العراق وفارس بينما أقر النظم البيزنطية في الشام ومصر، وكان ذلك سبباً في الاختلاف الواضح بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة في العراق عنها في الشام ومصر، وقد حمل على إيجاد هذا الاختلاف، اختلاف لغات الدواوين فيما بينها في الأراضي المفتوحة، وكان من الصعب جداً في تلك الظروف والتطورات المتسارعة أن يقدم الخليفة عمر ﷺ على نقل هذه الدواوين إلى اللغة العربية ويستخرج منها نظاماً موحداً يعرضه على الدولة العربية كلها.

وأهم الضرائب في هذه المرحلة هي: الخراج والجزية، والخراج هو ما وضع على الأرض من حقوق تؤدي عنها ويختلف مقدار هذه الضريبة باختلاف ما صولح عليه المقلوبون من أرضهم عنوة أو صلحاً بغير قتال، مع مراعاة نوعية الأرض بالنسبة للزروع تزيد أو تقل من المحاصيل والغلات، ونوعية الزروع، ونوعية السقي سواء بالأمطار أو الدوالي أو السقي السحي المباشر من الأنهار^(٧٦).

أما الجزية فضريبة على الرؤوس يلتزم بها أهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس والصائبية، اسمها مشتق من الجزاء، ولا تجبى من النساء والصبيان والشيوخ أو من العبيد، وكانت قابلة للتعديل بحسب حالة الشخص، وقد فرضت الجزية على أهل الذمة مقابل تعهد المسلمين بالدفاع عنهم وحمايتهم وعدم انخراطهم في الجيش الإسلامي.

بيت المال:

في خلافة عمر بن الخطاب أنشئ بيت المال، وكان الهدف منه حفظ الأموال الفائضة عن حاجة الجند، ثم تطور نظام بيت المال وتعددت موارده، وكانت هذه الموارد تعتمد أساساً على الزكاة أو الصدقات التي تفرض على المسلمين وتعد رصيماً مالياً للإنفاق على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وفي الرقاب وفي سبيل الله.

وفي أعقاب النجاحات التي تحققت في حركة الفتوح في زمن عمر رضي الله عنه حدث تطور هام في نظام بيت المال ومصادره، فأصبحت موارده من الفائض من مال الخراج والجزية والعشور بعد استبعاد النفقات العامة ونفقات الجيش، كما ضمت إليه الأراضي التي جلا عنها أهلها وأملاك العائلة الساسانية الحاكمة في فارس بعد سقوط دولتهم، وسميت بالصوافي^(٧٧).

تنظيمات إدارية أخرى:

القضاء:

الشؤون القضائية في البلاد المفتوحة كان يشرف عليه بالنسبة للعرب رجل دين يسمى "القاضي" وإن كان عليه أن يشرف على الفيء والغنائم أيضاً، أما الشؤون الخاصة بالقضايا بين الرعية يشرف عليها رجال الدين من أهالي البلاد المفتوحة، ولا ريب أن القضاء لم يبلغ مبلغ القوة كما بلغه في خلافة عمر، بحيث أنه كان من الجائز أن يشكو أحد الرعايا عامل الخليفة للخليفة^(٧٨).

التاريخ الهجري:

كذلك يرجع الفضل في تنظيم مسألة التاريخ الهجري، فالعرب كانت تتبع تواريخ مختلفة على حسب الأحداث التاريخية المهمة مثل: يوم الفيل والسييل والعزم، لكن بمجيء الإسلام وقع اختيار المسلمين على سنة هجرة النبي إلى المدينة سنة ٦٢٢م مبدأ لتقويمهم، لأن تاريخ البعثة مختلف فيه، كما أن وفاته

كانت تشير الحزن والشجن، مما حدا بهم إلى اختيار الهجرة لأنها حدث فرق بين الحق والباطل ومنعرج كبير في التاريخ الإسلامي لم يختلفوا في تاريخه. ومع ذلك فمن المؤكد أن التاريخ الهجري لم يتخذ أساساً للتقويم إلا في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حوالي سنة ١٧هـ / ٦٣٨م والذي دعاه إلى ذلك هو أن الخلافة الإسلامية كانت قد اتسعت واحتاج الخليفة إلى مخاطبة الولاة وتأريخ كتبهم إليهم، أما قبل ذلك في عصر الرسول وأبي بكر فكان يؤرخ بسني إقامة النبي في المدينة.

وقد اتخذ العرب لتاريخ الهجرة السنة القمرية وهي التي وردت في القرآن الكريم عدة مرات "هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقتره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب"^(٧٩). وعلى الرغم من أن الهجرة كانت في ربيع الأول فإن المسلمين اختاروا شهر المحرم بداية لتاريخهم لأنه شهر حرام، ولأنه أول الشهور في العدة ومنصرف الناس من الحج، فكانت شهور التقويم بالترتيب الآتي: (المحرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، وذو الحجة) ولأن الليل سابق النهار اتخذ التاريخ الهجري الليالي أساس التوقيت، لذلك ظهر عند العرب بعض التعبيرات الخاصة بهم منها: أول ليلة في الشهر أو العام، أو الليلة خلت، أو لثلاث خلون من الشهر... الخ.

هوامش الفصل الثاني

- ١- محمود الدرة، معارك العرب الكبرى، بيروت، ١٩٦٤، ص ٣٣٢.
- ٢- البلاذري، ص ٣٥٤ - ٣٥٥.
- ٣- شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢، ص ٧١.
- ٤- البلاذري، ص ٣٥٥، الطبري، ج ٣، ص ٦٧.
- ٥- الطبري، ج ٣، ص ٦٧.
- ٦- البلاذري، ص ٣٥٦.
- ٧- المصدر نفسه، ص ٣٥٨، ابن الأثير، ج ٢، ص ٣٦٢.
- ٨- شكري فيصل، ص ٧٨.
- ٩- معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٤ - ٤٥.
- ١٠- ابن الأثير، ج ٢، ص ٣٦٨.
- ١١- لذلك يطلق عليهم "البارثيون" أيضاً.
- ١٢- ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٥١ - ٤٥٢.
- ١٣- محمد خالد، أعلام الصحابة المجاهدون، دار القلم، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٢.
- ١٤- ابن أعثم الكوفي، الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، ج ٣، ص ١٩٥.
- ١٥- محمود الدرة، ص ٣٥٢ - ٣٥٤.
- ١٦- ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٥٣.

- ١٧- سيف الدين الكاتب، المثنى بن حارثة الشيباني، ط٨، دار اقرأ، بيروت، ١٩٩٢، ص ٧٥-٧٦.
- ١٨- انظر: محمود الدرة، ص ٣٥٥-٣٥٧.
- ١٩- أحمد عادل كمال، القادسية، ط٩، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣٩.
- ٢٠- ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٥٦-٤٥٧.
- ٢١- الدنسيوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، د.ت ص ١٢١-١٢٢.
- ٢٢- ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٥٧.
- ٢٣- محمود الدرة، ص ٣٧٠-٣٧١.
- ٢٤- ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٥٧.
- * - تاريخ هذه المعركة مختلف عليه فالطبري وابن الأثير يجعلونها في المحرم، سنة ١٤هـ، وإن كان كل منهما يشير إلى احتمال وقوعها في سنة ١٥هـ وربما في سنة ١٦هـ، ولكن أرجح الآراء تؤكد أن المعركة كانت سنة ١٥هـ / ٦٣٦م.
- ٢٥- الذهبي، تاريخ الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٧، ج ٣، ص ١٤٣.
- ٢٦- ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٧٣-٤٧٤.
- ٢٧- الطبري، ج ٣، ص ٥٦٣-٥٧٤، ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٧٥.
- ٢٨- محمود الدرة، ص ٣٨٢-٣٨٣.

* - ويقصد بها على ما نعتقد تركيز بعض الأخشاب في الماء ليستريح عليها السابح.

- ٢٩- الدنيوري، ص ٩٦.
- ٣٠- الدخان: ٢٥.
- ٣١- الدنيوري: ٩٦ - ٩٨.
- ٣٢- المصدر نفسه، ص ٩٨-٩٩، محمود الدرة، ص ٣٨٩.
- ٣٣- الطبري، ج ٤، ص ٣٥-٣٧.
- ٣٤- المصدر نفسه ص ٣٨.
- ٣٥- محمود الدرة، ٣٩٧، أبو زيد شلبي، خلفاء راشدون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٢٦-١٢٧.
- ٣٦- البلاذري، ص ٣٦٤.
- ٣٧- الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٩٩.
- ٣٨- المصدر نفسه، ص ٩٩-١٠٠.
- ٣٩- الدنيوري، ص ١٢٨ - ١٢٩.
- ٤٠- المصدر نفسه، ص ١٢٩.
- ٤١- الدنيوري، ص ١٣٠-١٣٤، ابن الأثير، ج ٤، ص ٤-٧.
- ٤٢- الطبري، ج ٤، ص ١٢٠، الدنيوري ص ١٣٧، البلاذري ٣٧٥.
- ٤٣- البلاذري، ص ٣٧٧.
- ٤٤- الدنيوري، ص ١٣٩-١٤٠.
- ٤٥- البلاذري، ص ٢٦٠ وما بعدها.

- ٤٦- الطبري، ج ٤، ص ٥٤.
- ٤٧- البلاذري، ص ٢١٨.
- ٤٨- الطبري، ج ٤، ص ٣٢.
- ٤٩- المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤، ابن الأثير، ج ٢، ص ٤١٢.
- ٥٠- البلاذري، ص ٢٢١.
- ٥١- ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٢٨، البلاذري، ص ٢٢٢.
- ٥٢- البلاذرين ص ٢١٤.
- ٥٣- المصدر نفسه، ص ٢١٥.
- ٥٤- ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٩٦.
- ٥٥- الطبري، ج ٤، ص ١٥٩.
- ٥٦- البلاذري، ص ٢٢٧.
- ٥٧- أنظر: ابن عبد الحكم القرشي، ص ٨٠ وما بعدها، البلاذري ٢٤١ وما بعدها.
- ٥٨- ابن عبد الحكم، ص ٨٥ وما بعدها.
- ٥٩- البلاذري، ص ٢٥٩.
- ٦٠- ابن عبد الحكم، ص ١٠٦.
- ٦١- المصدر نفسه، ص ١١٤.
- ٦٢- المصدر نفسه، ص ١٣٠-١٧١.
- ٦٣- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، تحقيق ليقى بروفنسال، بيروت، ١٩٥٠، ط ١ ج ١.

- ٦٤- ابن عبد الحكم، ص ٢٣٠ - ٢٣١.
- ٦٥- البكري، معجم ما استعجم، ص ١٢.
- ٦٦- البلاذري ٣٣٦ - ٣٤١، الطبري، ج ٤، ص ١٤٨، المقدسي، ص ١١٧.
- * - وهي: المدينة، الشام، مصر، الجزيرة الفراتية، البحرين، الكوفة، والبصرة.
- ٦٧- الطبري، ج ٣، ص ٢٩٠، البلاذري، ص ٣٤١، ابن الأثير، ج ٣، ص ١٢٥.
الطبري، ج ٣، ص ٢٩٣، المسعودي، ج ٣، ص ٦١١.
- ٦٨- ابن عبد الحكم، ص ٨٩، ابن الأثير، ج ٣، ص ٥٦٤.
- ٦٩- المقدمة، ص ٦٢٠.
- ٧٠- المصدر نفسه، ص ١٩٢.
- ٧١- الطبري، ج ٣، ص ١٦٣.
- ٧٢- انظر: أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ٤٤، البلاذري، ص ١٩٢، الطبري، ج ٤، ص ١٦٤.
- ٧٣- ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٦٢.
- ٧٤- عبد الرحمن، فہمی، النقود العربية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٨.
- ٧٥- أبو يوسف، الخراج، ص ٣٧، ٤٨.
- ٧٦- المصدر نفسه، ص ٥٧.
- ٧٧- ابن الأثير، ج ٢، ٣٣١.
- ٧٨- يونس: ٥.

الفصل الثالث

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

المبحث الأول: نشأته، بيعته بالخلافة، سياسته

المبحث الثاني: فتوحاته وأهم أعماله

المبحث الثالث: الفتنة ومقتل سيدنا عثمان

المبحث الأول

نشأته وبيعته بالخلافة

التعريف به:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي فهو قرشي أموي، يجتمع مع رسول الله ﷺ في "عبد مناف"، ولد بعد ميلاد الرسول ﷺ وقيل أنه ولد بعد عام الفيل بست سنين، وأمه أروى بنت كرز ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي وجسده لأمه هي البيضاء أم حكم بنت عبد المطلب عمه رسول الله ﷺ وبذلك يكون عثمان قد التقى في نسبه من جهة أبيه ومن جهة أمه مع النبي ﷺ بل هو أقرب الخلفاء الراشدين رحماً من النبي بعد علي بن أبي طالب ؓ.

ولد عثمان ؓ بالطائف، وكان من كبار الأثرياء قبل الإسلام وبعده، فقد نشأ في نعمة وعيش خفيض، وكان أبوه تاجراً واسع الثراء يحمل قوافله إلى الشام على دأب الكثيرين من تجار بني أمية، وقد مات في إحدى رحلاته وترك لابنه عثمان ثروة طائلة، فاشتغل بالتجارة مثل أبيه واستثمر أمواله خير استثمار فدرت عليه أرباحاً كثيرة جعلته من كبار الأغنياء.

عاش عثمان ؓ في صباه وفي شبابه عيش أمثاله من الموسرين من قريش عامة ومن بني أمية خاصة، ولا غرو فقد كان تاجراً مرموقاً قبل الإسلام أسهمت أمانته وكرم سجايه في رواج تجارته وكثرة ربحه، كما أسهمت في الابتعاد به عن الانزلاق مع نزوات الشباب، فلم يؤثر عنه أنه كان صاحب نساء، وإن أجمعت الروايات على أنه كان رقيق القلب حلو المعشر، للعاطفة على نفسه سلطان أي سلطان، وكانت رفته وحلاوة معشره تدعوانه لتجنب الأذى والقسوة قدر الممكن والمستطاع.

كان عثمان من السابقين إلى الإسلام، فيروى أنه رابع أربعة أسلموا أول الناس، وقد تحمل الكثير من الأذى في سبيل إسلامه، فقد أوثقه عمه الحكم ابن أبي العاص بعد أن غضب عليه غضباً شديداً، وتوعده بأنه لا يفك وثاقه إلا إذا عاد إلى ملة آبائه وأجداده، ولكن عثمان أبى أن يتقاد إلى تهديد عمه ووعيده، فلما رأى عمه صلابته في عقيدته وتمسكه بإسلامه تركه وشأنه^(١).

هناك عدة روايات ذكرها المؤرخون في سبب إسلامه منها ما ذكره ابن هشام في السيرة: "إن أبا بكر بعد إسلامه جعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان وسبعة آخرون فجاء بهم أبو بكر إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا لدعائه فأسلموا وصلوا"^(٢).

ونكر ابن سعد في الطبقات رواية أخرى مختلفة فقال: "خرج عثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله على أثر الزبير بن العوام فدخلوا على رسول الله

ﷺ فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن وأنبأهما بحقوق الإسلام ووعدهما الكرامة من الله، فأما وصديقاً فقال عثمان: "يا رسول الله قدمت حديثاً من الشام فلما كنا بين معان والزرقاء فنحن كالنيام فإذا منادياً ينادينا أيها النيام هبوا فإن أحمد قد خرج بمكة فقدمنا فسمعنا به"^(٣).

بعد إسلام عثمان تزوج من رقية بنت رسول الله ﷺ فلما آذى مشركو قريش المسلمين أمرهم الرسول أن يتفرقوا في الأرض فراراً إلى الله بدينهم ونصحهم أن يذهبوا إلى أرض الحبشة. وكان أول الذين ذهبوا إليها أحد عشر مسلماً رجالاً ونساءً وكان عثمان وزوجته رقية أسبق هؤلاء إلى الهجرة، ثم رجع عثمان إلى مكة قبل الهجرة إلى يثرب، ثم هاجر هجرته الثانية إلى يثرب (المدينة) وحضر مع رسول الله جميع غزواته ما عدا بدرأ حيث كان يقوم بتمريض السيدة رقية وذلك بإذن من رسول الله ﷺ، وعندما قسم الرسول في بدر جعل لعثمان سهماً فيه كسهم من شهداءها، ولذلك اعتبر عثمان من البدرين.

توفيت زوجته السيدة رقية فحزن عثمان لموتها أشد الحزن، وعرف له رسول الله ﷺ حسن عشرته فزوجه من أختها أم كلثوم، وماتت أم كلثوم في حياة أبيها في السنة التاسعة للهجرة، فحزن عثمان لموتها فكان ما واساه بها رسول الله قوله: "لو كان لنا ثلاثة لزوجناك"، وأشهر الروايات على أنه سمي بذي النورين لأنه تزوج من رقية وأم كلثوم بنتي النبي عليه الصلاة والسلام.

كان عثمان تقياً ورعاً طيب النفس تقي السريرة حلماً متواضعاً رفيقاً بالناس يقول المسعودي^(٤): "كان عثمان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل

في القريب والبعيد، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا به في فعله" وكانت الخصلة التي ميزه بها النبي ﷺ فيما روى المحدثون وأصحاب السير صدق الحياء، روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أصدق أمتي حياء عثمان" فما كان عليه الصلاة والسلام يقول: "إن الملائكة لتستحي من عثمان" كما أنه بفضل مصاحبته للنبي ﷺ وسماعه وحفظه لأحاديثه ومشاهدته لأفعاله واستمداده المستمر من ينابيع حكمته وهدى سنته ومكارم أخلاقه ازداد ترمساً عملياً بالفضائل ومزاولة للعبادة والتقوى فكان المؤمن الودع الذي يصوم نهاره ويقوم ليله ويحج كل عام.

ولما كان عثمان رضي الله عنه جليل القدر بين المسلمين عظيم المنزلة عند رسول الله ﷺ محبوباً في قريش فقد جعله الرسول ﷺ سفيراً في صلح الحديبية بين المسلمين وبين قريش وعندما شاع خبر قتل قريش له بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان تحت الشجرة - على أن يبذل كل منهم نفسه في سبيل الله انتقاماً من قريش على ما اقترفوه من الإثم، ثم ظهر أنه لم يقتل ولم يصب بأذى.

وقد أوتي عثمان حظاً موفوراً من الثراء يقابله حظ أوفر من البذل والعطاء في سبيل الله، فقد كان رضي الله عنه سخياً بما له فيما يصلح المسلمين من ذلك عندما أزمع رسول الله ﷺ الخروج لغزو الروم ببتوك وجهاز جيش العسرة شارك عثمان في ذلك بثلاثمائة بعير كاملة العدة وبألف ينار ورأى رسول الله ﷺ ما صنع عثمان فقال: "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم" وكررها مرتين، ومن ذلك أيضاً أنه كان ليهودي بالمدينة بئر يبيع المسلمين ماءها فقال رسول الله ﷺ: "من

يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها شرب في الجنة" فأتى عثمان اليهودي فساومه فيها فأبى أن يبيعه كلها فاشترى منه نصفها بائتي عشر ألف درهم واتفق مع اليهودي على أن يكون له يوم ولعثمان يوم وجعل المسلمون يسقون في يوم عثمان ليومين، وذهب اليهودي إلى عثمان فقال له: "أفسدت علي بئري فاشتر النصف الآخر فاشتره للمسلمين بثمانية آلاف درهم وجعل رشاءه فيها كرشاء رجل من المسلمين"^(٥).

اختيار عثمان خليفة:

عندما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن في نيته أن يولي خلفاً له فالظروف التي دعت أبا بكر أن يعين خلفاً له قد زالت، إذ انتصرت جيوش المسلمين واستقرت الأحوال، ولكن المسلمين خافوا الفرقة بعد موت الخليفة فعرضوا على عمر أن يعين خلفاً له فتردد، وقال من استخلف؟ لو كان أبو عبدة ابن الجراح حياً استخلفته، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته، فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك يقول: "إنه أمين هذه الأمة، أو سمعت نبيك يقول: إن سالماً شديد الحب لله" فقال له رجل أدلك عليه؟ عبد الله ابن عمر، فقال (أي عمر) قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا، لا إرب لنا في أموركم، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، بحسب آل عمران يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أمة محمد، أما لقد أجهدت نفسي وحررت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد، أن أترك فقد ترك من هو خير مني يريد

رسول الله ﷺ - وأن استخلف فقد استخلف من هو خير مني - يريد أبا بكر ؓ - ولكن عمر خشي بعد أعمال الفكر أن يضطرب الأمر إذا تركه شائعاً بدون أن يبت فيه برأي فقد اشترك العرب جميعاً بمحاربة الفرس والروم، وأصبح لكل قبيلة أن تزعم لنفسها ما للمهاجرين والأنصار من حق الاشتراك في اختيار الخليفة، وقد يذهب بعضها إلى ادعاء الحق في ترشيح زعيمها لمقام الخلافة، وفي هذا الادعاء من الخطر على الدولة الإسلامية الناشئة ما لم يفت عمر، لذلك لم يلبث أن جعل الخلافة من بعده شورى في ستة يختارون أحدهم لها، وهؤلاء الستة هم: "عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص" وبعد أن ذكر عمر أسماء هؤلاء قال إنه لم يجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء السنفرة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، فأيهم استخلف فهو الخليفة من بعدي^(١).

لابد من الإشارة هنا إلى أن هؤلاء الستة لم يكن بينهم واحد من الأنصار ولا من غيرهم من قبائل العرب بل هم جميعاً من المهاجرين ومن قريش بشكل خاص، ومع ذلك لم يثر اختيار عمر لهؤلاء أي اعتراض لا من الأنصار ولا من غيرهم من العرب الذين أقبلوا أفواجاً إلى المدينة وظلوا بها بعد مقتل عمر ؓ حتى بايعوا الخليفة الجديد، إن تفسير ذلك لا يعني سوى اطمئنان الأنصار وغيرهم من قبائل العرب إلى اختيار عمر لهؤلاء الستة وربما يرجع ذلك إلى ما حدث في سقيفة بني ساعدة إثر وفاة النبي ﷺ والذي - من المؤكد - أنه ما زال عالقاً في أذهانهم فقد تقرر في هذا المؤتمر (مؤتمر السقيفة) - كما مر سابقاً -

قاعدة دستورية هامة تمثلت في كلمة أبي بكر التي قالها عندما احتدم النزاع بين المهاجرين والأنصار، أنهما أحق بالخلافة، فكان مما قاله أبو بكر: "نحن المهاجرون، وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفیء وأنصارنا على العدو، أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً، فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش فمنا الأمراء ومنكم الوزراء".

يبدو أن هذه الكلمة صارت دستور الخلافة والحكم بين المسلمين منذ قالها أبو بكر، لذلك لم يعترض أحد على استخلاف أبي بكر وعمر ولم يعترض أحد كذلك على اختيار عمر لهؤلاء، بل اطمئن له الأنصار واطمئن له العرب جميعاً.

ومن خلال استقراء ظروف الحقبة التاريخية التي كانت تعيشها الدولة الإسلامية آنذاك نرجح أن عمر بن الخطاب ؓ عندما اتخذ قراره هذا كان يخشى أن استخلف واحداً بذاته أن يدفع الحرص غيره إلى منافسته فلا تجتمع كلمة المسلمين فينشرب بينهم خلاف تخشى عواقبه، كما يحتمل أن عمر لم ير واحد من الستة أفضل من سائره فلم يشأ أن يتحمل أمام ربه وزر مشورة لا يطمئن إليها قلبه كل الاطمئنان، يشير إلى ذلك قول عمر جواباً لمن قال له: يا أمير المؤمنين، لو عهدت عهداً ما أريد أن أتحملها حياً أو ميتاً، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ "إنهم من أهل الجنة" وربما كان هناك احتمال ثالث وهو أن عمر قد خشي حين طعن أن يسرع إليه حتفه قبل أن يجمع كلمة المسلمين على واحد

من هؤلاء الستة فترك الأمر للشورى يتمون ما لم يجد هو قسمة من الوقت لآتمامه.

أيما كانت الدوافع التي منعت عمر من أن يستخلف واحداً بذاته وجعلته يسمى الشورى ليختاروا الخليفة من بينهم فقد أراد عمر أن لا يتحمل مسؤوليات الناس من بعد موته، كما أراد ألا يترك المسلمين في الوقت ذاته نهياً للفرقة والانقسام ولذلك كله نجده يقترح طريقاً وسطاً بين التعيين وعدم التعيين، فيعين الستة المبشرين بالجنة وهم خيرة المسلمين، ولن يكون الخليفة بطبيعة الحال إلا منهم، ويطلب من هؤلاء الستة أن يختاروا من بينهم الخليفة بعد استشارة المسلمين ويضم عمر إليهم ابنه عبد الله ليكن له رأي في الاختيار على أن لا يختار للخلافة وحدد عمر ثلاثة أيام تنتهي المشورة خلالها.

استدعى الخليفة عمر أهل الشورى الخمسة الموجودين (لأن طلحة كان غائباً في سفر) وقال لهم: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وإني لا أخاف عليكم إن استقمتم ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى هجرة عائشة بإذنها فتنشاوروا فيها، فاجتمعوا وتحادثوا، فارتفعت أصواتهم فأمر بتأجيل اجتماعهم لما بعد موته ثم يجتمعون للتشاور في اختيار واحد في مدى ثلاثة أيام، وقال: ليصل بالناس صهيب الرومي ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله ابن عمر مشيراً، ولا شيء له، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الثلاثة فأحضره أمركم وإن مضت قبل قدومه فأمضوا أمركم، ثم بعد أن تحدث عن

بعض المرشحين وما فيه من صفات قال لأبي طلحة الأنصاري: إن الله قد أعز بكم الإسلام فاختر خمسين رجلاً وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم، وقال المقداد ابن الأسود: إذا وضعتوني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم، وقال لأبي طلحة والمقداد: "إن اجتمع خمسة على رجل وأبى واحد فاقتلوه، وإن رضى أربعة واحداً وأبى اثنان فاقتلوهما وإن رضى ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله ابن عمر فمن حكم له فمنهم الوالي، وإن لم يرضوا حكمه فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف، واقتلوا الباقين، إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس".

اجتمع أهل الشورى الخمسة لأن طلحة كان غائباً في بيت المسور ابن مخرمة ويقال في بيت المال ويقال أنه كان عند عائشة بعد إذنهما، وكان مع المجتمعين عبد الله ابن عمر وقد جعلوا أبا طلحة حاجباً لهم ولما رأى تنافس هؤلاء في هذا الأمر تعجب وتخوف وقال: "أنا كنت لن تدفعوها أخوف مني لأن تتنافسوا! لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرت ثم أجلس في بيتي فانظر ما تصنعون، فكان شدة الخلاف كانت توحى إلى الحاجب بأن الاستقرار على رأي واحد وبأن الاختيار النهائي لن يتم في المدة المحددة.

نتيجة لهذه المواقف المتباينة أثر عبد الرحمن ابن عوف أن يبعد نفسه عن الخلافة وأن يتجنب الدخول في منافسات مع غيره، وأن يحدد دوره في هذه المهمة بالقيام بالاختيار فقد بعد ارتضاء الأطراف المعنية وموافقتها فقال لهم:

"لست بالذي أنافسكم في هذا الأمر، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم، فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن".

أراد عبد الرحمن بن عوف أن يتفرغ للتدقيق والتحري ولم ينس أن يؤكد للمجتمعين أن يؤثر الحق ولا يتبع الهوى أو أن يخص قريباً له بفائدة لم يستحقها، أعطاه عهداً أو ميثاقاً، قال له علي بن أبي طالب: "اعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألو الأمة".

وطلب عبد الرحمن من المجتمعين أن يكونوا معه على من بدل وغير وأن يرضوا ما اختاره لهم، على ميثاق الله، لا يخص ذا رحم لرحمة، ولا يألوا المسلمين.

بعد أن تم تحويل عبد الرحمن ابن عوف بهذا الأمر لم يكتف بالتفكير الجدي بنفسه فيه وإنما كان يسعى إلى من وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشرف الناس يستطلع آراءهم ويشاورهم في الأمر، وقيل أنه كان يستشير النساء الراشديات خاصة أمهات المؤمنين، ومال الناس إلى عبد الرحمن يشاورونه ويناجونه تلك الليالي، وذكرت المصادر أن عينا عبد الرحمن لم تذق النوم ولم يغمض له جفن طوال الليالي المحددة، واجتمع عبد الرحمن بكل من الزبير وسعد وعلي ثم بعثمان كل على انفراد، ويقال أن عبد الرحمن سأل علياً: أرايت لو لم أوليك هذا الأمر فمن تشير علي أن اختار؟ فقال له عثمان: وعاد فسأل عثمان نفس السؤال فقال له عثمان: علياً.

انحصر الأمر إذاً بين علي وعثمان وضاعت دائرة الخلاف ولكن أطالته نقاش بعض المسلمين فبعضهم يؤيد عثمان وبعضهم يؤيد علياً، ويسوق كل فريق الحجج والأدلة على صحة اختياره، وخشى سعد بن أبي وقاص حدوث فتنة فدعى عبد الرحمن وقال له: "أسرع يا عبد الرحمن قبل أن يفتتن الناس".

ازدحم المسجد بالناس حتى اكتفى بأعدادهم وصعد عبد الرحمن إلى المنبر فوقف وأطال الوقوف وناد علياً فجاء إليه وقال له عبد الرحمن عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفين من بعده قال علي أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ثم نودي على عثمان حتى وقف عند المنبر ففعل معه مثل ما فعل مع علي بسط عبد الرحمن يده وأخذ يد عثمان وقال له: هل أنت مبايعني على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟ قال عثمان: نعم، قال عبد الرحمن اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم اشهد ثم قام الناس فبايعوا عثمان^(٧).

بويع عثمان بالخلافة في نهاية المدة المحددة وهو اليوم الأخير من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، واستقبل خلافته في الأول من محرم سنة أربع وعشرين وقيل بعد ذلك بيومين وقيل يوم السبت العاشر من محرم.

اتخذ عثمان ﷺ أول حاجب له هو (حمران) مولاه كما اتخذ كاتباً له هو مروان بن الحكم ولما بايع أهل الشورى عثمان خرج فأتى منبر رسول الله ﷺ فخطب في الناس خطبة هي في ظاهرها ومضمونها عبارة عن نصائح تتعلق بالدين لا بالسياسة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ: "إنكم

في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتكم صبحتم أو سميتم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، اعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها، ومتعوا بها طويلاً، ألم ترفضهم؟ أرموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضرب لها مثلاً، وللذين هو خير وقال عز وجل: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَهَاءِ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (الكهف: ٤٥) ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ (الكهف: ٤٦) وأقبل الناس يبايعونه^(٨).

هذه الخطبة لا تبين لنا السياسة التي عول عثمان على انتهاجها في إدارة شؤون دولته، وإنما كانت خطبة نصائح ووعظ تحض على التمسك بالدين وهي خطبة تمثل ما يصدر عن شيء جليل محافظ على مبادئ الإسلام وما يؤمر به للتقوى.

كتب عثمان إلى الولاة وعمال الخراج وإلى العامة:

لقد تجلت سياسية عثمان في الكتب التي أرسلها إلى عماله وولاته وعامة الناس بالأقاليم، فلكي يطمئن عثمان الناس إلى أن ما ألفوا من عدل في عهد عمر لن يعبث به عابث، أرسل إلى الولاة والقواد وعمال الخراج وعامة المسلمين

بالأمصار كتباً يحثهم فيها على الأخذ بالمعروف والنهي عن المنكر، العطف على أهل الذمة وجباية الخراج بالعدل والإنصاف.

أولاً: كتاب عثمان إلى عماله:

كتب عثمان إلى عماله: "أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وأن أعدل السيرة أن تتظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تثتوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تتتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء"^(١).

هذا الكتاب يوضح سياسة عثمان في الرعية، ويدعو عماله أن يكونوا رعاة وليسوا جباة، وهي سياسة كلها سداد وحكمة، فهو يأمر هؤلاء العمال أن يرعوا الناس بالرفق وأن لا يرهقوهم جباية واستغلالاً وأن يأخذوا من المسلم ومن الذمي ما عليه وأن يعطوا المسلم والذمي ماله عدلاً بغيربغي فلا يثير الناس بالمسلمين، تلك أعدل السير في نظر عثمان، إليها يطمئن الجميع فيسود الأمن ويستتب النظام، وهو إذ يوصي عماله بالتمسك بالحياء ترى الرواة الجمعيين على أن هذه الخلّة كانت من أهم وأخص صفاته، وخشي عثمان أن ينقطع الحياء ويحل محله الفضول والجرأة التي ليس لها حدود والتي يترتب عليها ضياع الحقوق، فيعم الباطل والفساد والفوضى، كما يحث عثمان ولاته

على أن يكونوا رعاة لا جباة حتى لا تضيق الأمانة، ويحل محلها الغش والخداع، حتى لا ينقطع الوفاء ويقوم مقامه الغدر، وكل هذا يضيع مصلحة المسلمين ويسيء العلاقة بين الولاية والمحكومين وينشر جواً من عدم الثقة وعدم الطمأنينة.

إن هدف تلك التوجيهات تحديد العلاقة بين الحكام والمحكومين، ومعرفة كل لحقوقه فيأخذها لا يُظلم قيد أنملة، ولواجباته فيؤديها على خير وجه لا ينبغي أن يظلم أحد الطرفين إرضاء للطرف الآخر، وأخيراً فإن تلك التوجيهات التي تخص أهل الذمة (اليهود والنصارى) وغيرهم من الذين لم يدخلوا الإسلام تأمر الولاة بحسن معاملة هؤلاء وتحثهم على اتباع الحق وتوخي العدل معهم كما يفعلون مع المسلمين - وأن كل نمي يؤدي ما عليه من واجبات وينال ما له من حقوق.

ثانياً: كتاب عثمان إلى عمال الخراج

كان لعمال الخراج من الاستقلالية عن الولاة ما خشي عثمان معه أن يظلم الناس فيبهضوهم بما لا يجب عليهم أدائه، أو أن يستغلوا مناصبهم لفائدتهم وفائدة ذويهم لذلك كتب إلى عمال الخراج يقول: "أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم" (١٠).

والملاحظ في هذا الخطاب استخدام عامل الرهبة والتخويف من الله العلي القديم في حثهم على الإثبات بالحق والتزامه في معاملة الخلق فلا يقبل الله إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق، أعطوا كل ذي حق حقه وخذوا حقكم منه، ثم أوصاهم بالأمانة وشدد في ذلك وكررها عليهم، أدوا الأمانات إلى أهلها وأشرفوا على توصيلها، كما نهى عثمان عمال خراج الأقاليم عن ظلم اليتيم أو الذمي (المعاهد) وحذرهم من أن الله لا يرضى عن ظلمهم.

ثالثاً: كتاب عثمان إلى أمراء الأجناد:

"أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذاداتهم، ولقد وضع لكم عمر ما لم يرغب عنا، بل كان على ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإنني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه"^(١١).

اتسم كتاب عثمان ﷺ إلى أمراء الأجناد أو أمراء الحرب بشيء من الشدة والحزم اللذين يلائمان ما ينبغي أن يكتب إلى هؤلاء، فقد عد نفسه المسؤول الأول والأخير للنظر فيما ألزمه الله النظر فيه والقيام عليه، فهو يأمر وأمراء الأجناد ينفذون، ولكنه في ذلك التزم وألزمهم بما وضعه عمر من قبل، واشترك فيه عثمان بالمشورة، وكان ذلك على الملأ، ثم حذرهم وأنذرهم من إحداث أي تغيير أو تبديل وإذا بلغه عن أي منهم محاولة ذلك فإنه سوف يعزل ويحاسب.

رابعاً: كتاب عثمان إلى العامة:

لم يشأ عثمان ؓ أن يفهم الناس من كتبه إلى الولاة وإلى عمال الخراج أنه أعفى العامة من الواجبات الملقاة عليهم، أو أنه حين زاد في عطائهم يدعوهم إلى التمرغ في متاع الدنيا ورفه العيش لذلك خاطبهم في كتاب هذا نصه: "أما بعد، فإنكم إما بلغت ما بلغت بالافتداء والاتباع فلا تفتنكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، وقد قال رسول الله ﷺ: "الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا" (١٢).

سياسة عثمان ؓ في تولية الأمراء:

اعتمد عثمان بن عفان ؓ سياسة خاصة في تولية الأمراء على الأقاليم تختلف عن سياسة سابقه -أبو بكر ؓ وعمر ؓ-، فقد أسند عثمان إلى كثير من أهل بيته إدارة شؤون الأمصار الإسلامية لأنه -على ما يبدو- أنس منهم الإخلاص والمعونة له، ومن ثم أصبحت حكومته مصطبغة بالصبغة الأموية، وكان عمر بن الخطاب ؓ يختار ولاته من العرب الذين ثبتت كفايتهم وحسن إسلامهم ولم يكن للعصبية القبلية أثر في توليتهم وعزلهم، وقد أوصى عمر ؓ عثمان ؓ بأن يقر عماله عاماً على ولايتهم بعد موته، فلما مضى العام الأول من خلافة عثمان أخذ يباشر سلطته في العزل والتولية.

من المعروف أن البصرة والكوفة والشام ومصر كانت من أهم الولايات العربية الإسلامية، فهي موطن قوة المسلمين ومصدر ثرائهم، لذلك عني بها الخليفة عناية خاصة.

- البصرة:

أقر عليها أبا موسى الأشعري ست سنوات بعد وفاة الخليفة عمر، ثم عزله عثمان وأختار لهذه الولاية ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز سنة ٢٩هـ.

- الكوفة:

كان عليها المغيرة بن شعبة، فلما انقضى عام واحد على وفاة عمر عزل المغيرة من الكوفة وولى عليها سعد بن أبي وقاص الزهري، ثم أسند هذه الولاية إلى الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بعد أن تم عزل سعد منها سنة ٢٥هـ ولما أظهر أهل الكوفة تذرهم من الوليد أرسل إليهم سعيد بن العاص بن أمية سنة ٣٠هـ.

- بلاد الشام:

كانت الأردن ودمشق قد تولاهما معاوية بن أبي سفيان في خلافة عمر، فلما تولى عثمان الخلافة أقره عليها ثم ضم إليه فلسطين وحمص وقنسرين وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، وبذلك أصبح معاوية والياً على بلاد الشام كلها لسنتين من خلافة عثمان، وليس من شك في أن عثمان بن عفان بإطلاقه يد معاوية في

هذه الولاية مهد له سبيل نقل الخلافة إلى أسرة أبي سفيان وثبيتها في البيت الأموي.

- مصر:

كان عليها أيام عمر عمرو بن العاص غير أنه لم يكن ينقضي العام الأول من خلافة عثمان حتى تطلع أقرباؤه إلى هذه الولاية فعزل عمراً وولى بدله عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان أخا لعثمان في الرضاعة^(١٣).

المبحث الثاني

الفتوحات في خلافته وأهم أعماله

الفتوحات الإسلامية في خلافة عثمان:

استمرت حركة الفتوح الإسلامية في خلافة عثمان بن عفان وقد اتخذت الفتوحات في هذه المرحلة طابعاً جديداً تميز بحالة الدفاع وتأمين الحدود ودفع الخطر من هجوم الأعداء، فقد مر بنا كيف أن الدولة العربية الإسلامية امتدت في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أقصى فارس شرقاً إلى حدود برقة غرباً ومن بحر قزوين في الشمال إلى النوبة في الجنوب، وقد أيقن سكان تلك البلاد الفتوحات بأن هؤلاء الفاتحين لا غالب لهم، ومع ذلك فقد كانت أسباب الانتفاض تحرك نفوس الناس من أهل هذه الأقاليم بين الحين والآخر إلى الثورة على المسلمين ونكث ما عاهدوهم عليه، لحدثة عهدهم بالإسلام، فضلاً عن عدم وجود قوات للمسلمين مرابطة في هذه البلاد، بل كان المسلمون يصلحون كل إقليم يفتحونه على جزية معينة يدفعها أهلهم ثم يتركون حكم الإقليم لأبنائه، وتتسحب قواتهم بعد ذلك عنه إلى المعسكرات العربية الدائمة، التي كانت مقامة في كل من البصرة والكوفة في العراق ودمشق وحمص في الشام، إلا في حصن بابلين.

لقد حاولت بعض الجهات الانتفاض بعد أن وصلتهم أخبار مقتل عمر وببيعة عثمان، فتمردت ولايات كانت أذعنت لسلطان العرب وصالحتهم فنقضت صلاحها ومنعت الجزية التي صالحت عليها، لم يكن للخليفة الجديد بد من رد هذه الولايات إلى حمى الطاعة، وسيادة الدولة العربية الإسلامية.

من جانب آخر لم تتوقف حركة الفتح والتوسع في زمن عثمان، إنما تشعبت واحتوت أقطاراً جديدة في الشرق والغرب، فلم يقطع استخلاف عثمان بن عفان سلسلة الفتوح التي قام بها المسلمون في زمن عمر، فقد اهتم عثمان بتأمين الفتوح التي تمت في خلافة سلفه الخليفة عمر بن الخطاب وواصل المسلمون العمل على توطيد نفوذهم في بلاد فارس، التي انتقض بعضها، فاجتازت الجيوش العربية في زمن عثمان أرض فارس ووصلت شرقاً إلى بلاد طبرستان، ووصلت فرقة أخرى بقيادة عبد الله بن عامر إلى خراسان وتكونت للمسلمين في زمن عثمان أول قوة بحرية لمواجهة التفوق البيزنطي في مجال البحر، فانضم إلى الدولة الإسلامية جزيرة قبرص كما انضم جزء من بلاد النوبة، وانضمت لها بلاد أرمينية.

فتوحات المشرق:

على الرغم من الجهود التي بذلت في زمن عمر بن الخطاب ﷺ لتثبيت دعائم الوجود العربي الإسلامي في بلاد فارس إلا أن النفوذ العربي لم يستقر هناك فقد ثار أهل فارس على أميرهم فخرج إليهم عبد الله بن عامر والي البصرة وسار بجيشه إلى مقاطعة فارس وأخضعهم ثم بدأ بعدها سلسلة معارك أخرى

شرقاً وشمالاً كان النصر فيها حليفه، فأخضع نيسابور وسرخس ومرو من بلاد خراسان ثم اشتبك في معركة كبرى عند خوارزم (على نهر جيحون) حطم فيها القوات الفارسية وانتصر نصراً مؤزراً، دفعه إلى التوغل في بلاد التركستان حتى مدينة بلخ وأدخلها في حوزة الإسلام، كذلك وجه عبد الله بن عامر الأحنف ابن قيس إلى طجارستان ثم إلى مرو الروذ فلقبته جموع من أهلها أوقع بهم الهزيمة واضطروا إلى طلب الصلح، وما زال الأحنف بن قيس يتابع انتصاراته في تلك الجهات حتى تمكن من فتح الجوزجان والطارقان والصغانيان ثم سار إلى بلخ فصالح أهلها وعاد أخيراً إلى مرو بعد أن تعذر عليه فتح خوارزم، وهكذا بسط العرب سلطانهم على معظم أقطار الدولة الفارسية المنهارة^(١٤).

ومن الفتوحات الهامة في خلافة عثمان فتح أرمينية وهي صقع عظيم واسع يمتد من جبال القوقاز والبحر الأسود شمالاً وبعض الجزيرة جنوباً، وبحر الخزر (أو قزوين) وهضبة أنريجان شرقاً، وآسيا الصغرى والجزيرة غرباً فيشمل الأراضي الجبلية التي كان يخترقها عدة أنهار عظيمة أهمها: دجلة والفرات في الجنوب والكر والرّس في الشمال^(١٥).

كان يسكن هذه البلاد شعب آسيوي لا نعرف أصله ينسب إلى هذه البلاد ويعرف بالأرمن، تحول إلى المسيحية من وقت مبكر بما كان سبباً في أن بدأت تظهر له شخصيته التي لا يزال محتفظاً بها إلى الآن كذلك كان يعيش في أرمينية جماعات يهودية ومجوسية انتقلت إليه من البلاد المجاورة.

استطاع المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ينتزعوا أرمينية من قبضة الروم غير أنهم لم يلبثوا أن اضطروا للجلاء عنها تحت ضغط جيوش

الأعداء التي أحاطت بهم، فأصدر الخليفة عثمان أوامره إلى واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان بأن يكرّس جهوده لاستعادة هذا الإقليم إلى سيادة الدولة العربية الإسلامية، فسير معاوية بن أبي سفيان إليهم القائد العربي حبيب بن مسلمة الفهري على رأس جيش مكون من ستة آلاف جندي، فوصل إلى قلقيليا حيث صالح أهلها على الجزية ثم واصل زحفه وتمكن من مباغته حشود الروم والانتصار عليهم قبل أن يمدّه الخليفة بالمد الذي طلبه، وبعد وصول ذلك المد استطاع الجيشان أن يواصلّا زحفهما وأن يبسطا سيطرتهما على ذلك الإقليم^(١٦).

من جانب آخر استطاعت قوات عربية أخرى أرسلها والي الشام إلى الأناضول أن تشاغل الروم البيزنطيين حيث توغلت هذه القوات حتى وصلت عمورية ونجحت في مهمتها وهي إشغال الروم عن أية محاولة لاستعادة تلك المناطق وحتى لا يكون لديهم وقت للتفكير في تعزيز قواتهم خارج حدودهم، الأمر الذي يسهل على المسلمين الاستيلاء على بقية الشام، وقد نجح معاوية في تحقيق ذلك الهدف، وتمكن قواته من تطهير بلاد الشام من البيزنطيين وحقت القوات الإسلامية انتصارات على القوات البيزنطية أعقبها سقوط ثغري قنسرين وطرابلس آخر معاقل الروم في تلك البقاع، وبذلك آمن المسلمون بفضل ذلك خطر عدو قريب متداخل في بلادهم وعلى أرضهم.

الفتوحات في مصر:

لم يستقر النفوذ العربي في مصر إلا في سنة ٢٥هـ / ٦٤٥م ذلك أن الروم لم يتمسكوا بمعاهدة الإسكندرية طويلاً، وبدأت الدولة البيزنطية تضيق من

أحداثها الداخلية في عصر الإمبراطور قنمطانز الثاني حفيد هرقل الذي أرسل إلى الإسكندرية أسطولاً كبيراً لإجلاء العرب عن مصر، كان قائده رجل أرمني كبير اسمه مانويل وذلك في سنة ٦٤٥هـ/٦٤٥م وأصبح وضع العرب في مصر محرجاً وكان والي مصر آنذاك عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وقد بعث أهل مصر إلى الخليفة عثمان يسأله أن يرسل عمرو بن العاص ليتولى محاربة الروم لأن له خبرة ومعرفة بحروبهم فولى عثمان عمراً الإسكندرية وعهد إليه بحرب الروم وإخراجهم من مصر، ونجحت القوات الإسلامية في إجلاء الروم من مصر بعد أن هزمتهم في معركة فاصلة عند مدينة نقبوس وقتل قائد جيش الروم^(١٧).

بلاد النوبة:

اتجه عبد الله بن سعد بن أبي السرح إلى غزو النوبة سنة ٦٥١هـ/٦٥١م أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان لتأمين حدود مصر الجنوبية، والنوبة هي البلاد الواسعة العريضة في الشطر الجنوبي من وادي النيل، التي تمتد من أسوان آخر صعيد مصر حتى أواسط أفريقيا، وقد وصلت حملة سعد إلى "نقله" واشتدت فيها وطأة القتال بين الجانبين، وانتهت هذه الحملة بعقد هدنة بين مصر ومملكة النوبة المسيحية، كانت أهم بنودها عدم الاعتداء بين الطرفين، وأن تؤدي النوبة إلى مصر عدداً معيناً من الرقيق كل سنة، وأن تؤدي مصر إلى النوبة قدرأ معيناً من القمح والعدس وغيره من منتجات مصر كل سنة كذلك^(١٨).

فتح أفريقيا:

أذن الخليفة عثمان بن عفان ﷺ لعبد الله بن سعد بن أبي سرح واليه على مصر بغزو أفريقيا، وأرسل عثمان ممن رغب الجهاد في سبيل الله من المسلمين بقيادة الحارث بن عبد الحكيم إلى مصر، وأمر عثمان المسلمين أن يطيعوا أمره فخرج بهم عبد الله بن سعد إلى مدينة قرطاجة وهي مقر السلطان جرجير حاكم أفريقيا في ذلك الوقت وقد شمل نفوذه المناطق الممتدة من طرابلس الغرب إلى طنجة ونجح المسلمون في تحرير أفريقيا وصالحوا أهلها على دفع مال أو ذهب أرسلت إلى مقر الخلافة مع أخبار النجاحات التي حققها المسلمون^(١٩).

لقد أراد الخليفة عثمان أن يعزز قيادة الجيش الإسلامي الذي كان يتولى عمليات تحرير أفريقيا فأرسل عبد الله بن الزبير مع جماعة لمعرفة أخبار الجند وموافاته بها، وعندما وصل ابن الزبير إلى أفريقيا تسلم قيادة الجيش بدلاً من عبد الله بن سعد لأن ابن الزبير كان -على ما يبدو- له رأياً آخر في مجريات القتال وأسلوب التعامل مع العدو^(٢٠).

وصالت أخبار الفتح والنصر إلى مقر الخلافة فأراد عثمان أن يبشر المسلمين بنفسه فصعد المنبر وقال: "... أيها الناس إن الله قد فتح عليكم أفريقيا ... وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها إن شاء الله ..."^(٢١).

ويبدو أن أهل أفريقيا نقضوا عهدهم للمسلمين لذلك عزم المسلمون على القيام بالغزو ثانية لهذه البلاد سنة ٣٠هـ / ٦٥٠م واضطر الخليفة عثمان إلى

تكليف معاوية بن حديج بالقيام بغزوهم للمرة الثالثة سنة ٥٣٤ / ٦٥٤م عندما نقض أهل أفريقيا عهدهم ثانية^(٢٢).

تأسيس البحرية الإسلامية:

بعد أن سيطر العرب - في خلافة عمر بن الخطاب - على سواحل الشام ومصر الطويلتين أخذوا يفكرون جدياً في القضاء على قوة بيزنطة البحرية التي أصبحت مصدر تهديد لإمبراطوريتهم الناشئة فقد كان احتفاظ بيزنطة بالسيطرة البحرية أن جعلهم تقاوم في مدن الشام الساحلية مدة طويلة، كما استطاعت أن تعود إلى مهاجمتها في سنة ٢٣هـ / ٦٤٤م فاحتلت بعض مدنها كما هاجمت أيضاً الإسكندرية في سنة ٢٥هـ / ٦٤٥م وقد طردهم عمرو بن العاص منها^(٢٣) وهكذا رأى العرب الذين تغلبوا على أقوى الجيوش البرية قوة بيزنطة البحرية تتحداهم وأن السواحل التي احتلوها تقف حائلاً دون تقدمهم.

لم يكن العرب - أول أمرهم - يستطيعون فعل شيء ضد هذه القوة البحرية التي كانت تصول وتجول أمام سواحلهم وتسيطر على معظم جزره بحيث سمي البحر الأبيض المتوسط باسم: "بحر الروم"^(٢٤) وذلك لأن العرب أمة لم يكن لها خبرة بركوب البحر وبناء السفن، ولكي يقضوا على خطر عدوهم البحري لجؤوا إلى تقوية وسائل الدفاع عن سواحلهم بعدة أمور منها: إصلاح الحصون الساحلية القديمة التي تركها البيزنطيون في مصر والشام، وأخذ بيوت على الساحل لتحويلها إلى قلاع للمقاومة تسمى "أخاند" وإنشاء "مناظير" أي أماكن يراقب منها العدو، كانت تتخذ "المواقيد" لطلب الإمداد إذا حدث هجوم مفاجئ

كذلك رُتب الجند بطول الساحل حيث كانوا يغيرون كل ستة أشهر، وفي الوقت ذاته عمل على تكوين صفات بحرية للعرب، أن شجعوا على سكنى السواحل وهو ما عرف "بالرباط" وذلك بمنحهم الإقطاعات حتى يكونوا على قدم الاستعداد للدفاع ضد هجوم الأساطيل المعادية^(٢٥).

ولكن في خلافة عثمان بدئ في تجهيز اسطول عربي ليكون ضماناً للقضاء على أي هجوم معاد من البحر فضلاً عن إمكان قيامه بالجهاد ضد أملاك البيزنطيين، وقد أوكل بناء هذا الأسطول إلى العناصر الخبيرة في صناعة المراكب البحرية في البلاد المحررة في كل من مصر والشام وبخاصة القبط الذين ساهموا بنصيب كبير في بناء الأسطول الإسلامي في دور صناعتهم التي عرفت بجزيرة مصر أو الروضة، بحيث لم تأت سنة ٥٣٣هـ / ٦٥٤م حتى كان للعرب أسطول يتكون من أكثر من ألف وسبعمائة قطعة، استطاع العرب به أن يحطموا السيادة البيزنطية في البحر المتوسط^(٢٦).

بدأ نشاط الأسطول العربي كبيراً منذ أول أيامه، فقد كان يشحن في السفن المقاتلة ونساوهم -على عادة العرب في القتال- من ثغور مصر والشام صيفاً وشتاءً، للغارة على سواحل العدو، وكانت معظم جهود أسطول الشام موجهة نحو جزيرة قبرص التي كانت تحت سيطرة الروم، ويتخذونها قاعدة للهجوم على سواحل الشام ومصر فغزاها معاوية بنفسه بقصد الإغارة في سنة ٥٢٨هـ / ٦٤٨م ولعله غزاها ثانية في سنة ٥٢٩هـ / ٤٤٩م ولكن في سنة ٥٣٣هـ / ٦٥٤م غزاها العرب من مصر والشام بقصد احتلالها وفعلاً تحقق ذلك فأبقوا فيها الحاميات وأسسوا المساجد^(٢٧).

إن هذا النشاط البحري المتزايد من قبل العرب أقلق الروم البيزنطيين الأمر الذي دفع الإمبراطور قنسطانز الثاني (٦٤٢ - ٦٦٨م) إلى جمع عدد من المراكب لم يجمعها من قبل ويقال أنها كانت تزيد عن الألف، وقرر الهجوم بها على الأسطول العربي بقصد احتلال الإسكندرية أكبر موانئ البحر الأبيض المتوسط فخرج إليه الأسطول العربي بكامل عدته بقيادة والي مصر عبد الله بن سعد فتقابل الأسطولان قرب سواحل آسيا الصغرى سنة ٦٣٤هـ / ٦٥٤م في معركة بحرية حاسمة عرفت باسم "معركة ذات الصواري" لكثرة سوارى المراكب، وقد كان القتال عنيفاً بين الطرفين فبعد ليلة أمضوها في العبادة نظم القادة الجنود على ظهر المراكب في صفوف ثم قرب السفن بعضها ببعض بعد ربطها واقتتل الطرفان بالسيوف والخنجر فقتل من البيزنطيين ما لا يحصى ودمرت معظم مراكبهم، وفر الإمبراطور البيزنطي إلى جزيرة صقلية، وقد كان النصر في هذه المعركة حاسماً مهد الطريق لسيطرة العرب البحرية فأخذوا يغيرون على جزر مثل صقلية ورووس^(٢٨).

ويمكننا القول بأن الخليفة عثمان بن عفان نجح في القضاء على حركة التمرد في الولايات التي كانت قد أذعنّت من قبل لسلطان العرب، ورد هذه الولايات إلى حمى الطاعة، وأدت المحاولات العسكرية التي بذل في خلافته إلى امتداد الفتوحات العربية وإلى اتخاذ المسلمين قواعد حربية لحماية الإمبراطورية العربية الإسلامية الناشئة وإلى إنشائهم قوة بحرية إلى جانب قواتهم البرية.

جمع القرآن:

لما لوحظ اختلاف المسلمين في قراءة القرآن أشار أحد المسلمين على عثمان أن يدرك أمر المسلمين قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فطلب عثمان من حفصة بنت عمر بن الخطاب أن ترسل الصحف لكي تتسخ في مصاحف، وكلف عثمان كل من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الله بن الحارث بن هشام فنسخوه في المصاحف وقال لهم عثمان: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا" حتى إذا ما أتموا هذا العمل رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل مكان بمصحف مما نسخ، وأمر عثمان بحرق ما سوى ذلك من المصاحف أو الصحف^(٢٩).

المبحث الثالث

الفتنة ومقتل سيدنا عثمان

أسباب الفتنة:

حدث في آخر خلافة عثمان ما يسميه المؤرخون المسلمون بـ "الفتنة" ويقصدون بها انفصام وحدة المسلمين السياسية واختلاف آرائهم، وهي الوحدة التي أوجدها أبو بكر بقمع الردة وزادها عمر قوة بما أوجد لها من تنظيم، وقد ترتب على هذه الفتنة حروب بين السلميين راح الخليفة نفسه ضحيتها، ولا يوجد اتفاق بين المؤرخين حول الأسباب المباشرة لوقوع هذه الفتنة، ولكن هناك ترجيح لجملة من العوامل والأسباب غير المباشرة لوقوعها.

لعل أهم تلك العوامل تغير ظروف المجتمع العربي فقد كان عمر بن الخطاب يحرص كل الحرص على أن يلتزم العرب بعد الفتوحات حياتهم الأولى القائمة على الخشونة والتقشف والزهد خشية أن تجرفهم حياة الترف في المدن المفتوحة في تيارها، فقد ترتب على فتح الشام والعراق ومصر أن تفتحت أعين الفاتحين على بيئات حضارية جديدة لم يشهدها من قبل، فهموا بالخروج عن بداوتهم والاستمتاع بما أتت به الحياة الحضارية من ألوان الترف المباح الذي لا يتعارض مع الإسلام، ولكن عمر نهاهم عن ذلك وفرض عليهم الإقامة في

معسكرات خارج المدن يعيشون فيها على النمط البدوي، حفاظاً على خشونتهم التي جعلت منهم محاربين أشداء.

على أن السياسة التي ألزمها عمر لم تلبث أن انتهت بانتهاء عصره، فلما تولى عثمان الخلافة لم يتشدد كما كان عمر، وإنما اتبع مع المسلمين سياسة تقوم على التساهل فانطلق العرب في عصره إلى حياة الترف وحصروا على الاستمتاع بها في الحدود المشروعة، فانتقوا في مأكلمهم ومشربهم وفي ملبسهم وشيدوا القصور السامقة المنمقة الجدران الموزونة الأبعاد بدلاً من الدور الساذجة التي كانوا يعيشون فيها في البادية.

وهكذا أدت سياسة التساهل واللين التي اتبعها عثمان بعد شدة عمر وتضييقه على المسلمين إلى انطلاق كبار الصحابة والتابعين إلى الأمصار الإسلامية ومشاركتهم في إنشاء أرستقراطية دينية فقد أثروا ثراء فاحشاً وابتنوا القصور ووزعوا الأراضي والخطط، بينما كانت هناك طبقة فقيرة معدمة من المحاربين استقرت في الأمصار بعد الفتح.

ويعلل بعض المؤرخين^(٣٠) إقبال عمال عثمان وكثير من أهل عصره على الترف بأن عثمان كان في غاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا به في فعله، من المعروف أن عثمان بنى داره في المدينة في سنة ٢٧هـ بالحجر والكس وجعل أبوابها من الساج والعرعر واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة، وذكروا أنه تناول في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة^(٣١) وقد هذا كثير من الصحابة حذوه ففي أيامه اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور في مقدمتهم

مروان بن الحكم الذي بنى القصور بذي خشب (وَادٍ على مسيرة ليلة من المدينة)^(٣٢) والزيبر بن العوام بنى دارة بالبصرة تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحريين وغيرهم، كما ابنتى دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية، وابنتى طلحة بن عبيد الله التميمي داره بالكوفة المعروفة بالكناسة بدار الطلحيين، وشيد داراً بالمدينة بناها بالأجر والجص والساج، كذلك ابنتى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها، وجعل أعلاها شرفات.

ونكروا أن زيد بن ثابت حين توفي خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بما قيمته مائة ألف دينار. كذلك نكروا أن المقداد بن الأسود ابنتى داره في المدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة، وجعل أعلاها شرفات وجصصها من الظاهر والباطن، وأحصوا ما خلف يعلى بن منبه بعد وفاته فوجدوه قد ترك خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات بما قيمته ثلاثمائة ألف دينار^(٣٣).

إن هذا التساهل مع كبار الصحابة في الإثراء واقتناء القصور فضلاً عن الإسراف في إدرار القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة لم يكونوا من الصحابة ولم يذبوا عن الدين، أدى إلى ظهور الترف بوضوح في المجتمع الإسلامي وعودة الحجاز إلى الحواضر الحجازية القديمة، وانتشار نوع من الرفاهية التي لا تتناسب قط مع ما ساد الدولة العربية من نقشف في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

لقد كانت نتيجة هذا الثراء أن ظهر اللهو والترف في المجتمع الحجازي فعاد أهله إلى سماع قصائد الحب كما جلبوا القيان الفارسيات والروميات بحيث اشتهرت مدينة النبي ومكة في زمن عثمان بوجود أمهر المغنيين^(٣٤).

وقد كان الخليفة نفسه يعيش عيشة فيها دعة ورفاهية وينظر إلى عمر على أنه حمل نفسه ما لا تطيق فقد كان عمر يعيش على العيش الخشن وخبز الشعير والقناعة باليسير^(٣٥).

بينما ابتعد سيدنا عثمان عن هذه السياسة التقشفية فكان يلبس الخبز والطيلسان وفاخر الثياب ويذكر المؤرخون أنه شد أسنانه بالذهب^(٣٦) وكان يأكل اللحم والسمن وصغار الضأن مع ألين الطعام، صحيح أنه كان يأكله من ماله الخاص إذ كان أكثر قرش مالاً وأجدهم في التجارة ولكنه بحكم منصبه كخليفة للمسلمين كان عليه أن يصطنع الزهد ليكون مثلاً للأمة الإسلامية، ولذلك أخذ عليه أبو ذر الغفاري إقباله على الدنيا وكان أبو ذر يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي أن يكون له في ملكة أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم، ويأخذ بظاهر القرآن ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣٦)، فكان يقوم بالشام ويقول: "يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم" فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء^(٣٧) فأمر عثمان معاوية بنفیه إلى "الريذة" - من قرى المدينة - وظل فيها حتى وفاته.

من الأمور التي أخذت على سيدنا عثمان رضي الله عنه أن الناس قد أنكروا قيامه بعزل العمال القدامى الذين كانوا يتولون الأمصار الإسلامية والذين قد ولاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعين بدلهم أقرباءه من الأمويين مع أن عبد الرحمن بن عوف قبل إعلان خلافته أخذ عليه المواثيق ألا يحمل بني أمية على رقاب الناس فقد أساء الكثير من هؤلاء وتجاوزوا الحدود، ووضعوا حداً للتقاليد السائدة في عصر عمر. فاستقدم عثمان عمه الحكم بن أبي العاص وابنه مروان وغيرهما من بني أمية، والحكم هو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد غربه عن المدينة ونفاه عن جواره^(٢٨).

فولى مروان ابن الحكم -ابن عمه- على المدينة وكتب له بخمس غنائم إفريقية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح -أخوه من الرضاعة- على مصر مكان عاملها الكفاء عمرو بن العاص، وعبد الله بن عامر -ابن خاله- على البصرة، وسعد بن أبي وقاص والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص -وكلهم أقربائه- على الكوفة، وكان معظم هؤلاء العمال غير جديرين بمناصبهم وكان عرب الأمصار يشكون منهم ويتمنون زوالهم.

لقد كان أبو مروان يسمى طريد النبي كما أشرنا وعبد الله بن سعد بن أبي السرح مطعون الخلق والدين، فقد هدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه بسبب تغييره في القرآن عند كتابته الوحي لولا شفاعته عثمان والوليد بن عقبة، كذب على النبي ونزلت هذه الآية بسببه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾^(٢٩)، وهو ممن أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من أهل النار، وذكروا أنه شرب الخمر مع ندمائهم ومغنيه يوماً من أول الليل حتى الصباح، لما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج في غلائله فتقدم إلى

المحراب في صلاة الصبح (في مسجد الكوفة) فصلى بهم أربع ركعات، ثم قال: أتريدون أن أزيدكم، وفي ذلك يقول الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه

أن الوليد أحق بالعر

نادى، وقد تمت صلاتهم

أزيدكم؟ ثملاً، وما يدري

ليزيدهم أخرى، ولو قبلوا

لقرنت بين الشفع والوتر

وأشاع الناس في الكوفة فعالة الذميمة وتجلت لهم مظاهر فسقه ومداومته على شرب الخمر، فهاجم عليه جماعة من المسلمين فوجدوه ثملاً وقد اضطجع على سريره لا يعقل فأيقظوه من رقدته فلم يفق فانتزعوا خاتمه من يده ورحل منهم اثنان إلى المدينة فأخبرا عثمان بخبره وأخرجاه له خاتمه فزجرهما ودفع في صدريهما فخرجا إلى علي بن أبي طالب وأخبراه بقصة الوليد بن عقبة فخرج علي إلى عثمان وقال له: "دفعت الشهود وأبطلت الحدود" فطلب منه عثمان المشورة فيما ينبغي عليه عمله فأشار عليه بأن يبعث إلى عقبة من يستقدمه فإذا وجهت إليه التهمة ووجهت بالشاهدين ولم يستطع الرد يقام عليه الحد فأمر عثمان باستقدام الوليد فاستقدم وأقام عليه الشاهدان الشهادة فلم يدل بحجة فألقى عثمان السوط إلى علي فأخذه وجلده به أربعين جلدة^(٤٠)، وقيل جلده عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب، ثم ولى عثمان بعده سعيد ابن العاص فاستبد بالأموال وعبث بها

وأساء السيرة وذكروا أنه كتب مرة إلى عثمان يقول: "إنما هذا الواد قطين لقريش، فرد عليه الاشر ابن الحارث النخعي: أنجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك" فقدم الاشر النخعي في سبعين رجلاً من أهل الكوفة إلى عثمان وأبلغوه سوء سيرة سعيد ابن العاص وطالبوا عثمان بعزله عنهم فكره عثمان أن يعزله ولكنه اضطر إلى ذلك اضطراراً فولى أهل الكوفة على أنفسهم أبا موسى الأشعري^(٤١).

ومع كل ذلك لم تظهر الفتنة إلا بين عرب الأمصار الذين كان معظمهم جفاة من صميم البادية لا تهمهم قريش بقدر اهتمامهم بسير أمور الدولة الإسلامية سيرا حسناً فضلاً عن حقدهم على قريش لمكانتها ولظهور الإسلام فيها وتمتعها بمعظم خيرات الفتوح.

فهؤلاء الذين قامت الفتوح على أكتافهم كانوا يريدون أن يكون لهم رأي مسموع في اختيار الخليفة، بحيث أنهم أرسلوا أمراءهم إلى المدينة بعد موت عمر وإذا كانوا قد ارتضوا الخليفين الأولين دون معارضة لمكانتهم، ولجسامة الظروف في ذلك الوقت، وهي ظروف ارتداد العرب والفتح ولكن هذه الظروف الحرجة كانت قد انتهت واقتصرت الفتوح على تأمين حدود الخلافة، فلم تعجبهم طريقة اختيار خليفة الإسلام دون مشورتهم ومن وراء الكواليس. من ناحية أخرى لم يرَ أهل "المدينة" تحقيقاً للوعد الذي بذله لهم المهاجرون في سقيفة بني ساعدة بأن يكونوا هم الوزراء فهم لم يستشاروا إطلاقاً في اختيار عثمان^(٤٢).

نتيجة لكل هذا وذاك فشت الأقاويل بين عرب الأمصار بنقد الخليفة وتصرفاته، وساعد على ذلك لينه وحلمه بعد شدة عمر، وأيضاً كبر سنه، فقد بلغ

الثانية والثمانين من عمره، مع العلم أنه لم يجرؤ أحد من قبل على نقد أبي بكر وعمر، حيث كان كل منهما يسوس الأموال والمناصب بالعدل والقسطاس.

في سنة ٥٣٥هـ / ٦٥٥م خرجت جماعات من الثوار على عثمان في مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة لتطالبه بالإصلاح أما الشام فلم يظهر منها ممتعض لوجود معاوية القوي فيها، وكان هذا التصرف يعني تدخلاً صريحاً من الأمصار في أمور السياسة العليا واجترأ على هيبة الخلافة، وبدلاً من أن يظهر الخليفة قوة وحزماً أمام عرب الأمصار ضعف ولجأ إلى مفاوضاتهم ووعدهم بإصلاح الأخطاء واعترف بأنه زل وتاب مما جعل أغلبهم يقبلون العودة إلى الأمصار^(٤٣).

ولكن بعد رحيلهم عن المدينة ادعى عثمان في إحدى خطبه أن عرب الأمصار اعترفوا له بأن ما بلغهم عنه باطلاً ولما كان أهل المدينة على علم بحقائق الأمور فقد استكثروا على الخليفة الكذب، وحينما خطبهم رموه بالحجارة حتى وقع مغشياً عليه، من ناحية أخرى وقع في يد عرب مصر الفسطاط كتاب مرسل من عثمان إلى عامله^(٤٤) يأمره بجلد المتمردين والمثلة بهم وطول الحبس، ولذلك أسرع عرب الأمصار بالعودة إلى المدينة ليجابوه بالكتاب ولكن الخليفة أنكر مما أوعز صدورهم وجعلهم يحاصرون بيته بقصد تعطيشه ومنع القوات عنه حتى يخلع نفسه عن الخلافة.

مقتل عثمان:

لما تحقق سيدنا عثمان من خطورة الحالة بالمدينة ورأى نفسه عاجزاً عن إخماد حركة الثوار بعث بكتب إلى الأمصار يطلب فيها المساندة والنجدة وليس

من شك في أنه كان بين أهل المدينة من عمل على تشجيع هؤلاء الثوار ونصرتهم، ثم انضموا إليهم أثناء حصارهم دار عثمان، فقد كتب عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان بالشام حين تعرض لسطح الناس ونقدهم قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فأبعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام، ثم أرسل إلى عبد الله بن عامر بالبصرة نسخة من هذا الكتاب".

لم يتجاوز حصار الثوار في بادئ الأمر الإحاطة بدار عثمان فكان الخليفة حراً يخرج من داره ويصلي بالناس ويسعى الرسل في أثناء ذلك بينه وبين الثوار وكان الثائرون من أهل الأمصار يرمون من وراء المحاصرة إلى إرغامه على خلع نفسه لكنه أبى النزول عن الخلافة، وقال: "... أما قولكم تخلع نفسك، فلا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عزوجل، وأكرمني به وخصني به على غيري ولكني أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمون".

على أن التوتر الذي ساد المدينة من جراء توافد الثوار وحصارهم دار عثمان ما لبث أن اشتد عندما علم الثائرون أن عمال الخليفة في الأمصار قد أجابوا طلب الخليفة فأعدوا الجند لإرسالهم إليه ليكونوا عوناً له بالمدينة يشددون الحصار على عثمان ليرغموه على التنازل عن الخلافة، ووصل ببعضهم الأمر إلى تهديده بالقتل.

لم يكن عثمان يظن أن من بين المسلمين من يقدم على قتل خليفته، ويتضح لنا ذلك من قوله لأصحابه: "ولم يقتلونني وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول "لا يحل دم امرئ مسلم في إحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمانه، أو زنى بعد

إحصائه أو قتل نفسا بغير ذنب" فوالله ما زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط، ولا تمنيت أن لي بديني بدلا منذ هداني الله، ولا قتلت نفسا، ففيم يقتلونني؟.

طال حصار الثوار لدار عثمان، وساعت معاملتهم له، فمنعوه من الخروج والصلاة في المسجد وحالوا دون وصول الماء إليه، وصار الزاد لا يصل إليه إلا خفية وقد قيل أن الحصار استمر أربعين يوماً، وكان عثمان من حين لآخر يحذر الثائرين الفتنة ويذكرهم بآيات الله فلا يعبؤون بقوله، ويظهر أن الأمور تطورت بسرعة، فأشعل الثوار النار في باب داره واقتحموه وكان جالساً في محرابه يقرأ القرآن، فضربوه بالسلاح وبعجوا بطنه بالحرايب وشلخوا هامته بالعمد فسال دمه على المصحف في حجره، وقد حاولت زوجته نائلة بنت الفرافصة -التي تزوجها من قبيلة كلب على حدود الشام- اتقاء سيوف الثوار بيدها فقطعوا إصبعين من أصابعها، فكشفت عن قناعها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك ردعا لهم، ولكن هذا لم يمنع من قتل زوجها الذي ألقي بجسده في الأوساخ وقد سعت نائلة إلى دفن زوجها وأرسلت بقميصه المخضب بالدم وأصابعها التي قطعت إلى معاوية لتحريضه على الأخذ بثأر الخليفة المقتول مما ترتب عليه أن هبت ريح الفتنة بين المسلمين^(٤٥).

واعترافاً بفضل عثمان وإنصافاً له يجب أن نجلّه وأن نسترحم عليه لأنه رضوان الله عليه كان مصدر خير للمسلمين وداعية هداية وسلام، ثم هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم.

وإنه من الإنصاف في حق عثمان ألا ننظر إلى إحجامه عن أخذ الثائرين ضده بالشدة والقسوة ومعاملتهم باللين والصفح على أنه من أثر وهن من

شيخوخته أو ضعف أراحه وغير ذلك على أنها سجيته التي طبقها تطبيقاً عملياً طوال حياته، فقد كان يرجو الهدوء والاستقرار لأمته، لكن مهارة الأعداء في الكيد له وكذلك عدم إخلاص بعض قرابته له في المشورة وفي السلوك وسعيهم لخدمة مصالحهم الخاصة على حساب مصالح الأمة حال بينه وبين ما كان يرجوه من أمن وأمان وأدى إلى تلك النهاية الأليمة والتي دفعت الأمة الإسلامية ثمنها باهظاً في المراحل اللاحقة.

هوامش الفصل الثالث

- ١- الطبري، ج٤، ص٤٢٠، ابن هشام، السيرة النبوية، ص٢٥٠.
- ٢- ابن هشام، ص ٢٥٠ - ٢٥٣.
- ٣- ابن سعد، ج٣٠، ص٣٥٢.
- ٤- المسعودي، مروج الذهب، ص٤٢٦.
- ٥- الطبري، ج٥، ص ١٣٠ - ١٣٢.
- ٦- المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٣٠ - ٢٤٢.
- ٧- المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.
- ٨- ابن الأثير، ج٣، ص ٣٠ - ٣١.
- ٩- الطبري، ج٤، ص ٣٤٤ - ٣٤٥.
- ١٠- المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٤٥.
- ١١- المصدر نفسه والجزء والصفحة.
- ١٢- المصدر نفسه والجزء والصفحة.
- ١٣- المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٩٢، ٢٤٤، ٢٥١ - ٢٥٢.
- ١٤- البلاذري، ص ٤٥٣.
- ١٥- معجم البلدان، ج١، ص ٢٠٣.
- ١٦- البلاذري، ص ٢٨٩.
- ١٧- ابن عبد الحكم، ص ١١٩.

- ١٨- المصدر نفسه، ص ١٢٨.
- ١٩- الطبري، ج ٤، ص ٣١٧.
- ٢٠- البلاذري، ٢٣١ - ٢٣٤.
- ٢١- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ٣٧٥ - ٣٧٦.
- ٢٢- ابن عبد الحكم، ص ١٣٢.
- ٢٣- البلاذري، ص ١١٦ - ١١٧.
- ٢٤- ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٩.
- ٢٥- ابن عبد الحكم، ص ١٩٣.
- ٢٦- ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٨.
- ٢٧- البلاذري، ص ١٥٢.
- ٢٨- ابن الأثير، ج ٣، ص ٥٨ - ٥٩، ابن عبد الحكم ص ١٩١.
- ٢٩- ابن الأثير، ج ٣، ص ٥٦.
- ٣٠- المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٣٢، ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٦٢.
- ٣١- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ٣٣.
- ٣٢- ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٣٧٢.
- ٣٣- المسعودي، ج ٢، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

٣٤- أمثال: ابن محرز وطويس وابن سريح، ابن خلدون، المقدمة، ص

٣٦٥.

٣٥- ابن الأثير، ج ٣، ص ٥٧.

٣٦- التوبة: ٣٤.

٣٧- الطبري، ج ٥، ص ٦٦.

٣٨- المسعودي، ج ٢، ص ٣٣٤، ابن الأثير، ج ٣، ص ١٨٣، اليعقوبي،

ج ٢، ص ١٧٠.

٣٩- الحجرات: ٦.

٤٠- المسعودي، ج ٢، ص ٣٣٦، ابن الأثير، ج ٣، ص ١٠٧.

٤١- ابن الأثير، ج ٣، ص ١٣٨.

٤٢- المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١١.

٤٣- المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٣ - ٨٥.

٤٤- لقد روى الطبري قصة ذلك الكتاب، ومواجهة الثوار لعثمان بالأمر

وقسمه على أنه ما كتب ولا أمر بكتابة هذا الكتاب، أنظر: ج ٥،

ص ١٠٨.

٤٥- ابن الأثير، ج ٣، ص ١٧٨.

الفصل الرابع

خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام

المبحث الأول: شخصيته، بيعته، منهجه في الحكم

المبحث الثاني: معركة الجمل

المبحث الثالث: معركة صفين ونهاية الخلافة الراشدة

المبحث الأول

شخصيته، بيعته، منهجه في الحكم

شخصية علي بن أبي طالب عليه السلام:

ولد علي من أبوين من بني هاشم قبل البعثة بعشر سنوات، فأبوه أبو طالب ابن عبد المطلب بن هاشم عم الرسول، وأمه فاطمة بنت أسد ابن هاشم، وقد سمته أمه في البداية "حيدرة" على اسم أبيها أسدن والحيدرة هو الأسد، ثم غيّر أبوه فسماه "علياً" وبهذا الاسم عرف واشتهر، ومن الثابت أن فاطمة أسلمت وهاجرت مع الرسول، وكانت من السابقات إلى الإسلام.

كان علي أصغر أخوته، ونظراً لما أصاب أبا طالب من الجهد بسبب كثرة عياله عرض عليه ذوو قرياه كفالة بعضهم من قبيل التخفيف عنه، فاحتفظ بابنه عقيل الذي كان أثيراً لديه وسمح لأخيه حمزة بأن يأخذ جعفر، وللعباس يأخذ طالب وللنبي بأخذ علي، وهكذا قنّر لعلي أن يتربى في كنف النبي الذي أحاطه برعايته وأكرم مثواه رداً لجميل عمه نحوه حين كفله في صغره عقب موت جده عبد المطلب.

ولما بعث النبي كان علياً صبياً فأمن بدعوته فكان أول من آمن من الصبيان. ولا عجب! فكل الذين ضمهم بيت النبي وقتذاك أظهروا حبهم الشديد له

وبادروا إلى الدخول في الإسلام وفي مقدمة هؤلاء زوجه الطاهرة السيدة خديجة ومولاه زيد بن حارثة الذي فضل أن يعيش في كنف النبي على العيش مع والده وقد أحنَّ على النبي مثلهما وتحمس للدعوة الإسلامية وهو بعد صبي، فحين دعا النبي قومه عند الصفا وناشدهم الدخول في الإسلام ومؤازرته على نشره لم يستجيب منهم أحد وقال عمه أبو لهب في سخرية لاذعة: "تباً لك ألهذا جمعتهما؟ فانسبري علي من بين الحاضرين وقال للنبي: أنا وزيرك.. أنا عون لك حرب على من يعاديك".

ولعلي تاريخ حافل في خدمة الإسلام منذ صباه وأبلى بلاء منقطع النظير فقد نام مكان الرسول ليلة أن هاجر إلى يثرب وهو يعلم أن الكفار وطدوا العزم على قتله، ثم لحق بالرسول بعد أن رد الودائع التي كانت لدى الرسول إلى أهلها، فضرب علي بذلك أروع أمثلة البطولة والفداء، وحين آحنى النبي في يثرب بين أتباعه من المهاجرين والأنصار خص علياً من بين هؤلاء يشرف أخوته عليه الصلاة والسلام، ثم لم يلبث أن زوجه من ابنته فاطمة في السنة الثانية للهجرة.

ومن الثابت أن علياً شهد المشاهد كلها باستثناء "تبوك" إذ عهد إليه النبي برعاية شؤون أهله حين خرج في هذه الغزوة، وكان علي في كل هذه المشاهد النجم اللامع والبطل المغوار، ففي يوم بدر كان ثالث ثلاثة قدمهم النبي لمبارزة الكفار، وعلى الرغم من صغر سنه يومذاك فلم يمهل خصمه إذ بادر بالإجهاز

عليه، وفي يوم الخندق اجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن عبد ود فارس جزيرة العرب الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحاب وعند أعدائه على السواء. وقد خرج عمرو يومذاك مقنعاً في الحديد ينادي في جيش المسلمين: هل من مبارز؟ فقال علي بأعلى صوته: أنا له يا رسول الله، فأشفق عليه وقال فه: إنه عمرو، اجلس، ثم عاد عمرو ينادي في تحد ظاهر: ألا رجل يبارز؟ وأعاد هذا القول المرة تلو المرة، وعليّ يحاول النهوض إليه والرسول يقول له اجلس، إنه عمرو، وهو يجيبه، وإن كان عمروا ... وأخيراً أذن له الرسول بالنهوض إليه وقد استنكف عمرو منزلة فتى صغير وراح يقول: يا ابن أخي إن من أعمامك من هو أسن، وإنني أكره أن أريق دمك، فرد عليه علي بقوله: لكنني والله لا أكره أن أريق دمك، فاستشاط عمرو غضباً ووجه ضربة بسيفه البتار إلى علي فتلقاها بدرقته، ولم يلبث أن رد عليه بضربة أردته صريعاً، مما حدا بالمسلمين إلى أن يجأروا يومذاك بالتهليل والتكبير.

وفي غزوة خيبر وقع اختيار الرسول على علي بن أبي طالب ﷺ وقال: لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فيفتح الله عليه، فلما أصبح الناس دعا عليه ووجهه إلى ما استعصى على المسلمين من حصون خيبر، فأتم الله فتحها على يديه.

ازدانت شجاعة علي بالتورع عن البغي والمروءة مع الخصم قوياً كان أو ضعيفاً، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال، والدليل على ذلك أنه على الرغم من قوته البالغة وشجاعته النادرة لم يبدأ أحد

بقتال، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام، ومن الثابت أنه كان ينصح ابنه الحسن بقوله: "لا تدعو إلى مبارزة، فإذا دعيت إليها فأجب، فإن الداعي إليها باغ والباغي مصروع"، وقد علم علي ذات يوم أن جنود الخوارج يغادرون عسكره وهم يتأهبون لحربه، ونصحه البعض بضرورة المبادرة إلى قتالهم قبل أن يشرعوا هم في قتاله، لكن علياً أبى أن يكون هو البادئ في القتال وقال لنا صحبه: "لا أقاتلهم حتى يقاتلوني" وقد التزم علي بهذا المبدأ على الدوام، فلم يكن المبادئ بالقتال في وقعتي الجمل وصفين، ولا في غيرها من الوقائع، صغرت أو كبرت، وضح فيها عداء العدو أو غمض.

كان علي منع جنده من الإجهاز على مدبر أو جريح، ومن أن يكشفوا سترأ أو يأخذوا مالاً، وقد صلى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعداء على السواء، ولما ظفر بعبد الله ابن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص - وهم ألد أعدائه المؤيدين عليه - عفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظفر بعمر بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدة، فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حيث كشف عن سواته اتقاء لضربته.

وحال جند معاوية بينه وبين الماء في وقعت صفين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشاً، فلما حمل عليهم وأجلهم عنه سمح لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وحين راجعه أتباعه حرص علي على زيارة السيدة عائشة بعد وقعة الجمل التي قادتها ضده رغم انتصاره على جيشها، كما ودعها أكرم وداع حيث سار في ركبها أميالاً وسير معها من يخدمها ويحف بها على الرغم من أن

طلحة بن عبيد الله قد خلع ببيعته وجمع الجموع لحربه، إلا أنه رثاه حين قتل رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة، ولم يتخل علي عن هذه المبادئ السامية حتى آخر رمق في حياته فمن الثابت أنه نهى أهله وأصحابه عن أن يمثلوا بقاتله عبد الرحمن بن ملجم أو أن يقتلوا أحداً غيره.

كذلك اشتهر علي بحرصه الشديد على أموال المسلمين، فيذكر الطبري أن خازن بيت المال في خلافة علي قال: "دخل علي يوماً وقد زينت ابنته فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال فقال: من أين لها هذه؟ لله علي أن أقطع يدها، فلما رأيت جدّه في ذلك قلت: أنا يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطيها؟ فسكت" وطلب أخوه عقيل بن أبي طالب شيئاً ذات يوم من بيت المال بدون وجه حق فمنعه علي وقال له: "يا أخي ليس لك في هذا المال غير ما أعطيتك، ولكن أصبر حتى يجيء مالي وأعطيك ما تريد" غير أن عقيلاً لم يرضه هذا الجوب وفارق أخاه إلى بلاد الشام حيث قصد معاوية بن أبي سفيان" (١).

من جانب آخر كان علي فوق بلائه في الحرب مدينة علم وورع وتقوى وفضائل يعرفها الجميع ومضرب الأمثال في العلم والفقه والفصاحة، يلقي القول فيأخذ بمجامع القلوب ويخطب الخطبة فيثير النفوس، فيذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء (٢): إنه كان أشعر الخلفاء الراشدين، وقد احتوى الكتاب المنسوب إليه والمسمى (نهج البلاغة) كثيراً من الأشعار والخطب البليغة والحكم النادرة. هذا فضلاً عن أنه كان يرجع إليه في كثير من مسائل الدين وتفسير القرآن ورواية

الحديث ومسائل الميراث والقضايا الفقهية المستعصية، وقد روي أن عمر كان يتعوذ من القضايا المعضلة ويقول: قضية ولا أبا حسن لها، وأبو الحسن كنية علي بن أبي طالب.

بيعة علي:

بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان أصبحت المدينة "عاصمة الدولة الإسلامية" في قبضة الثوار، وأصبح المسلمون بدون خليفة يقودهم ويجمع كلمتهم ويدبر أمورهم، وأوشكت الفوضى أن تطل برأسها وظل الحال على ذلك أربعة أيام بعد مقتل عثمان وفي اليوم الخامس أعلن الثوار أنهم لن يتركوا المدينة قبل اختيار خليفة جديد، لأنهم كانوا يعلمون أنه لا بد للناس من إمام ولا بد أن يبايع هذا الإمام في أسرع وقت قبل أن يستبد عمال عثمان بما في أيديهم، وخاصة أقواهم "معاوية بن أبي سفيان" وربما يرسل قواته إلى المدينة لإخضاعها لسلطته.

وعلى الرغم من اتفاق الثوار على ضرورة اختيار خليفة غير أنهم لم يتفقوا على شخص الخليفة، وقد اضطرب أمرهم وبقوا حيارى لا يدرون ماذا يصنعون وأدركوا أنهم إن رجعوا إلى أمصارهم بقتل عثمان دون تولية خليفة جديد اختلف الناس في أمرهم، كما أدركوا أنهم لن يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس إماماً، وأنه لا بد من الاستعانة بالمهاجرين والأنصار على ذلك فجمعوا أهل المدينة وقالوا لهم: "يا أهل المدينة أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الإمامة وحكمكم جائز على الأمة فانظروا رجلاً تتصبونه ونحن لكم تبع وقد أجلناكم

يومكم، فوالله لئن لم تفرغوا ليقتلن غداً علي وطلحة والزبير وأناس كثيرون، فذهب أهل المدينة إلى علي يعرضون عليه الإمامة ويلحون عليه في قبولها وحاول أن يمتنع فخوفوه من الفتنة.

وهناك رواية أخرى تقول: إن علياً قال لهم: "دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان - لا تقوم به القلوب ولا تثبت له العقول" فقالوا له: "ننشدك الله ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الفتنة؟" فقال: "قد أجبتكم، وأعلموا أنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلا أنني من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه"، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد، وتشاور الناس فيما بينهم.

وفي اليوم التالي الموافق ٢٣ من ذي الحجة سنة ٣٥ هجري اجتمع المسلمون بالمسجد فقال لهم علي: "إن كنتم لا تزالون على ما أبرمنا أمس فأننا معكم على ذلك وإلا فلا سبيل لي على أحد" فقالوا له نحن على ذلك، وتداعى الناس للبيعة وبايعه جمهور من كان حاضراً بالمدينة وتخلف عنها بعض من كانوا بالمدينة من الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وحسان بن ثابت والنعمان بن بشير ومحمد بن مسلمة وأبو سعيد الخدري وأسامة بن زيد وغيرهم ممن اعتزلوا الفتنة^(٢).

أما طلحة والزبير فقد اختلفت الروايات في موقف كل منهما منبيعة علي ﷺ، فبعضها يروي أنها تأخرا عن البيعة حتى أكرها عليها فجاء بهما

قهرأ فبايعاه تحت ظلال السيوف وبعضها يروي أنهما كانا على رأس المبايعين لعلي بالخلافة عن رضا واختيار^(٤).

لقد تمت البيعة لعلي بعد مقتل عثمان بخمسة أيام وظهر أن الأمور قد استقامت لعلي في الحجاز وفي الكوفة وفي البصرة وفي مصر، ولكن الذي كان يشغل علياً هو الشام لعدم اشتراكه في البيعة من جهة ولأن واليه هو معاوية أقوى الولاة وهو ابن عم عثمان من جهة أخرى، ولكن علياً كان يرى أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها بإجماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي وموطن الصحابة وهم أهل الحل والعقد.

وعلى الرغم من أن البيعة قد تمت لعلي إلا أنه كانت توجد جبهة معارضة -إن صحت هذه التسمية- ضد هذه البيعة، وأسباب هذه المعارضة لا يمكن أن تفسر أو تندرج في إطار الحرص على مصلحة الإسلام أو مصالح الأمة بقدر ما كانت تعبر عن مصالح وأهواء شخصية، فالمعارضة لم تكن شعبية بقدر ما كانت معارضة "نخبة" أو مجموعة محددة من الصحابة ويمكن أن نفسر أسبابها بالآتي:

كان علي رضي الله عنه غرة بن هاشم وكانت أحقيته في الخلافة مبنية في المقام الأول -في نظر البعض على الأقل- على قرابته من الرسول ﷺ وكان معنى هذا أن إسناد الخلافة إليه سوف يجعلها وراثية في بنيه من بعده، وهذا مبدأ لا يقره الإسلام ولا تقبله العرب، ولا يرتضيه الطامعون في الخلافة.

من جانب آخر - وهو الأهم - أن وصول علي إلى حكم الدولة الإسلامية معناه العودة إلى المبدئية والصلابة والحزم في تطبيق المبادئ الإسلامية هذا في الوقت الذي استراح فيه كثير من الناس إلى سهولة ولين وتسامح عثمان بعد تشدد عمر رضي الله عنهما - فكيف لهم العودة إلى الدقة والصرامة والحساب، كما كان هناك الكثيرون الذين أثروا بدون حق وحصلوا على نفوذ كبير ومعنى إسناد الخلافة إلى علي ضياع ثرواتهم وفقدان سلطانهم. لهذه الاعتبارات وغيرها لم تكن بيعة علي بالإجماع الكامل من الذين كانت تحركهم مصالحهم الخاصة.

سياسة الإمام علي عليه السلام ومنهجه:

بعد أن تمت البيعة لعلي خطب الناس خطبة قال فيها: "إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائص أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حراماً غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإن من خلفكم الساعة تحذوكم، تخففوا تلهفوا، فإنما ينتظر الناس آخرتهم، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه، (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض)^(٥).

نهج علي عليه السلام منهج عمر وسار بسيرته في الزهد وإقامة العدل والشدّة على ذوي الأهواء فقد كان يرى أن أسلوب عمر في الحكم هو الأسلوب الأمثل لقيادة الدولة الإسلامية، فيروى عنه أنه قال: "إن عمر كان رشيد الأمر ولن أغير شيئاً صنعه"، وقد عاش عليه السلام عيشة أقرب إلى الخشونة والشظف أقرب منها إلى الرفه واللين، وكان يحمل عماله على الزهد والتقشف والرفق بالرعية، ويطلب منهم الاستعانة في أعمالهم بالأشخاص الذين يستطيعون تحمل المسؤولية بغض النظر عن الصداقة والقرابة، وكان شديد الحرص على مصالح الأمة شدة أبعدت عنه كما كرهت فيه أصحاب المطامع الشخصية.

ومن أبرز ملامح سياسة علي بن أبي طالب عليه السلام أنه أمر بتقسيم المال الفائض على الناس بالسوية دون تفضيل أحد على أحد، كما عاد إلى سياسة عمر في عدم السماح لكبار الصحابة بالانسياح في الأمصار والإبقاء عليهم بجواره في المدينة مخافة أن يفتتن بهم الناس، أو يفتنوا هم بالناس.

من جانب آخر قام الإمام بعزل الولاة الذين كانوا في خلافة سلفه عثمان ابن عفان، واستبدلهم بولاة جدد، لأنهم كانوا مثار شكوى وتذمر المسلمين، وأهم أسباب الفتنة ولأن عزلهم كان ضرورياً لإسكات ألسنة الذين يتهمونهم بالعسف وعدم الكفاءة^(١).

من ذلك يتبين لنا أن عليا عليه السلام قد سار في الناس سيرة عمر بن الخطاب عليه السلام ولكن مع رعية أشد وأعسر من رعية عمر، وأرغب في الدنيا منها، وأخذ نفسه بأشد مما أخذ عمر نفسه، فهو بذلك ابتغى المثالية في وقت انعدمت فيه

المثالية هذا فضلاً عن اتحاد كلمة المسلمين وانقيادهم لعمر، بينما في عصره اختلفت الآراء، وتشتت الأهواء، وعلى ذلك فمنهج علي جاء في وقت غير وقته.

المبحث الثاني

معركة الجمل

مقدمات الأحداث:

لم تصف الخلافة لعلي بن أبي طالب يوماً واحداً منذ تسلمها بعد مقتل عثمان، فقد أخذت الأحداث تسير بسرعة مذهلة نحو مسار مؤلم أسفر عن دراما دموية خضبت وجه التاريخ الإسلامي المشرق بالدماء البريئة وأجبر علي على خوض غمار معركتين كبيرتين كانتا أول حرب أهلية في الإسلام هما: وقعة الجمل ووقعة صفين.

إن المتتبع لتلك الأحداث ومقدماتها لابد أن يقرر بأن هاتين المعركتين ترتبطان في أسبابهما بعنصرين أساسيين، الأول: شخصية الإمام علي بن أبي طالب ﷺ وسياسته، والثاني: مقتل الخليفة عثمان بن عفان، وإن مناقشة هذين العنصرين بموضوعية وحياد هي محاولة لوضع الأمور في نصابها التاريخي الصحيح.

أما عن سياسة علي - فمما لا شك فيه- أن سياسة الإنسان جزء منه ومראה لأخلاقه، وعلي بن أبي طالب مجبول على المبدئية والصراحة، لا يعرف في الحق لومة لائم، فكانت سياسته صدى لهذه الأخلاق، وقد بادر بعد

بيعته مباشرة وتنفيذاً لمنهجه الذي التزم به في خطبته السابقة بإصدار أمرين في منتهى الصرامة وهما: عزل ولاية عثمان وإرسال ولاية بدلاً عنهم، واسترداد القطائع والهبات الكبيرة التي أقطعها ووهبها عثمان من بيت المال لأقربائه بدون حق، ولم يستمع علي لنصح أقاربه وأتباعه الذين أشاروا عليه أن يؤجل هذا التصرف ريثما تستقر له الأمور لأنهم توقعوا أن تصرفه هذا سينتج عنه حتماً تمرد بني أمية -أقارب عثمان- وعصيانهم وفي مقدمتهم معاوية بن أبي سفيان.

وذكر المؤرخون أن المغيرة بن شعبة -أحد دهاة العرب- أتى علياً عندما علم باتجاه علي نحو هذه السياسة فخلا المغيرة بعلي ونصح له بإقرار عمال عثمان على ما في أيديهم ليكونوا عوناً له وسنداً حتى إذا ما أئته بيعتهم واستقامت له الأمور يعزل من يشاء، فقال علي للمغيرة: "لا أداهن في ديني، ولا أعطي الدنية في أمري" فتركه المغيرة ثم عاد في اليوم التالي وقال: "إن الرأي أن تعزل عمال عثمان وتستعين بمن تثق به"، وقد جاء بعد ذلك ابن عباس إلى علي فقص عليه رأي المغيرة بالأمس ورأيه اليوم فقال ابن عباس: "لقد نصحك بالأمس وغشك اليوم" فقال علي: "ولم نصحنى؟" قال: "لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولى هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا (أي عثمان)، ويؤلبون عليك فتنتفض عليك الشام والعراق، مع أنني لا آمن من طلحة والزبير أن يكرّا عليك، وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية، فإن بايع لك فعلي أن أخلعه من منزله" فقال علي: "والله لا أعطيه إلا السيف"، وقال ابن عباس: "يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب"، وبعد محاوره طويلة قال له ابن عباس: "أطعني... فإن العرب

قد تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، أما اليوم فإن بني أمية يلزمونك شعبة من هذا الأمر، ويشبهون على الناس، ويطلبون مثل ما طلب أهل المدينة، ولا تقدر على ما يريدون" فأبى علي إباء شديداً وسار في طريقه واختار عماله اختياراً حسناً ولكن أكثر هؤلاء العمال عادوا إليه ولم يستطيعوا أن يدخلوا الولايات التي حددها لهم^(٧).

وبصدد موقف كل من طلحة والزبير فقد استدعاهما علي وطلب رأيهما فلم يعطياه رأياً واضحاً وطلبوا السماح لهما بالخروج إلى مكة للعمرة فأذن لهما^(٨).

أما معاوية بن أبي سفيان والي الشام فقد رفض الطاعة لعلي وانتفض عليه وإزاء ذلك بدأ الخليفة علي بن أبي طالب يتجهز لغزو الشام والقضاء على تلك الحركة الانفصالية التي قادها معاوية قبل تفاقمها، وبينما كان الخليفة يعد العدة لغزو الشام جاءه الخبر بأن أهل مكة قد أجمعوا أمرهم للخروج على الخليفة فوجه نظره إليهم^(٩).

أما العنصر الثاني الذي يتصل بأسباب المعارك التي خاضها علي بن أبي طالب مضطراً وهو مقتل عثمان بن عفان والمطالبة بثأره والقصاص من قاتليه فإنه لم تكد تتم بيعة علي ويرجع إلى بيته حتى جاءه طلحة والزبير في عدد من الصحابة وقالوا: يا علي، إنا اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم (الثوار) قد اشتركوا في قتل هذا الرجل (عثمان) وأحلوا بأنفسهم، فقال لهم علي: يا أخوتاه لست أجهل ما تعلمون ولكنني ماذا أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم حلا لكم يسومونكم ما شاءوا،

فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فوالله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله، إن هذا الأمر أمر جاهلية -يعني الثأر- فاهدؤوا عني حتى يهدأ الناس، وتنع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق، فتفرق القوم.

كان الخليفة علي واضحاً في موقفه بخصوص القصاص من قتلة عثمان، وهو التريث والانتظار حتى تستقر الأمور وتهب النفوس، ويتمكن من سيطرته على الأوضاع في الدولة وبذلك تقوى سلطة الخليفة، ثم بعد ذلك يشرع بالقصاص من قتلة عثمان، ولكن يبدو لنا من جهة أخرى أن الذين أثاروا مسألة القصاص في وقت مبكر أردوا إحراج الخليفة الجديد ومحاصرته في مركز لا يحسد عليه، فقد أصبح أمام المطالبة بالثأر من قتلة عثمان بين أمرين لا ثالث لهما: إما التعجيل بالقصاص من قتلة عثمان وإقامة الحد عليهم وبذلك سيثور أنصار هؤلاء الجناة وتكون فتنة أخرى لا قبل له بها، لأنهم -كما قال- "يملكوننا ولا نملكهم" وإما أن ينتظر حتى تستقر له الأمور ويقوى مركزه ويستطيع الأخذ بالقصاص وبذلك سوف تزداد نيران الثورة اشتعالاً من أجل المطالبة بثأر عثمان.

أمام هذا الاختيار الصعب رأى الإمام علي الانتظار حتى تستقر الأمور ويستقيم له المر، وذلك لم يرضِ المطالبين بثأر عثمان وازدادت ثورتهم اشتعالاً، فقد رحل بنو عثمان إلى الشام حيث أميرها معاوية وقد أصبح عميد بني أمية هذا فضلاً عن قدرته بحكم مركزه القوي في بلاد الشام على المطالبة بالثأر كما رحل غيرهم إلى الأمصار المختلفة يصورون لأهلها تلك الجريمة البشعة التي حلت

بالخليفة عثمان من قتل وتمثيل، فثارت النفوس وارتفعت الأصوات في مصر والشام والكوفة والبصرة واليمن تطالب بسرعة القصاص من قتلة عثمان.

في مثل هذه الظروف الصعبة أقدم الخليفة علي بن أبي طالب على عزل ولاية عثمان الأمر الذي زاد الأحوال سوءاً وتأزماً ولم يترث في مسألة عزلهم عن تلك الأمصار حتى يضمن وقوفهم بجانبه ولو إلى حين، ولكن الإمام علي لا يعرف المداينة والمداورة ولم يكن رجل سياسة بالمعنى المعروف بل كان مثالياً صريحاً في الحق لا يخشى في ذلك لومة لائم، فكيف يتناقض مع نفسه ويستبقي هؤلاء الولاة الذين طالما طالب عثمان بعزلهم لظلمهم، إنما عزلهم على الرغم من معارضة الناصحين له - كما سبق وأشرنا - وكان ما كان من رفض أغلبهم الانصياع لأوامر الخليفة وتمردهم عليه ولا سيما معاوية الذي أقام بالشام بعد العدة، ويرتب ما تسفر عنه الحوادث معلقاً قميص عثمان على منبر المسجد الجامع بدمشق ومتهماً الخليفة علي بالتستر أو التراخي مع قتلة عثمان فولد ذلك في - النفوس هناك حركة انتقامية تهدف إلى معاقبة هؤلاء المجرمين، كما حمل البعض بين طيات هذا الموقف أغراضاً أخرى واتخذة ستاراً لتحقيق أهدافه ومآربه الخاصة وفي مقدمتهم معاوية بن أبي سفيان.

أما الموقف في مكة فلم يكن خيراً منه في الشام فقد ساء عائشة - زوجة الرسول ﷺ - ما لقيه عثمان وانضم إليها بمكة سائر بني أمية وبعض أهل الحجاز وعلى رأسهم طلحة والزبير، وكان الجميع يستتر تحت شعار "المطالبة بدم عثمان" فالتج ذلك صدر معاوية وازداد جرأة وإقداماً وعمد إلى إلهاب الحماسة

ففي نفوس هؤلاء بما وجهه إليهم من رسائل، وراح ينتظر ما يسفر عنه الموقف بين أهل مكة والخليفة وعلي بن أبي طالب عليه السلام (١٠).

لقد ذهب بعض المستشرقين وبعض المؤرخين إلى القول بأن السياسة غير الموقفة التي اعتمدها الإمام علي بن أبي طالب هي التي جرت به إلى تلك الحروب ولكننا لو نظرنا إلى مسار الأحداث بشيء من التمعن والدراسة الموضوعية لوجدنا أن هذا الرأي مبالغ فيه وينطوي على رؤية قاصرة للأمور، وتأكيداً لقولنا هذا نطرح الأسئلة الآتية، والجواب عليها يمثل خير رد على أصحاب ذلك الرأي:

- هل كان من الممكن أن يحتج عليّ على الولاة الظالمين ويطلب من الخليفة عثمان عزلهم حتى إذا تولى الخلافة تركهم يمارسون ظلمهم؟.
- هل كان من الممكن أن يثور علي على القطنع والهباب التي أعطيت من بيت مال المسلمين بدون حق لأقارب الخليفة حتى إذا تولى هو الخلافة أقرها؟.
- هل كان التمرد الذي عاناه علي ناشئاً عن عزل الولاة واسترداد القطنع؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تمرد طلحة والزبير وخاضا غمار حرب الجمل ضده؟.
- هل يتخيل المؤرخون أن معاوية كان سيبيع علياً ويسير في ركابه لو لم يعزل؟.

- وأخيراً هل يمكن أن نطلب من علي بن أبي طالب ﷺ أن يكون شخصاً آخر غير علي؟^(١١).

وفي سياق هذه التساؤلات قال بعض المؤرخين: إن ذلك الوقت لم يكن الوقت المناسب لعلي لكي يصبح خليفة، وكان من الأفضل للمسلمين أن يتولى أمر الخلافة شخصية أخرى غير علي في ذلك الوقت، شخص يستطيع المداينة والمداورة، على أننا يجب أن نتذكر جيداً أن محاولة تنصيب شخص آخر غير علي في منصب الخلافة كان أمراً محكوماً عليه بالفشل، وهل كان هناك من يجرؤ على التقدم لمنصب الخلافة وعلي موجود؟.

وتأسيساً على كل ذلك يمكن القول أن تولية علي كانت طبيعية، وأن سلوكه في سياسته كان أمراً طبيعياً، وأن التمرد الذي واجهه كان طبيعياً أيضاً، وكان نتيجة لسير الأحداث لأنه كان صراعاً من أجل السلطة والمصالح الخاصة، وإن اتخذ تبريره في مقتل عثمان، أو المطالبة بثأره، أو عزل الولاة أو استرداد الأموال المسلوقة من بيت مال المسلمين.

موقعة الجمل(*):

عزم علي ﷺ على غزو الشام لإخماد فتنة معاوية قبل أن يستفحل خطرهما، فلما بلغ ذلك طلحة والزبير استأذناه في العمرة فأذن لهما، فلحقا بمكة، ولقيا عائشة فسألتهما عما صنع الناس بعد مقتل عثمان فأجابها طلحة: "بايعوا علياً ثم أتوني فأكرهوني حتى بايعت" فقالت: "وما لعلي يستولي على رقابنا، لا أدخل المدينة ولعلي فيها سلطان"^(١٢) فرجعت.

فلما أتاها خبر أهل الشام بأنهم ردوا بيعة علي وأبوا أن يبايعوه فأخذت تدعو لطلب الثأر من قتلته، أما علي فأخذ يجهز حملته المقبلة إلى بلاد الشام فدفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية وولى عبد الله بن عباس على ميمنته وعمر بن أبي سلمه على ميسرته وأبا ليلى بن عمر الجراح على مقدمته ثم استخلف قثم بن العباس على المدينة، ودعا أهلها إلى قتال أهل الشام، كما كتب إلى قيس بن سعد (عامله على مصر) وإلى عثمان بن حنيف (عامله على البصرة) وإلى أبي موسى الأشعري (عامله على الكوفة) يدعوهم إلى نذب الناس لمحاربة أهل الشام، وبينما كان في طريقه إلى الشام إذ وصله كتاب من أخيه عقيل يخبره بأن طلحة والزبير نكثا بيعتهما له وانضمت إليهما عائشة وأنهم خرجوا في جموع كثيفة نحو البصرة فاضطر علي إلى تغيير وجهته إلى الكوفة وسار في تسعمائة من وجوه المهاجرين والأنصار^(١٣).

كانت عائشة أول من طالبت بدم عثمان على الرغم من أنها كانت أكثر خصومة وعداء له، وقد استجاب لها عبد الله بن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة، وتبعه عدد كبير من بني أمية على ذلك، وكانوا قد تسللوا من المدينة هاربين ولاذوا بمكة، وتبعهم المغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص كما قدم إليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير، ويعلى بن منبه ومعه ستمائة ألف درهم، فأناخ بالأبطح، ثم قدم إليها طلحة والزبير بحجة قضاء العمرة، وأعلنا نكثهما لبيعتهما لعلي، واستقر رأي الجمع على السير إلى البصرة لكثرة من بها من صنائع ابن عامر، وساروا إليها في ألف من أهل مكة والمدينة ولحقهم الناس، حتى أصبح عدة من معهم ثلاثة آلاف رجل، وما أن وصلت عائشة ومن

معها إلى نواحي البصرة حتى أقامت "بالحفير" وكتبت إلى رجال أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس وغيره تدعوهم إلى الانضمام إليها في المطالبة بدم عثمان، ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف والي المدينة الناس إلى التأهب للقتال، ثم أقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى "المربد" وتم الاشتباك بين اتباع علي وعلى رأسهم عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة العبدى وبين اتباع عائشة وطلحة والزبير في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٣٦ هجري، وانتهت بهزيمة اتباع علي ومقتل حكيم بن جبلة، أما عثمان بن حنيف فقد وقع أسيراً فأمر مروان بن الحكم بعثمان ففتقت لحيته وشعر رأسه وحاجباه، وضرب أربعين سوطاً ثم أطلق سراحه فقابل علياً في ذي قار^(١٤).

وما كاد علي يصل إلى "الربذة" حتى علم بما أصاب عثمان بن حنيف واتباعه من أهل البصرة على أيدي العثمانية فأقام بالربذة بعض الوقت وسير خلال ذلك رسولين من قبله (محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر) إلى الكوفة لدعوة أهلها إلى نصرته ثم تابع علي سيره إلى البصرة ماراً بفيء والتعلبية حيث بلغه هناك مصرع حكيم بن جبلة وواصل سيره بعد ذلك حتى بلغ "ذي قار" وهناك أقبلت عليه وفود من بكر بن وائل وطيء وأسد وعرضوا عليه بذل النصرة والعون فشكرهم على عرضهم وأبلغهم بأن لديه من يكفيه من المهاجرين، وفي ذي قار أدركه رسوله إلى أبي موسى الأشعري بالكوفة يخبرانه بفشل مهمتهما فسير إلى الكوفة ولده الحسن في صحبة عمار بن ياسر فعادوا هذه المرة ومعهما من أهل الكوفة نحو تسعة آلاف وقيل ١٢ ألفاً قدموا عليه بذي قار^(١٥).

بلغ جيش الإمام علي بعد وصوله ذي قار نحو عشرين ألفاً، معظمهم من المهاجرين والأنصار وأهل الكوفة والبصرة، زحف بهم حتى دنا من البصرة فنزل "الخريبة" وهناك كتب الكتائب وعقد من الألوية والرايات سبعاً لقبائل العرب، وجعل لكل أصحاب راية قائداً، ثم عقد لسانر قریش والأنصار والحجاز راية، وولى عليهم عبد الله بن عباس، ثم قسم هذه الألوية إلى ميمنة جعل على مقدمتها الأشتر النخعي، وميسرة على رأسها عمار بن ياسر وقتلب يتقدمه ابنه محمد بن الحنفية.

ولما بلغ ذلك طلحة والزبير قاما بتعبئة حشودهما وعدتهما -على ما رواه البعض- ثلاثون ألفاً، وقسموها إلى كتائب، ثم عقدوا الألوية واستعدوا للقتال وعز على علي أن يقاتل المسلمون بعضهم بعضاً، فأقام ثلاثة أيام ورسوله يتردد على أهل البصرة يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة والدخول في الجماعة، ولكنهم لم يستجيبوا لندائه، فزحف بقواته لخصوص المعركة في ١٠ من جمادى الآخرة فلما دنت صفوفه من صفوف خصومه، وعائشة في هودجها في المقدمة قد كسي بصفائح الحديد والدروع يحمله جمل مجفف بتجافيف الحديد دعا القوم إلى الصلح وناشدهم حقن الدماء، ولكنهم أصروا على الحرب فطلب علي من طلحة والزبير أن يدنوا منه ليتحدث إليهما، فدنوا منه حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فذكر لطلحة والزبير بأنهم أخوة في الإسلام يحرمان دمه ويحرم دمهما ثم سألهما عن السبب في تحولهما عن الإحسان فأجابه طلحة بأن مرجع ذلك أنه ألب على عثمان وأنه إذا كان قد بايع علياً فإنه مكرها والسيف على عنقه، ثم ذكر علي الزبير بأمور جرت في حياة رسول الله ﷺ عندما قال ﷺ موجهها حديثه للزبير بعد

أن رآهما يحبان بعضهما بعضاً: "إما أنك تقاتله وأنت ظالم له" (١٦) فلما ذكره بذلك أبدى الزبير أسفه وأقسم ألا يقاتل علياً أبداً ثم انصرف إلى أصحابه وهو ينوي اعتزال المعركة، ولكن ابنه عبد الله أثناه عن ذلك واتهمه بالجبن عندما رأى رايات علي بن أبي طالب ﷺ فاحفظه هذا الاتهام وكفر عن يمينه لعلي بأن اعتق غلامه مكحولا ومع ذلك فقد ترك المعركة منذ بدايتها ولم يستطع أن يواصل القتال وقيل أن الزبير أقبل على ولده عبد الله فأفضى إليه برغبته في الانصراف من المعركة ودعا ولده إلى الانصراف معه فأبى عبد الله أن يرجع حتى يحكم الله بين الفريقين فتركه الزبير ومضى نحو البصرة وعقد النية على العودة إلى الحجاز، وقدر له أن يلقي مصرعه فقد أجمع المؤرخون على أن الزبير قتل غدرًا بوادي السباع، على يد عمرو بن جرموز أحد اتباع الأحنف بن قيس الذي طعنه ثم قتله (١٧). أما طلحة فقد أصابه سهم فاعتزل المعركة وهو جريح ينزف، ونزل في دار خربة وظل ينزف حتى مات وقيل طعنه مروان بن الحكم بعد أن أيقن بالهزيمة (١٨).

دارت المعركة في شهر جمادي الآخرة سنة ٣٦ هـ وكانت المعركة عنيفة في بدايتها ولكنها انتهت سريعاً في يوم واحد بهزيمة الحلفاء الثلاثة ونهى علي أصحابه عن قتل جريح أو أسير أو فار كما نهاهم عن انتهاب أي مال، وكان بين الأسرى مروان بن الحكم وعمر بن عثمان وموسى بن طلحة وعمرو بن سعيد ابن العاص فلما عرض عليهم علي أن يبايعوه أجابوه إلى ذلك فأخلى سبيلهم (١٩).

وأيا ما كان الأمر فقد كانت المعركة عنيفة فر منها الزبير لا جبناً ولا خوفاً ولكن لعدم إيمانه بأنه على حق فيما أقدم عليه وعند عودته مر بماء لبني تميم فرآه الأحنف بن قيس فقال: جمع الزبير هذين المعسكرين ثم ولى وتركهما، فنثار عمرو بن جرموز لذلك وكان في مجلس الأحنف فلحق بالزبير خفية حتى جلس تحت شجرة ليستريح ثم اضطجع وغفا فقتله عمرو وهو نائم، أما طلحة فيروي أن مروان بن الحكم عندما رآه في مطلع المعركة قال: لا أنتظر بعد اليوم بثأري من عثمان ورماء بسهم فأرداه قتيلاً. أما عبد الله بن الزبير فقد ضربه الأستر أحد قادة علي الأشداء حتى سقط، ولكنه لم يجهز عليه وبقي في خندق فلم يشترك في المعركة بعد ذلك، واعتبر ذلك منه فراراً، وقد ظل ابن الزبير يُعيراً بفراره وفرار أبيه من هذه المعركة فقد روي أنه هاجم عبد الله بن العباس مرة في المسجد الحرام فكان مما قاله ابن العباس له مدافعاً عنه نفسه: وأما قولك يا ابن الزبير أنني قاتلت أم المؤمنين فأنت أخرجتها وأبوك وخالك، أما أنت وأبوك فقد قاتلتما علياً، فإن كان علي مؤمناً فقد ظلمتم بقتلكم المؤمنين وإن كان كافراً فقد يؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف^(٢٠).

وبعد أن اختفى هؤلاء القادة بالموت أو الفرار ظلت المعركة تدور بدون قائد أو تحت قيادة عائشة من الناحية الشكلية وقد سقط آلاف القتلى من الجانبين، ولما رأى علي ذلك أرسل من عقر الجمل فسقط هودج السيدة عائشة فأمر علي بحمله إلى ناحية بعيدة عن ميدان القتال حتى لا تصاب أم المؤمنين بأذى وبقيت عائشة في هودجها إلى الليل وبسقوط الهودج انتهت المعركة بنجاح علي.

ثم جاء محمد بن أبي بكر إلى أخته عائشة فأدخلها داراً من دور البصرة فأقامت أياماً وعندما أرادت الارتحال جهزها علي بكل ما يلزمها من مركب وزاد ومتاع واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة ليكونوا برفقتها وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر وعاتبها عتاباً خفيفاً ولما حانت ساعة الرحيل ودعها علي بنفسه وسار بجانب الهودج حتى خارج المدينة وكان ذلك في غرمرجب سنة ٣٦هـ فسارت عائشة إلى مكة وأقامت بها إلى موسم الحج ثم توجهت إلى المدينة ولم تتدخل بعد هذه المعركة في الشؤون السياسية حتى وفاتها سنة ٥٨هـ.

كان عدد قتلى معركة الجمل -على ما يقدره بعض المؤرخين- نحو عشرة آلاف، وقدره آخرون بأكثر من ذلك، وقتل في هذه المعركة الكثير من أعلام المسلمين وقد حزن علي ﷺ لذلك أشد الحزن فكان يتعرف على القتلى من أصحابه ومن خصومه ويترحم عليهم جميعاً، كما صلى على القتلى جميعاً من أنصاره ومن خصومه، وأذن للناس من دفن موتاهم، وأقام في معسكره خارج البصرة فلم يدخل المدينة إلا بعد ثلاثة أيام، وحين دخلها جاء المسجد فصلى فيه وجلس للناس فبايعوه ثم عمد بعد ذلك إلى بيت المال فقسم ما وجد فيه بين الناس وأقبل على معاملة الناس جميعاً على السواء فلم يحاول معاقبة زعماء الحزب الذين انضموا إلى عائشة وجيشها، وقد أغضب فعله هذا بعض أنصاره ولكنه لم يكثرث لهذا ومضى في طريقه ولا عجب فهو ربيب النبوة.

بعد أن تلقى عليّ عليه السلام بيعة أهل البصرة انتقل إلى الكوفة واتخذها عاصمة لدولته وبذلك فقدت المدينة مركزها السياسي باعتبارها عاصمة للمسلمين وأصبح النزاع بعد ذلك محصوراً بين علي خليفة المسلمين وبين معاوية بن أبي سفيان زعيم الأمويين.

لقد كانت معركة الجمل أول حرب أهلية بين المسلمين وكانت بداية لمعارك قادمة اصطلى بنارها عشرات الألوف من المسلمين الأبرياء، وقد اختلف المسلمون بطوائفهم بعض الشيء في تحديد المسؤول عن هذه المعركة بل نجد بعض طوائف المسلمين يؤثر السكوت عن الخوض في هذا الموضوع نظراً لمنزلة زعماء الفريقين المتحاربين فهم جميعاً من الصحابة، كما أن بينهم السيدة عائشة زوجة الرسول ﷺ.

ولتحديد المسؤولية يجب أن نستبعد أولاً الكفر فليس لإنسان أن يكفر من قال [لا إله إلا الله محمد رسول الله] معتقداً لها، وزعماء هذه المعركة من الفريقين من خيرة من قالها مؤمناً بها، وقد سئل علي عليه السلام عن أصحاب الجمل: "أمشركون هم؟" قال: "من الشرك فروا". قيل: "فمنافقون هم؟" قال: "إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً"، قيل: "فما هم؟" قال: "إخواننا بغوا علينا" فالذي نتحدث عنه هو المسؤولية والإثم لهذه الدماء البريئة التي استغلت لأهداف خاصة، وهنا سؤال هام يطرح نفسه وهو: هل كانت هذه الحرب حرب مبادئ؟ وهل ثارت السيدة عائشة وطلحة والزبير لدم عثمان حقيقة؟

إن في الإجابة على هذا السؤال مدخل لتحديد المسؤولية إذ لو كانت حرب مبادئ لكان الأمر، وكان اجتهداً أخطأ فيه المجتهد، ولكن هذه الحرب لم تكن حرب مبادئ، ولم تكن من أجل دم عثمان، وليست اجتهداً أخطأ فيه صاحبه، وقد سئل مروان بن الحكم - وكان في جيش عائشة - إلى أين تسيرون؟ فأجاب: لقتل قتلة عثمان، فقال السائل: فاقتلوا قادة جيشكم فهم قتلة عثمان، وقد فر الزبير من المعركة - كما سبق وأشرنا - لأنه لم يكن يعتقد أنه على صواب، ولم يكن يدافع عن عقيدة، كما قتل مروان طلحة، ولم ينج من قادة جيش عائشة سوى السيدة عائشة نفسها لأنها امرأة ولأنها زوجة رسولنا ﷺ - وقد ظلت - كما يقول المؤرخون طوال عمرها حزينة تتمنى لو كانت ماتت قبل معركة الجمل بعشرين عاماً، كما يروي ابن عبد ربه أنها لما مرضت مرض الموت قيل لها تدفين مع رسول الله؟ قالت: لا، إني أحدثت بعده حدثاً فادفوني مع أخوتي بالبقيع، وذلك لأنها كانت تشعر بأنها تتحمل قسماً كبيراً من المسؤولية لأنها خرجت في الجيش فتحمس الكثير للخروج معها، كما أن آلاف القتلى قتلوا دفاعاً أو هجوماً حول جملها.

هذا ويقرر بعض الباحثين أن المسؤولية في هذه المعركة تكاد تنحصر في عائشة وابن أختها عبد الله بن الزبير، أما بقية الأطراف فإن مسؤوليتها قليلة ومن الأدلة التي يسوقها هؤلاء الباحثون: أن السيدة عائشة خرجت للمعركة على الرغم من وجود عوامل كانت كفيلة بمنعها من الخروج كبكاء آلاف المسلمين يوم خرجت من مكة لهذه الرحلة المشؤومة حتى سمي ذلك اليوم يوم الحبيب، وأيضاً الخطاب الذي تلقته عائشة من أم سلمة تعظها وتذكرها بأن خروجها

للحرب هتك للحجاب الذي ضربه الرسول عليها، وأهم من ذلك الآية الكريمة: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ التي لم يغب عن عائشة مغزاها.

ومع كل ذلك فقد خرجت السيدة عائشة مدفوعة بما في نفسها من علي بسبب موقفه منها في حادثة الإفك، كما أن هناك عامل أكبر دفعها للخروج وهو ابن أختها عبد الله بن الزبير الذي تربى في بيتها وتبنته حتى كانت تسمى أم عبد الله، وكان عبد الله يطمع في الخلافة ولكن وجود علي كان يحول بينه وبين تحقيق أمنيته، فدفع خالته عائشة لتخوض هذه المعركة ضد علي لعل عليا يسقط فيها فيخلو له الجو، وكثيراً ما ترددت عائشة ولكن عبد الله كان يحاول دائماً أن يزيل تردددها، وعلى ذلك فيمكن القول: إن السيدة عائشة دفعت لهذا العمل وأن الذي دفعها هو عبد الله، وقد روي أن عائشة سمعت منازعة أصحابها وكثرة صياحهم فقالت: المنازعة في الحرب خور؛ والصياح فيها فشل، وما برأيي خرجت مع هؤلاء. كما يستدل على ذلك من خلال الحوار الذي جرى بين ابن الزبير ومعاوية إبان خلافة معاوية الذي قال لابن الزبير: "... وخذعتم أم المؤمنين ولم تراعوا رسول الله ﷺ إذ أبرزتم زوجته للحتوف ومقارعة السيوف".

وكذلك فإن عائشة أثناء سيرها في الطريق إلى البصرة نحتها كلاب فسألت أين نحن؟ فقيل لها: عند ماء الحوآب، فقالت: ما أراني إلا راجعة لأنني سمعت الرسول يقول لنسائه: كأني بإحداكن تتبجها كلاب الحوآب، ولكن عبد الله ابن الزبير سرعان ما جاءها بمن يقسم لها أن ذلك ليس ماء الحوآب واستشهد لها ببعض الأعراب الذين أكثرهم لذلك.

من جانب آخر فإن عبد الله هو الذي دفع أباه الزبير أيضاً ليشارك في هذه الموقعة، فيروى أن علياً قال للزبير: كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا وقد أشرنا سابقاً إلى أن الزبير عزم على الرجوع عن الحرب وأعلن عزمه فجاءه ابنه عبد الله وحمسه بقوله: لعلك خشيت رايات ابن أبي طالب، وعلمت أنها تحملها فتية أمجاد وأن تحتها الموت الأحمر فجبت^(٢١).

المبحث الثالث

معركة صفين ونهاية الخلافة الراشدة

مقدمة:

كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأتباعه يعتقدون أن معركتهم الفاصلة يجب أن تكون ضد معاوية أتباعه من الأمويين وأهل الشام، فمعاوية هو الذي رفع شعار العصيان والتمرد بحجة المطالبة بدم عثمان لأنه ابن عمه وهو زعيم بني أمية وله جاه عريض بين جنده وأتباعه بالشام، ولم يكن طلحة والزبير -بعد بيعتهما لعلي- محسوبين من الأعداء الألداء، وكذلك لم يظن ظان أن ما بين علي وعائشة سيذفع بـ "أم المؤمنين" أن تقود الجيوش وتخوض معارك الحرب ضد علي، وبناء على كل ذلك كان استعداد علي من أول الأمر موجهاً لمقاومة معاوية وإخماد فتنته، ولكن الأحداث تطورت باتجاه آخر ومن ثم رأى علي أن يطمئن إلى ظهره أولاً قبل أن يتوجه لأهل الشام فخاض معركة الجمل، وكان من نتائج هذه المعركة سقوط الآلاف من القتلى، وهذا بالطبع أضعف جيش علي، كما سقط الآلاف أيضاً من أهل مكة والمدينة والبصرة ممن تبعوا عائشة وأصحابها، هذا بالإضافة إلى أن جيوش الإمام علي كانت حديثة الصلة به فسيطرت عليه ليست كاملة، كما أنه ليس معه مال يغدق منه على الأبطال والشجعان وعلى فرض

وجود المال معه فليس عليّ بالذي يعطي من مال الله في غير وجهه، من جانب آخر كان ﷺ صريحاً صلباً في رأيه لا يحيد عنه طالما اقتنع بحصته وارتضاه ضميره، ولذلك كان كثيراً ما يحاسب عماله على الصغيرة والكبيرة حساباً عسيراً الأمر الذي أغضبهم فانفض بعضهم من حوله.

وفي المعسكر الآخر كان يقف معاوية متخذاً من دمشق عاصمة لإمارته التي تولاها منذ خلافة عمر بن الخطاب، وقد أضاف عليها بلدانا أخرى ضمها إليها عثمان، وامتدت السنوات بمعاوية في الشام وهو سياسي ضليع يعرف الوسيلة إلى قلوب الناس عن طريق الدهاء أو العطاء، لاسيما وأن بلاد الشام غنية فتية لم يعرف سكانها منذ دخلوا الإسلام أو دخل الإسلام بلادهم حكماً أزهى ولا أطول من حكم معاوية.

وقد جمع معاوية حوله بطانة من دهاة العرب على رأسهم عمرو بن العاص أحاط بهم نفسه وأشركهم في أمره لا يفتات عليهم برأي ولا يبرم دونهم أمراً، فأنثر ذلك إخلاصاً له وتغانياً في خدمته، كما تجمع حول معاوية بنو أمية أو أكثرهم، وكثير من غيرهم من بطون العرب وقبائلها لاسيما القبائل اليمنية في الشام لما كان بينهم وبينه من صلة المصاهرة، فقد كانت زوجته ميسون من قبيلة كلب، كما كانت إحدى زوجات الخليفة الشهيد عثمان كلبية أيضاً، فوقف هؤلاء إلى جوار معاوية يشدون أزره ويعملون وفق إرادته، وكان لدى معاوية جيش لا يعرف غيره ولا يطيع سواه، ففي الوقت الذي بلي فيه علي بأخبث جند يدعوهم

فَيَثَاقِلُون، وَيَسْتَفْرِهِمْ فَلَا يَخْرُجُونَ مُحَاوِلِينَ الْإِطْلَاعَ عَلَى مَا يَنْبَغِي إِخْفَاؤُهُ مِنَ الْأُمُورِ.

كَانَ جَيْشُ مُعَاوِيَةَ طَوَّعَ أَمْرَهُ لَا يَسْأَلُونَهُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَقَدْ مَضَى عَلَى مُعَاوِيَةَ ثَمَانِيَّةٌ عَشْرَ عَاماً وَهُوَ أَمِيرُ الشَّامِ، تَوَطَّدَتْ فِيهَا قَدَمُهُ وَزَادَ نَفُوذُهُ لَا سِوَمَا إِبْرَانَ حَكَمَ عُثْمَانُ، فَأَصْبَحَ فِي الْوَقَاعِ الْحَاكِمَ الْأَعْلَى وَالْمَرْجِعَ النَّهَائِي لِكُلِّ الْأُمُورِ وَمَنْ ثُمَّ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ الْجَرَأَةَ عَلَى أَنْ يَتَحَدَّى الْخِلَافَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ، تَحْتَ غَطَاءِ الْمَطَالِبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ.

مَوْقِعَةُ صَفِّينَ:

فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ عَلِيٌّ يُوَاجِهُ الْمَشَاكِلَ الَّتِي تَرْتَبَتْ عَلَى مَقْتَلِ عُثْمَانَ كَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ يَجْمَعُ صَفُوفَهُ فِي بِلَادِ الشَّامِ وَيُؤَلِّبُ أَهْلَهَا عَلَى عَلِيٍّ، وَيَتَهَمُهُ عَلَى مَنْبَرٍ جَامِعٍ دِمَشْقَ بِأَنَّهُ تَسْتَرُ عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ وَأَنْ دَمَهُ فِي عُنُقِهِ، وَمُبَالَغَةً مِنْهُ فِي اسْتِثَارَةِ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى عَلِيٍّ وَاجْتِذَايِهِمْ حَوْلَهُ، نَصَبَ قَمِيصَ عُثْمَانَ وَقَدْ خَضِبَ بِدَمِهِ عَلَى مَنْبَرِ دِمَشْقَ وَعَلَى أُرْدَانِهِ أَصَابِعَ نَائِلَةِ مَدْلَاةٍ، وَكَانَ يَذْكُرُ لَهُمْ فِي خُطْبِهِ مَا صَنَعَهُ قَتْلُ عُثْمَانَ بِهِ فِيْبِكِي النَّاسِ، فَيَنْتَهَزُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَطَالِبَةِ بِدَمِهِ، كَمَا أَنَّ زَوْاجَهُ مِنْ مَيْسُونِ بِنْتِ بَحْدَلِ الْكَلْبِيِّ النَّصْرَانِيَّةِ كَانَ سِنْدًا قَبْلِيًّا قَوِيًّا لَهُ.

وَقَدْ نَجَحَ مُعَاوِيَةُ فِي خُطْبَتِهِ نَجَاحًا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَسْبَانِ، إِذْ أَجْمَعَ أَهْلَ الشَّامِ عَلَى الْإِلْتِفَافِ حَوْلَهُ وَأَقْسَمَ رِجَالُ مَنْهُمْ أَنْ لَا يَمْسُحُ الْمَاءَ إِلَّا لِلْغَسْلِ مِنْ

الجنابة وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان^(٢٢)، كما أجمعوا على مبايعة معاوية أميراً عليهم، فبعث الرسل إلى كور الشام يطلب منهم أن يبايعوا له بالإمارة، فبايعوا له بها باستثناء شرحبيل بن السمط الكندي والي حمص الذي بايعه بالخلافة هو وأهل حمص وكتب إليه يقول: "أما بعد فإنك أخطأت خطأ عظيماً حين كتبت إلي أن أبايع لك بالإمارة وأنت تريد أن تطلب بدم الخليفة المظلوم وأنت غير خليفة، وقد بايعت ومن قبلي لك بالخلافة"، ثم إن معاوية دعا الناس وأطلعهم على هذا الكتاب ودعاهم إلى بيعته بالخلافة فأجابوه^(٢٣).

وكان علي قد استعمل الأشر على الموصل ونصيبين ودارا وسنجار وآمد وميفارقين وهيت، كما استعمل على مصر قيس بن سعد، ثم عزله واستعمل الأشر النخعي، فتوفي بالطريق فبعث محمد بن أبي بكر ثم بعث علي بعد فراغه من الجمل إلى جرير بن عبد الله البجلي وكان عاملاً لعثمان على همذان، وإلى الأشعث بن قيس وكان عاملاً لعثمان على أذربيجان يأمرهما بأخذ البيعة والحضور عنده، فقدموا إليه فسير جرير رسولا إلى معاوية فألقاه وعنده وجوه أهل الشام، فلما أطلع على مضمون كتاب علي استشار أشراف أهل بيته فأشار عليه أخوه عتبة بأن يستعين بعمر بن العاص وكان مقيماً في ضيعة له بفلسطين معتزلاً للفتنة، فأرسل إليه معاوية يستقدمه وكان عمرو يفضل معاوية على علي، فأقبل مع ابنه وأبدى قبوله لمساعدة معاوية في صراعه المقبل ضد علي، علي أن يجعل له مصر طعمة^(٢٤)، فلما بايع أهل الشام لمعاوية بالخلافة

على النحو الذي أشرنا إليه أرسل جريراً إلى علي يخبره أن معاوية وأهل الشام لا يجيبونه إلى البيعة.

ثم عزم معاوية على السير إلى صفين فبعأ أهل الشام وجعل على مقدمته أبا الأعور السلمي وعلى ساقته يشير بن أرطاة وعلى الخيل عبيد الله بن عمر ابن الخطاب، وعلى الميمنة يزيد العباسي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص، ثم سار في ٨٣ ألفاً من أهل الشام حتى نزل بصفين في النصف من المحرم (٢٥).

أما علي فقد تجهز للسير نحو الشام عن طريق الجزيرة، فدعا الناس إلى التجمع في المعسكر بالنخيلة، واستخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاري ثم خرج إلى النخيلة، فأقام معسكراً وبعث زياد بن النضر الحارثي في طليعة من ثمانية آلاف مقاتل، وبعث معه شريح بن هاني في أربعة آلاف ثم رحل في ثمانين ألف رجل حتى وافى المدائن فسير من هناك معقل بن قيس في ٣ آلاف من الرجال لموافاته عن الرقة (٢٦).

ثم واصلت قوات علي السير حتى انتهت إلى موضع يدعى سور الروم، وكان معاوية قد زحف بجيوش الشام حتى وصل صفين، وهي قرية من بناء الروم وعسكرت قواته هناك، وأمر معاوية أبا الأعور السلمي بأن يقف في عشرة آلاف من أهل الشام على طريق الشريعة ليمنع من أراد ورود الماء من جيش العراق، ولكن قوات علي تمكنت من مهاجمة أبي الأعور السلمي ونجحت في التغلب على الماء، ولكن علي أمر بالامتنع أهل الشام من ورودهم، فكانوا

يسقون جميعاً ويختلط بعضهم ببعض، بل كان عسكر بعضهم يدخل في عسكر بعض، حتى ظن الناس أن الصلح وشيكاً^(٢٧) وقضى الفريقان شهر محرم من سنة ٣٧ دون حرب طمعاً في الصلح، واختلفت بينهما الرسل، ولكن هذه المفاوضات لم تسفر عن أي نتيجة فلما انسلخ شهر المحرم استعد الفريقان للقتال، وتم الاشتباك في أول صفر، ودامت الحرب عشرة أيام تخللتها في بعض الأحيان مبارزات فردية، وفي أحيان أخرى اشتباكات ضارية تبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة وقتل من الجانبين أعداد هائلة.

وفي اليوم العاشر من بداية المعركة رجحت كفة علي، وأوشكت قواته على سحق قوات معاوية وعمرو، فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهزيمة عمد إلى اصطناع الخديعة، فأمر برفع المصاحف على الرماح والمناداة بتحكيم كتاب الله بين معاوية وعلي، والظاهر أن عمراً ومعاوية دبوا ذلك مقدماً، فأمر أصحابهما بحمل نسخ من المصحف لترفع على الرماح عند الضرورة، لعلهما بأن جيش علي كان يضم فريقاً من القراء الذين يعملون بكتاب الله إذا دعاهم إلى ذلك.

وكان عمرو يرمي من وراء رفع المصاحف على الرماح إحداث انقسام في صفوف جيش علي، وقد عبر عمرو عن ذلك في قوله لمعاوية: "ترفع المصاحف، ثم نقول لما فيها: هذا حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل، فتكون فرقة بينهم" وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال فيها إلى أجل^(٢٨). وفي رواية أخرى قال: "إني قد أعددت بحيلتي

أمراً أخرته إلى هذا اليوم، فإن قبلوه اختلفوا، وإن ردوه تفرقوا، قال معاوية: وما هو؟ قال عمرو: تدعوهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك^(٣٩) وهذه الرواية تؤكد أن عمرو كان قد دبر هذه الحيلة قبل أن تتقدم قوات معاوية إلى صفين، فقد وضع علياً بذلك موضعاً حرجاً، فإن قبل بتحكيم الله فإن جماعة من جنده يفترون عنه، وإن واصل الحرب والقتال والمصاحف مرفوعة يكفره أصحابه، وفي أي من هاتين الحالتين يتحول الموقف إلى صالح الأمويين.

لم تنطل تلك المحاولة الخادعة على الإمام علي، فأقبل على أصحابه يحذرهم من المكيدة ويؤكد لهم معاوية وعمرو وابن أبي سرح وغيرهم من المتحالفين مع معاوية ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، فهو يعرفهم كل المعرفة، وأنهم لم يرفعوا هذه المصاحف إلا خديعة ووهنا ومكيدة^(٤٠).

ولكن نفراً من رجاله هددوه إما أن يجيب إلى كتاب الله إذ دعي إليه أو يفعلوا به كما فعلوا بابن عفان، وعز على علي أن يخيره رجاله بين الأمرين فتركهم أحراراً في اختيار أحد أمرين: إما طاعته وتتمثل في مواصلة القتال، وإما عصيانه فيفعلوا كما شاء لهم أن يفعلوا، فاختاروا التحكيم، ثم وقع اختياره على أبي موسى الأشعري ممثلاً لأهل العراق في التحكيم، وحاول علي عبثاً أن يثنهم عن هذا الاختيار ورشح لهم ابن عباس فإن لم يرضوا به فالأشتر النخعي فأبوا إلا أبا موسى.

وتمت كتابة صحيفة التحكيم التي تتضمن شروط الحكم وموعد اجتماع الحكمين في ١٧ صفر سنة ٣٧هـ بحضور عمرو بن العاص ممثلاً عن أهل الشام

وأبي موسى الأشعري ممثلاً عن أهل العراق، واتفق الطرفان على أن يكتب اسم علي بدون لقب أمير المؤمنين وفي ذلك اعتراف ضمنى من المشرفين على التحكيم -على الأقل- بنزول علي -عندهم- كخليفة للمسلمين إلى مرتبة معاوية المطالب بالخلافة، ونصت الصحيفة على أن يحيى الحكمان ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، وأن ينزلا عند حكم الله وألا يتبعا الهوى ولا يدهنا في شيء من ذلك، فإن فعلا فلا حكم لهما والمسلمون من حكمهما براء، وجعل الطرفان أجل القضاء إلى شهر رمضان على أن يجتمع الحكماء في مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام، وشهد من المسلمين شهود من الطرفين.

ونتيجة لاختلاف الكلمة وتفاوت الرأي وانقسام الصفوف بين مؤيد للتحكيم ومعارض له، إلى حد التضارب بالمقارع ونصال السيوف، أمر علي أنصاره بالرحيل إلى الكوفة بينما ذهب معاوية وجماعته إلى دمشق، وخرج المعارضون للتحكيم على عليّ وعادوا من طريق أخرى غير الطريق التي سلكها هو وأصحابه فقد "عادوا وهم أعداء متباغضون وقد فشا فيهم التحكيم يقطعون الطريق بالشنائم والتضارب بالسياط"^(٣١)، فدخل علي الكوفة ولم يدخل الخوارج معه، فقد انحاز منهم عنه اثنا عشر ألفاً من القراء وغيرهم، فلحقوا بقرية حروراء من قرية الكوفة وجعلوا عليهم شبيب بن ربعي التميمي وعلى صلاتهم عبد الله بن الكواء الشكري، وعرفوا بـ "الحرورية" نسبة إلى هذه القرية وهم أول من أنكر تحكيم الرجال وكان شعارهم "لا حكم إلا لله".

لقد أجبر الإمام علي على قبول التحكيم كارهاً له تماماً، كما أكره أيضاً على اختيار نائبه في التحكيم وهو أبو موسى الأشعري، وبهذا التحكيم انتهت موقعة صفين التي راح ضحيتها عدد كبير من المسلمين وكانت نتيجتها زيادة الفرقة بين المسلمين وخاصة ضد الإمام علي.

التحكيم:

إن قبول الإمام علي لفكرة التحكيم -كارهاً كما أشرنا- ألحقت ضرراً بمركزه كخليفة للمسلمين، وهو بالتأكيد مدرك لهذا، كما ترتب على ذلك ظهور حركة الخوارج أو المحكمة، والتي تعد في حد ذاتها ثورة على استئثار قريش بالسلطة، فهم يذهبون إلى القول بأن "الأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عزوجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"^(٣٢)، وهم بذلك ينكرون الخضوع للسلطان المركزي ويظهرون سخطهم على قريش لانفرادها بالخلافة.

لقد وجد الإمام علي ﷺ نفسه وقد أقحم في قضية يرفضها، ولكنه من جانب آخر لم يجد مناصاً من متابعتها، فوجه مع أبي موسى الأشعري شريح بن هانئ في أربعة آلاف من خاصته وبعث معاوية مع عمرو بن العاص أبا الأعور السلمي في عدد مماثل إلى دومة الجندل وسار إلى دومة الجندل بأذرح أيضاً فنة اعتزلت الحرب منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير وسعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة ليشهدوا صدور قرار التحكيم، وسبق إصدار الحكم

مداولة بين الحكمين اتفقا خلالها على خلع علي ومعاوية وترك الخلافة شورى بين المسلمين^(٣٣) وافترقا على ذلك.

ثم عقد الحكمان في صباح اليوم التالي مجلساً لإصدار الحكم في المسجد الجامع حضره عدد كبير من المسلمين فقدم عمرو أباً موسى عليه في الكلام تظاهراً باحترامه لكبر سنه حتى يبدأ بإعلان خلع علي ومعاوية، فصعد أبو موسى وقال: "أيها الناس إنا قد نظرنا فيما يجمع الله به ألفة هذه الأمة ويصلح أمرها، فلم نر شيئاً هو أبلغ في ذلك من خلع هذين الرجلين: علي ومعاوية، وتضييرها شورى ليختار الناس لأنفسهم من رؤوهم لها أهلاً، وإنني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من أحببتهم" ثم نزل، فصعد عمرو وخاطب المسلمين قائلاً: "إن هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، ألا وأني قد خلعت صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية فإني ولي أمير المؤمنين عثمان، والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه"^(٣٤).

وفي رواية يذكرها المسعودي^(٣٥) أن أبا موسى أعلن خلعه لعلي ومعاوية كخلعه لعمامته التي كانت على رأسه، فأهوى إلى عمامته فخلعها، وأنه استخلف عبد الله بن عمر ثم صعد عمرو وأعلن قبوله لخلع علي ولكنه يستخلف معاوية، فشتمه أبو موسى وحاول تكذيبه، ولكن عمراً قال: "بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع علياً ولم أخلع معاوية" وماج القوم ... وأنسل موسى فركب راحلته وهرب حتى لحق بمكة، في حين انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة.

نتائج التحكيم:

كانت نتيجة التحكيم في صالح معاوية لا لإعلان خلع علي وتثبيت معاوية ولكن لأن الانقسام بعد التحكيم قد ظهر واضحاً في جيش علي، فقد انقسم أتباعه إلى شيعة ظلوا على الولاء له، وإلى خوارج رفضوا التحكيم وأعلنوا العصيان، وبدؤوا يثيرون على علي ويعتزلونه لأنه قبل التحكيم والعجيب أنه كان بين الخوارج كثيرون ممن أرغموا علماً على قبول التحكيم، وكانوا يعترفون بذلك ويقولون: أخطأنا فلماذا نتبعنا في خطأنا وأنت الخليفة، يجب أن تكون أبعد نظراً وأعمق رأياً! وانشقوا عليه وخرجوا إلى النهروان.

وكان معاوية قد أرسل بعد صدور قرار التحكيم جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص، وكان يلي مصر في هذه الآونة محمد بن أبي بكر، وكان محمد شاباً لا تجربة لديه جاهلاً بأمور السياسة وإدارة البلاد فأساء إلى العثمانية في مصر بدلاً من أن يصطنعهم فنار عليه معاوية بن حديج السكوني ومسلمة بن مخلد وطالبا بدم عثمان، وأجابهما إلى ذلك جمهور كبير من أهل مصر، فاستغل معاوية هذه الفرصة وأمر عمرو بن العاص بقيادة حملة مؤلفة من ستة آلاف رجل، فسار عمرو إلى مصر وانضمت إليه العثمانية، واشتبك مع قوات ابن أبي بكر في المسناة بالقرب من القسطاط فانهزم محمد بن أبي بكر وآوى إلى خربة بنواحي القسطاط فقبض عليه ابن حديج وهو يكاد يموت عطشاً فقتله ووضع في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار، وهكذا أصبحت مصر تابعة لسلطة معاوية، وأصبح عمرو بن العاص والياً عليها^(٣٦).

من جانب آخر ترتب على صدور التحكيم أن تضعف مركز علي بن أبي طالب بانقسام أهل العراق على أنفسهم في الوقت الذي قوي فيه مركز معاوية بعد ضم مصر إليه ومبايعته بالخلافة، بل إن معاوية لم يكتف بذلك الانتصار بل هاجم البصرة من مناطق نفوذ علي في العراق، في سنة ٣٨ هجري ووزع جيوشه في العام التالي في العراق، فوجه النعمان ابن بشير في ألف رجل إلى عين التمر، كما وجه سفيان ابن عوف في ستة آلاف رجل إلى هيت والأنبار والمدائن وعبد الله ابن مسعدة في ألف وسبعمائة إلى تيماء، بل ذكروا أن معاوية خرج بنفسه في نفس سنة ٣٩ هجرية حتى شارف دجلة ثم عاد، كذلك سير معاوية بعثاً إلى الجزيرة فأغار على نواحي الرقة كما بعث السرايا إلى دارا والساوة ودومة جندل.

وفي العام التالي بعث معاوية بشر بن أبي طالب أرطاة للإغارة على الحجاز واليمن ودخل بسر ولم يقاتله أحد وهدم بها دوراً ثم سار إلى مكة وأكره الناس على البيعة لمعاوية ثم زحف إلى اليمن وقتل جماعات من الأبناء من شيعة علي في اليمن، وهكذا استقر الأمر لمعاوية في الشام ومصر والحجاز واليمن وشمال الجزيرة، أما علي فقد شغل بمحاربة الخوارج، فاشتبك مع الحرورية اتباع عبد الله بن وهب الراسبي في النهروان في سنة ٣٨ هجرية وهزمهم وقتل زعماءهم في ساعة، وكان ممن قتل زيد بن حصين الطائي وعبد الله بن وهب الراسبي، وحرقوق بن زهير، وعبد الله السلمي، ثم حارب علي خوارج الأنبار وماسندان وجرجرايا بالقرب من المدائن^(٣٧).

اتفق ثلاثة رجال من الخوارج بعد وقعة النهروان بأشهر على قتل علي ومعاوية وعمر بن العاص في ليلة واحدة، وهم: عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والنزال بن عامر، وعبد الله بن مالك الصيداوي، على أن يتولى بن ملجم قتل علي، والنزال معاوية وابن مالك عمرو، فترصد عبد الرحمن بن ملجم عليا وهو مقبل يؤدي صلاة الفجر فقام عليه بن ملجم وضربه بسيف قد سم حده على رأسه، فحمل علي إلى منزله، وقبض الناس على ابن ملجم، ولم يمسي علي عنه يومه ذاك حتى مات في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هجرية، أما محاولة اغتيال كل من معاوية وعمر بن العاص فلم يكتب لها النجاح^(٣٨).

وهكذا قضى كرم الله وجهه - شهيداً بعد أن امتدت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، وكانت سنة يوم وفاته ثلاثاً وستين عاماً. وبوفاة الإمام علي بن أبي طالب انتهى عصر الخلفاء الراشدين.

والحمد لله والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

هوامش الفصل الرابع

- ١- الطبري، ج ٥، ص ١٥١ وما بعدها.
 - ٢- السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٢.
 - ٣- ابن الأثير، ج ٣، ص ١٩٣ وما بعدها.
 - ٤- الطبري، ج ٥، ص ١٥٣، ابن الأثير، ج ٣، ص ١٨٩.
 - ٥- الطبري، ج ٥، ص ١٥٧.
 - ٦- المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٤-١٠.
 - ٧- ابن الأثير، ج ٣، ص ١٩٧، ابن قتيبة، ص ٥٠، المسعودي، ج ٢، ص ٣٥٤.
 - ٨- ابن الأثير، ج ٣، ص ١٩٧.
 - ٩- أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٤٣، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٠٣.
 - ١٠- ابن الأثير، ج ٣، ص ١٩٧.
 - ١١- انظر: محمد الدقن، عصر الخلفاء الراشدين، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٧٧-١٧٨.
- * - أخذت هذه الموقعة اسمها من الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة زوجة الرسول بنت أبي بكر الصديق.
- ١٢- ابن الأثير، ج ٣، ص ١٩٧.

- ١٣- ابن قتيبة الدنيوري، ص ٥٦.
- ١٤- الأخبار الطوال، ص ١١٤، ابن قتيبة، ص ٧٢، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٢٥.
- ١٥- ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٣١.
- ١٦- ابن قتيبة، ص ٧٤، أبو حنيفة الدنيوري، ص ١٤٧، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٤٠.
- ١٧- ابن قتيبة، ص ٧٦، أبو حنيفة الدنيوري، ص ١٤٨.
- ١٨- ابن قتيبة، ص ٧٩، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٤٤.
- ١٩- الدنيوري، ص ١٥١، ابن قتيبة، ص ٨٠.
- ٢٠- ابن قتيبة، ص ٧٦، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.
- ٢١- أنظر: محمد الدقن، مرجع سابق: ١٨٢ - ١٨٧.
- ٢٢- ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٧٧.
- ٢٣- ابن قتيبة، ص ٨٢.
- ٢٤- الدنيوري، الأخبار الطوال، ص ١٥٨.
- ٢٥- المسعودي، ج ٢، ص ٣٧٥.
- ٢٦- ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٨٠.
- ٢٧- المسعودي، ص ٣٧٧، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٨٥.
- ٢٨- ابن الأثير، ج ٣، ص ٣١٦.

- ٢٩- الدنيوري، ص ١٨٨.
- ٣٠- ابن الأثير، ج ٣، ص ٣١٦.
- ٣١- المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٢.
- ٣٢- المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٦.
- ٣٣- الدنيوري، ص ٢٠٠، المسعودي، ج ٢، ص ٣٩٧.
- ٣٤- المصدر نفسه، ص ٢٠١.
- ٣٥- المسعودي، ص ٣٩٩.
- ٣٦- اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢١.
- ٣٧- ابن الأثير، ج ٣، ص ٣٧٢-٣٨٣.
- ٣٨- ابن قتيبة، ص ١٥٢، الدنيوري، ص ٢١٥، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٩٤.

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الكتاب المقدس.
- ٣- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار أصادر بيروت، ١٩٦٧.
- ٤- الأزرقى، أخبار مكة، بيروت، ١٩٦٤.
- ٥- الأصبهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، بيروت، ١٩٥٦.
- ٦- الأصفهاني، حمزة، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، برلين، ١٣٤٠ هـ.
- ٧- الأصبخري، كتاب المسالك والممالك، لندن، ١٩٢٧.
- ٨- أحمد أمين، فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٤٥.
- ٩- البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٧.
- ١٠- ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، ١٩٦٥.
- ١١- الدنيوري، أبو حنيفة، الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦١.
- ١٢- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الدولة العربية حتى سقوط الدولة الأموية، بيروت، ١٩٨٦.
- ١٣- ابن سعد، أبو عبد الله محمد، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٩٥٧.

- ١٤- السمهوري، أبو الحسن بن عبد الله، كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، القاهرة، ١٣٢٦هـ.
- ١٥- السيوطي، حسن المحاضرة، القاهرة، ١٣٢٧.
- ١٦- ابن شربة، عبيد الجرمي، أخبار اليمن، ملحق بكتاب التيجان، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٧هـ.
- ١٧- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.
- ١٨- عاقل، نبيه، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣.
- ١٩- العلي، صالح أحمد، محاضرات في تاريخ العرب، بغداد، ١٩٥٩.
- ٢٠- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٨.
- ٢١- فروخ، عمر، تاريخ الجاهلية، بيروت، ١٩٦٤.
- ٢٢- ابن قتيبة، الدنيوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، كتاب المعارف، القاهرة، ١٣٠٠هـ.
- ٢٣- ابن الكلبي، الأصنام، القاهرة، ١٩٦٥.
- ٢٤- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨.

- ٢٥- كستر، الحيرة ومكة، ترجمة يحيى الجبوري، بغداد، ١٩٧٦.
- ٢٦- المقدسي، المطهر بن طاهر، كتاب البدء والتاريخ، باريس، ١٩٠٣.
- ٢٧- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن، ١٩٠٦.
- ٢٨- نولدكه، ثيودور، أمراء غسان، ترجمة بندلي جوربي وقسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٣.
- ٢٩- هارننج، لإنكستر، آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، عمان، ١٩٦٥.
- ٣٠- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، كتاب سيرة النبي، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، ١٩٤٦-١٩٥٥.
- ٣١- الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، نشره محمد عبد الله بلهيد النجدي، القاهرة، ١٩٥٣.
- ٣٢- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، مغازي رسول الله، تحقيق مارسدن جونس، اكسفورد، ١٩٦٦.
- ٣٣- هشام جعيط، في السيرة النبوية، ج ١، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٠.
- ٣٤- ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٥.

- ٣٥- يحيى الشامي، الشرك الجاهل وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- ٣٦- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، د.ت.

الفهرس

المقدمة	٣
الفصل الأول: خلافة أبي بكر الصديق	٧
المبحث الأول: ظهور منصب الخلافة وتولية أبي بكر الصديق	٩
نظام الخلافة:	٩
ظهور منصب الخليفة ^(١) :	١٠
اختيار خليفة لرسول الله ﷺ:	١٤
المبحث الثاني: حركات الردة	١٧
من أشهر الحركات الارتداد بعد وفاة الرسول :	١٩
أسباب الردة ودوافعها:	٢٢
قمع حركة الردة:	٢٥
المبحث الثالث: انطلاق حركة الفتوح الإسلامية	٣٥
دوافعها وأسبابها:	٣٥
تحرير العراق:	٤٣
مقدمات تحرير العراق:	٤٧
الاشتباكات الأولى قبل الحيرة:	٥٠
تحرير الحيرة:	٥١
تحرير الأنبار:	٥٣

٥٥	تحرير بلاد الشام:
٦١	معركة أجنادين:
٧١	الفصل الثاني: خلافة عمر بن الخطاب:
٧٣	المبحث الأول: فتوح العراق وفارس والجزيرة الفراتية:
٧٤	معارك جبهة العراق:
٧٦	أهم المعارك قبل القادسية:
١١١	القتال في ثلاث جبهات لتحرير الأراضي العراقية:
١١٢	الجبهة الشمالية:
١١٦	الجبهة الجنوبية:
١١٧	الجبهة الوسطى:
١٢١	وقعة نهاوند [فتح الفتوح]:
١٢٨	المبحث الثاني: فتوح الشام ومصر وبرقة:
١٢٨	استكمال تحرير بلاد الشام:
١٤٦	المبحث الثالث: التنظيمات الإدارية في البلاد المفتوحة:
١٤٦	بناء المدن الجديدة:
١٤٧	تأسيس البصرة:
١٤٩	تمصير البصرة:
١٥٣	تأسيس الكوفة:
١٥٦	تأسيس القسطنطينية:
١٦٠	التنظيمات المالية:

تنظيمات إدارية أخرى:	١٦٨
الفصل الثالث: خلافة عثمان بن عفان	١٥٧
المبحث الأول: نشأته وبيعته بالخلافة	١٧٧
التعريف به:	١٧٧
اختيار عثمان خليفة:	١٨١
كتب عثمان إلى الولاة وعمال الخراج وإلى العامة:	١٨٨
سياسة عثمان في تولية الأمراء:	١٩٢
المبحث الثاني: الفتوحات في خلافته وأهم أعماله	١٩٥
الفتوحات الإسلامية في خلافة عثمان:	١٩٥
فتوحات المشرق:	١٩٦
الفتوحات في مصر:	١٩٨
بلاد النوبة:	١٩٩
فتح أفريقيا:	٢٠٠
تأسيس البحرية الإسلامية:	٢٠١
جمع القرآن:	٢٠٤
المبحث الثالث: الفتنة ومقتل سيدنا عثمان	٢٠٥
أسباب الفتنة:	٢٠٥
مقتل عثمان:	٢١٢
الفصل الرابع: خلافة علي بن أبي طالب	٢١٩
المبحث الأول: شخصيته، بيعته، منهجه في الحكم	٢٢١
.....	٢٧١

٢٢١	المبحث الأول: شخصيته، بيعته، منهجه في الحكم
٢٢١	شخصية علي بن أبي طالب:
٢٢٦	بيعة علي:
٢٢٩	سياسة الإمام علي عليه السلام ومنهجه:
٢٣٢	المبحث الثاني: معركة الجمل
٢٣٣	مقدمات الأحداث:
٢٤٩	المبحث الثالث: معركة صفين ونهاية الخلافة الراشدة
٢٦٥	المصادر والمراجع
٢٦٩	الفهرس

تَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ